

قبس من حياة الرسول ﷺ

قُبس من حياة الرسول ﷺ

الجزء الثاني

تأليف

الحاج محمد المرهون

منشورات

مؤسسة المصطفى للتحقيق والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمد ﷺ في المدينة

وصل الإمام علي إلى يثرب سالماً مع الفواطم، والتقى برسول الله ﷺ في مسجد قبا حيث كان في انتظاره، فاطمأن على سلامته وسلامته من معه من الفواطم، وعلى الأخص بضعته فاطمة عليها السلام. فأمر النبي الكريم بالرحيل إلى المدينة؛ فلقد جاء المؤمل حقاً، وها هو الرسول ﷺ يدخل المدينة، وقد ازدانت أرجاؤها بمظاهر البهجة والاحتفال، وعمت جنباتها أضواء المشاعر، تنعكس وهاجة على وجوه أصحابها، وتتألاً سروراً على حياة أهلها. ودخلت المدينة كلها في عرس؛ بالزغاريد تترنم الأفواه، وبالأناشيد تصدح الحناجر، والفرسان يندفعون فوق ظهور الخيل، والرجالة يزحفون على درب الموكب، والجميع يحتفون بالوafd العظيم.

وحتى ربات الحجال لم تفتن المناسبة؛ لأنها الأولى من نوعها على مدينتهم؛ فالنساء يظهرن من الأخبية لتغصن بها الشرفات والسطوح، ومنهن من تطلق الزغرودة، أو تشر على رأس القادم العظيم الورد والأرز، أو ترش العطور والروائح الطيبة.

ويتهادى الموكب المهيب المبارك في سيره - ومن حوالبه حشد أهل المدينة قد أحاطوا برسول الله ﷺ من كل جانب، وفي نفس كل منهم رغبة في الوصول إلى قربه وإمساك زمام ناقته - ويظل الموكب مستمراً في سيره، لا يمر بدار من دور المسلمين إلا اعترض أهله طريقه، ودعوه إلى أن يقيم عندهم، ولا يجاذي منزل سيد من سادة القوم إلا ورجاه أن يحط رحاله فيه، فكل قبيل يريد ضيفاً ومقيماً

عنده، والكل يعرض القوة والمنعة والثروة.

ولكن رسول الله كان لا يجيب أحداً لطلبه، وكان في الوقت نفسه لا يرفض ما يرغبون به إليه، بل يقابلهم بابتسامة مشرقة تترجم فرحته بلقائهم، وشكره على احتفائهم، ودعاه لهم جميعاً بالخير والبركة، ثم يشير إلى ناقته ويقول: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة».

لم يكن رسول الله ﷺ قد اعتزم الإقامة في ناحية معينة في المدينة، بل ترك الأمور تسير على هدي من الله سبحانه وتعالى. لقد كانت تلك الدور كلها مشرعة الأبواب لاستقباله، ولكنه لم يكن ليؤثر إحداها، بل تابع السير إلى أن بلغ دار سالم بن عوف. وكانت صلاة الظهر قد أدركته، فأمر بالركب أن يتوقف، ونزل عن راحلته، وأمر بالوضوء فتوضأ، وتبعه المسلمون، وتقدم يؤمهم بالصلاة - التي كانت أول صلاة جمعة أقامها رسول الله ﷺ في الإسلام - وخطبهم - وكانت أول خطبة في الإسلام أمرهم فيها بطاعة الله والتعاون فيما بينهم، والتكاتف، وصلة الأرحام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - فبنى الصحابة مسجداً في موضع صلاته سمي مسجد الجمعة.

ثم راح يركب ناقته، وراحت هي تسير فيه، وقد أرخى لها الزمام، ويقول لكل من يريد أن يأخذ بزمامها: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». حتى أتت دار بني مالك بن النجار، فبركت هناك في المربد، وهو مكان يجفف فيه التمر، وهو لغلّامين يتيمين يقال لهما سهل وسهيل ابني رافع بن عمرو، فنزل عن ناقته، وهو يقرأ: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(١).

فاستقبله أبو أيوب الأنصاري، وحمل متاعه إلى داره، ولم يكن هذا أول لقاء

لأبي أيوب ؓ مع رسول الله ﷺ فمن قبل - وحين خرج وفد المدينة لمبايعة الرسول في مكة، تلك البيعة المباركة المعروفة ببيعة العقبة الثانية - كان أبو أيوب الأنصاري بين السبعين مؤمناً الذين شدوا أيانهم على يمين رسول الله ﷺ مبايعين مناصرين.

والآن ورسول الله يشرف المدينة، ويتخذها عاصمة لدين الله، فإن الحظوظ الوافية لأبي أيوب جعلت من داره أول دار يسكنها المهاجر العظيم والرسول الكريم. ولقد أثر رسول الله ﷺ أن ينزلها في دورها الأول، ولكن ما كان أبو أيوب يصعد إلى غرفته في الدور العلوي حتى أخذته الرجفة، ولم يستطع أن يتصور نفسه قائماً أو نائماً في مكان أعلى من المكان الذي يقوم فيه رسول الله ﷺ وينام. فراح يلح على النبي ﷺ أن ينتقل إلى الدور الأعلى، ويقول: والله لا يليق بنا، ولا بأحد من الناس أن يعلو سقيفة رسول الله تحتها. فيخبره النبي الكريم أن ما هو أرفق به وبمن يغشاه أن يكون في أسفل البيت. فبان على وجه أبي أيوب الحزن، فطيب رسول الله خاطره، ودعاه باليمن والبركة. فأقام بالمسكن العلوي، ولكنه كان يحاذر أن يأتي بحركة يشعر معها أنه يصبح مصدر إزعاج لرسول الله ﷺ. وبقي الرسول في دار أبي أيوب إلى أن تم بناء المسجد وبناء حجرة له بجواره.

النبي يبني مسجده

أقام رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب الأنصاري، واتجه همه منذ أن حطَّ قدميه في داخله إلى القيام بعمل في المدينة معلناً من خلاله عن نهج الإسلام في البناء والتوحيد، فدعا المسلمين لإقامة مسجد مباشرة قبل أي شيء آخر. فكان أول اهتمامات الرسول العظيم في المدينة بناء هذا المسجد الذي يعرف اليوم بمسجد رسول الله؛ إذ كان وما زال منذ أن وضع رسول الله ﷺ أساسه قائماً، ولسوف يبقى قائماً ما بقي الدهر. ولذلك دعا إليه المسلمين، وأمرهم بالبدء في إقامة هذا المسجد المقدس الذي اختار له المكان الذي بركت فيه ناقته.

ولم يترك الوقت يمر، بل دعا بالغلامين اليتيمين سهل وسهيل ابني عمرو، - وكانا في حجر أبي إمامة سعد بن زرارة - فساومهما على المربد ليتخذ مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى الرسول الكريم أن يقبله هبة منهما، وما زال بهما حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، واتخذ نزل وموضع مسجده. ولما اطمأن الرسول ﷺ إلى امتلاك المسلمين مكاناً عاماً، توجه من فوره أمام جمع حافل، وضرب أول معول في الأرض لحفر الأساس على عمق ثلاثة أذرع، فاندفع المسلمون إلى العمل، وملؤهم القوة والحماس.

ولم يكن العمل صعباً، ولا مواد البناء كانت نادرة، فهي عبارة عن قليل من الحجارة، وكثير من اللبن الذي يعجن من التراب ويسوى بشكل أحجار صالحة للبناء، ولكن هل المهم كله هو توفر الحجارة والطين؟ لا؛ فالأهم هو تلك الحماسة التي تبدت شعلة في نفوس القوم الذين أقبلوا على العمل الجماعي، وكان كل

واحد منهم يعتبره عمله الخاص به.

وكان يزيدهم إقبالاً واندفاعاً رؤيتهم سيدهم ونبيهم محمد ﷺ وقد
أبى إلا أن يكون واحداً منهم، يعمل بيديه الشريفتين، وينقل الحجارة واللبن على
صدره وكتفيه، ويقول:

هذا الجمال لا جمال خبيرٌ هذا أبرُّ ربنا وأطهرُ
ذلك هو الإسلام؛ عدالة، ومساواة في كل شيء، والفضل يكون لصاحب
العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله والرسول
كغيره من المسلمين.

ويسمع الصحابة ما يقوله الرسول الكريم، فيزدادون اندفاعاً لنيل ثواب الله،
وهم يتغنون منشدين:

لأنَّ قعدنا والنبي يعملُ لَذاك منا العمل المضللُّ

فيجيبهم رسول الله ﷺ داعياً لمن اجتهد في العمل:

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة
وعافهم من حر نار ساعره فإنها الكافر والكافره

ويريد الإمام علي عليه السلام أن يزيد في حماسة القوم فيرتجز ويقول:

لا يستوي من يعمر المساجدا يذاب فيه قائماً وقاعداً

ومن يرى من الغبار حائداً

ويسير العمل فترة قصيرة من الزمن يستوي بعدها المسجد قائماً، وإن كان بناء
متواضعاً بسيطاً لا تعقيد في بنائه، ولا زخرفة في جدرانه، ولا نقش في سقفه،
أساطينه من جذوع النخيل، وأما أعلاه فظلل من جريد النخيل، وارتفاعه سبعة

أذرع، وطوله سبعون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً، وكان مسجداً جامعاً لكل المرافق، تام المعدات.

وكانت عناصره وتفصيله تتألف من أووين وأساطين، وهبو ورحبة، ومصلى للنساء، وهو ما تتألف منه المساجد الجامعة وصحنه مكشوف، وبوسطه مظلة قد رفع عليها سقف تحمله أساطين من جذوع النخل سميت (الصفة)، وقد خصصها رسول الله ﷺ لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يمتلكون مسكناً، فلقبوا بأهل الصفة.

وكان رسول الله ﷺ يجالسهم، ويأنس بهم، ويقول لهم: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقراً وحاجة».

وجعل له أبواباً ثلاثة: الأول من الناحية الجنوبية حيث كانت القبلة إلى بيت المقدس ناحية الشمال، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة في السنة الثانية من الهجرة سد الباب الجنوبي لموقعه في جهة القبلة، وفتح آخر من الشمال. والثاني من جهة الغرب ويسمى باب الرحمة. والثالث من جهة الشرق ويسمى باب جبرئيل، وهو الذي يدخل منه النبي محمد ﷺ، ولا يدخل منه سواه، وهو الباب المؤدي إلى البقيع.

ولما قدم رسول الله ﷺ من غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة، زاد في المسجد من الشرق ومن الغرب، ومن الشمال حتى صار مربعاً طوله مئة ذراع، وعرضه مئة ذراع، وارتفاعه سبعة أذرع.

وكان النبي ﷺ لما بنى مسجده لم يفرشه، فلما أمطرت السماء أصبحت الأرض مبتلة فإذا سجد الرجل غاصت جبهته في الطين. فكان الرجل من المسلمين إذا جاء وقت الصلاة ملأ ثوبه من الحصباء، ويبسطه تحته، فلما قضى

رسول الله من الصلاة، رأى الحصباء فقال: «ما أحسن هذا البساط!». رواه أبو داود في سننه عن أبي الوليد عن ابن عمر.

وكان هذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام بعد مسجد قبا، وهو المسجد الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ أنه أسس على التقوى، قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾^(١).

وكان هذا المسجد أول تنظيحات رسول الله في المدينة المنورة؛ ليكون مقراً للحكومة الإسلامية الجديدة، ومصلى للمسلمين، ومحلاً عاماً لاجتماعاتهم وتشاورهم في الأمور العامة للدولة. وهو أول مدرسة إسلامية تخرج منها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. يقول حسان بن ثابت:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمنحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وأوضح آثار وبقاى معالم وربيع له فيه مصلى ومسجد
بها حجارة كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد

وقد قال رسول الله ﷺ في حقها: «المدينة مهاجري، ومنها مبعثي، وفيها قبري، وهي عاصمة الإسلام الأولى، وإن صلاة واحدة في مسجدتها تعدل عند الله ألف صلاة في غيرها».

تحويل القبلة

لقد بدا للجميع أن أول اهتمامات الرسول الأعظم عند نزوله المدينة المنورة هو بناء هذا المسجد الذي نعرفه اليوم بمسجد رسول الله ﷺ، ولكن لم كان ذلك الاهتمام من النبي ﷺ بإقامة المسجد قبل مباشرة أي شيء آخر؟ صحيح أن كل فعل خير يلاقي فيه الإنسان وجه ربه، وينعم من خلاله برضوانه ورحمته، وكلما اتسع عمل الخير فاضت تلك النعمة الربانية إيماناً وهدى وطمأنينة وبركات، ولكن الأهم هو مآثر عمل الخير، وحب الله سبحانه وتعالى لهذا الخير وفاعله فإن هناك غايات سامية لرسول الله ﷺ في بناء مسجده.

وهذه الغايات السامية المتشعبة التي أبرزها بناء المسجد النبوي الشريف تجعل الإنسان أسير التفكير فيها والتقدير لها. وهنا تكمن ناحية من نواحي السمو في فكر رسول الله ﷺ، فهو ﷺ كان يهدف من ضمن ما يهدف منها إليه أمور:

أولها: جمع المسلمين مهاجرين وأنصار على أول عمل مشترك بينهم.
وأما ثانياً فقد جعل فيه نصيباً لإيواء الفقراء المهاجرين الذين لم يكونوا يمتلكون مسكناً، فجعل فيه لهم مكاناً يأوون إليه، يدعى الصفة، فكان مثلاً لعمل الخير الرائع.

وهذا ما جعل المهاجرين والأنصار يندهبون ويتساءلون: ما هذا الدين الجديد الذي يصهر الناس في مثل هذه اللحمة الشديدة؟ ومن هذا الرسول الذي يبني جامعاً للمسلمين، وفي الوقت نفسه يفكر بالفقراء، فيجعل لهم فيه مكاناً يأوون إليه؟

وأما ثالثاً فهو رغبة في مكان بديل له عن غار حراء، للخلوة فيه للتعبد والتهجد، فكان بعد بناء المسجد يقضي جل أوقاته فيه متعبداً مصلياً بالمسلمين، خاطباً فيهم، معلماً لهم أصول دينهم.

وأما رابعاً فلأجل الصلاة التي هي الأساس لاتصال الإنسان بربه ولقائه كل يوم به ما دام ذلك الإنسان موجوداً على وجه الأرض، وهي أول فريضة من فرائض الإسلام، وأكثرها دوراناً مع الليل والنهار. وهي وحدها قبل غيرها الوسيلة الكافية الوافية لتمكين العبد من لقاء ربه ما زال في دنياه الأرضية. ولأن للصلاة تلك القيمة، فقد أراد رسول الله ﷺ أن يقيم بيتاً للصلاة حتى يمكن للمسلمين من أن ينعموا بتحقيق الصلة الربانية في رحابه، ويطلعوا على الحقائق التي يريدونهم الإسلام أن يهتدوا إليها.

فالمسجد في الإسلام كما يجمع الناس للعبادة وأداء فريضة الصلاة، كان أيضاً مدرسة للتعليم، وندوة يجتمعون فيه للنظر في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وملجأ للفقراء والمساكين يأوي إليهم منهم من لا يملك مسكناً، ولا يجد من يؤويه. فلما انتهى النبي ﷺ من بناء مسجده هبط عليه الأمين جبرئيل، وأقام له قبلة المسجد عن الله عز وجل إلى جهة بيت المقدس من ناحية الشمال.

واستمرت القبلة إلى بيت المقدس حتى أوائل العام الثاني من الهجرة. يقول ابن النجار: صلى النبي محمد ﷺ في مسجده بالمدينة، والقبلة إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أمر بالتحويل إلى الكعبة. والذي عليه الأكثر أن تحويلها كان في صلاة الظهر في أواخر شهر جمادى الآخرة.

وكان النبي محمد يرغب أن تكون قبلته الكعبة المشرفة؛ وذلك لما بلغه أن اليهود كانوا يعيرونه ويقولون: أنت تابع لنا، تصلي إلى قبلتنا. وقد حكى الله عنهم بقوله

تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١).

وقريش أيضاً يعيرون المسلمين، ويقولون: أنتم تقولون نحن على ملة إبراهيم الخليل، وأنتم تتركون قبلته، وتصلون إلى بيت المقدس قبله اليهود. فاغتم رسول الله غماً شديداً، وقال لجبرئيل: وددت أن الله صرفني عن قبله اليهود. وكان يخرج في جوف الليل يقلب وجهه، وينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله في ذلك أمراً.

يقول ابن النجار: عن عثمان بن محمد أن رسول الله ﷺ زار امرأة من بني سلمة يقال لها أم بشير بن البراء بن معرور الأنصارية، فصنعت له طعاماً، فحان وقت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجد بني سلمة، فلما صلى ركعتين نزل عليه الأمين جبرئيل، وأخذ بيده، وحوّله إلى جهة الكعبة، وأنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٢).

وحوّل من خلفه من المسلمين وجوههم إلى جهة الكعبة حتى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال؛ لأن بيت المقدس بالنسبة إلى المدينة يقع في الشمال، والكعبة المشرفة في الجنوب، وصلاة الظهر أربع ركعات كما هو معروف، فكانت ركعتان منها إلى بيت المقدس واثنان إلى الكعبة، وسمي المسجد مسجد القبليتين، وهو موجود يقع شمال غربي المدينة، وفيه محراب لجهة بيت المقدس، ومحراب لجهة الكعبة المشرفة.

قال ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن الكريم أمر القبلة. ولما أراد الرسول الأعظم تحويل قبلة المسجد النبوي الشريف من الشمال إلى الجنوب - أي من بيت

(١) البقرة: ١٤٢.

(٢) البقرة: ١٤٤.

المقدس إلى جهة الكعبة المشرفة - نزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ وقال: «يا محمد، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة». وأوماً بجناحيه إلى ناحية مكة، فأماط الله بقدرته كل جبل وشجر ومدبر بينه وبين مكة، فوضع النبي ﷺ قبلة مسجده، وهو ينظر إلى الكعبة المشرفة بعد أن كشف الله له ما بينه وبينها، فقد كان ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شيء.

وهكذا جعل قبلته إلى الميزاب، فلما فرغ النبي مع وضع القبلة أوماً جبرئيل بجناحه ثانية ناحية مكة، فأعاد الله الجبال والشجر وكل شيء على حاله، وفي ذلك يقول الشاعر:

كم للنبي المصطفى من آية غراء حار الفكر في معناها
لما رأى الباري تقلب وجهه ولاه أيمن قبلة يرضاها

الروضة الشريفة

قال الرسول الأكرم ﷺ: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، وتلعة من تلعتها».

لقد اختلف العلماء في معنى ما جاء في حديثه ﷺ حول الروضة الشريفة، فقال الحافظ ابن حجر: محصل ما أول به العلماء ذلك أن معنى قوله ﷺ: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة، لما ينزل فيها من الرحمة، وحصول السعادة، كما سمي مجالس الذكر رياض الجنة. قال الجهمال محمد الراساني: اتفقوا على أن هذا اللفظ معقول المعنى، مفهوم الحكمة، وإنما اختلفوا في ذلك المعنى ما هو؛ فقيل: اللفظ على حقيقته، وإن ذلك روضة من رياض الجنة بمعنى أنه بعينه نقل من الجنة، أو أنه سينقل إليها. وقيل: إن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة؛ لما ينزل فيها من الرحمة وحصول المغفرة.

وقال ابن الجوزي إن قول النبي محمد ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، أراد ﷺ أن تلك البقعة تنتقل إلى الجنة؛ فتكون روضة من رياضها، وتلعة من تلعتها، وأنها ليست كسائر الأرض تذهب وتفنى.

وجاء في بعض الأخبار أن البقعة نفسها روضة من رياض الجنة، أكرم الله بها نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، كما أن الحجر الأسود حجر من أحجار الجنة جاء به الأمين جبرئيل إلى خليله ونبيه إبراهيم حين أمره ببناء الكعبة المشرفة، وأمره أن يضعه في محله المعروف الآن؛ فيكون بينه وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو

أنه لما خص الخليل إبراهيم بالحجر من الجنة أكرم الله نبيه المصطفى بالروضة في مسجده.

فيكون الموضوع المذكور روضة من رياض الجنة الآن، ويعود روضة من رياض الجنة كما كان، ويكون للعامل بالعمل المأثور فيه روضة في الجنة. ويبلغ طول الروضة اثنين وعشرين ذراعاً من الشرق إلى الغرب وعرضها من الشمال إلى الجنوب خمسة عشر ذراعاً. وحدّها البعض الآخر من القبر إلى المنبر طولاً ومن المنبر إلى الإسطوانة عرضاً، وهي التي ورد فيها الحديث الشريف: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». وجاء في زيارتها - بعد أن تصلي فيها ما شئت - أن تقول: «اللهم إن هذه روضة من رياض الجنة، شرفتها وكرمتها، ونورتها بنور نبيك وحبيبك محمد بن عبد الله، فاحشرنى في زمرة، وأمتني على محبته، واسقني من حوضه شربة هنيئة لا نظماً بعدها أبداً يا أرحم الراحمين، وصلني الله على محمد وآله الطاهرين». واطلب حوائجك. يقول بعض الشعراء:

يا صاح إن وافيت طيبة والحرم	حرم المدينة من به خير الأمم
صل بروضتها الشريفة واتجه	الله في ذلك المقام المزدحم
هذي المدينة وهي أكرم موطن	نزل الرسول بها فقبول بالكرم

منبر الرسول

لم يكن للمسجد النبوي الشريف حين البناء منبر، ولم يكن أهل المدينة تعرف المنبر يوم ذلك. وكان النبي محمد ﷺ يخطب يوم الجمعة واقفاً إلى جذع نخلة كان عماداً من عمد المسجد يتساند إليه. وكان موضعه عند الإسطوانة المختلفة التي تلي القبر الشريف التي كان رسول الله يصلي عندها. فشق عليه القيام، وأثر ذلك على رجله، فقال له تميم الدارمي - وكان رجلاً من لحم من أهل فلسطين -: يا رسول الله، إلا أعمل لك ما هو أرفق لك من هذا الجذع من أن تقوم وتقعدي؟ فقال المصطفى: «وما تريد أن تفعل؟». قال: منبر. قال: «وما هو المنبر؟». قال: منبر تخطب عليه وأنت جالس، كما رأيت يصنع في الشام.

فأمره النبي ﷺ بعمله، فخرج خارج المدينة في الغابة، وقطع منها خشبات من شجر الأثل، وقيل: من شجر الطرفاء - وكان هذا الشجر موجوداً بكثرة خارج المدينة - فعمله، وجعل له درجتين غير المقعدة التي يجلس عليها رسول الله ﷺ، فلما اتخذ المنبر، وعدل إليه، وتحول عن الجذع الذي كان يستند إليه إذا خطب، جعل الجذع يحن تحزناً على مفارقة رسول الله ﷺ، ويخرج منه صوت كصوت العشار، فارتاع الناس لصوته، فأتاه النبي ﷺ واحتضنه، فسكن من الحنين، وما سمع له صوت بعد ذلك أبداً. وفي هذه المنقبة يقول صالح الشافعي: وحن إليه الجذع شوقاً ورقة وردد صوتاً كالعشار مردداً فبادره ضمماً فقراً لوقتِه (لكل امرئ من دهره ما تعودا) فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو لم أفعل ذلك لأخذ يحن إلى يوم

القيامة». ثم أمر النبي محمد ﷺ أن يحفر له تحت المنبر، ودفن هناك.
وفي مناقب الشافعي عن أبيه قال: ما أعطي نبي مثل ما أعطى الله النبي محمد
بن عبد الله. فقليل له: لقد أعطى عيسى إحياء الموتى، فما أعطي محمد؟ قال أعطى
النبي محمد حنين الجذع حتى سمع صوته، وهذا أكثر من إحياء الموتى.
وقال البيهقي: قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة.
وهكذا فإن قصة حنين الجذع مشهورة منتشرة، والخبر به متواتر أخرجه
أصحاب الصحاح، ورواه من الصحابة بضعة عشر صحابياً.

مساكن النبي ﷺ

على الرغم من الحفاوة والإكرام اللذين كانا يتمتع بهما رسول الله ﷺ منذ مجيئه المدينة المنورة، فإنه عزم على بناء مسكن له يقيم فيه، وهكذا فما إن فرغ من بناء مسجده الشريف حتى انصرف إلى بناء مسكنه بجوار مسجده، فشيّد لنفسه وأهله منزلاً متواضعاً؛ الأول لزوجته سودة بنت زمعة، والثاني للسيدة عائشة بنت أبي بكر على نعت بناء المسجد من اللبن وجريد النخل المطين من الداخل .

كما بنى أيضاً لابن عمه علي بن أبي طالب ؑ وابنته فاطمة زوجة علي ؑ بيتاً إلى جانبه ملاصقاً لبيته - لأنه لا يطيب له عيش إلا إذا رأى ابنته فاطمة - وفتح لفاطمة باباً إلى المسجد النبوي الشريف . فتبارك بيت لعلي وفاطمة . بيت موصول ببيت النبي الأكرم جدار واحد يفصل في الوقت نفسه بين ذينك البيتين .

وكان للبيت الجديد الذي نزلت فيه فاطمة ؑ وزوجها علي ؑ - ليكون لها في جوار البيت الكريم - جدار تسند إليه رأسها الشريف، فتسمع من خلفه نبض قلب الأب الكريم يخفق حباً وحناناً .

في هذا البيت الذي فضلت أن تنتقل إليه مع زوجها علي تيمناً بالجوار، والتصاقاً بالجدار تمت حياكة عمرها، سلام الله عليها .

ولما انتهى الرسول من البناء انتقل من بيت أبي أيوب الأنصاري إلى مساكنه الجديدة - بعدما دام بقاءه في دار أبي أيوب سبعة شهور - وأقام مع زوجته سودة بنت زمعة في إحدى الحجرتين اللتين ابتاهما . ولقد دأب رسول الله ﷺ على هذا

النهج؛ إذ كان كلما تزوج بامرأة ابنتى لها غرفة واحدة، حتى صارت مساكنه حول المسجد النبوي الشريف تسعة، أقيمت كلها في جنوبي المسجد وشرقيّه، وكانت مع ذلك مساكن غاية في التواضع والبساطة.

ولم تكن للمهاجرين يوم ذاك بيوت، فكانوا ينامون في المسجد، فنهاهم الرسول عن ذلك - مخافة أن يصبح أحدهم جنباً وهو في المسجد - وقال لهم: «لا ينبغي لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلا محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، إن الله أمر موسى بن عمران أن يبني مسجداً طاهراً لا يسكنه إلا هو وهارون، وإن الله أمرني أن أبني مسجداً طاهراً لا يسكنه إلا أنا وعلي بن أبي طالب وابنتي فاطمة وولداها الحسن والحسين».

فجعلوا يبنون لهم حجراً حول المسجد من الغرب والشمال، وجعلوا أبوابهم مشرعة إلى المسجد، فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ، وأمره بسدّ الأبواب كلّها بما فيها باب عمه العباس وحمزة أبناء عبد المطلب إلا باب علي ﷺ. فأمر الرسول ﷺ بسد جميع الأبواب إلا باب علي تركه مفتوحاً، فشق ذلك على أصحابه حين تبين لهم فضل علي عليهم، وظنوا أن ذلك من أمر النبي ﷺ حباً لابن عمه. فلما بلغ الرسول ﷺ ذلك دعا بالصلاة جامعة، فلما اجتمعوا صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، والله ما سدّدت أبوابكم وفتحت باب علي، ولكن الله فتح باب علي وسدّ أبوابكم. وإنما أنا عبد مأمور، ما أمرت به فعلت، إن أتبع إلا ما يوحى إلي».

فبقي باب علي مفتوحاً، وكان يدخل ويخرج منه وهو جنب، وهو طريقه ليس له طريق غيره، وفتح المسلمون المهاجرون لهم أبواباً من غير جهة المسجد. ومنذ ذلك الحين دخلت المدينة المنورة ميدان الحياة الصاعدة، وراح التأريخ يسطر

٢٤.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

الصفحات الخالدة بمداد النور والمعرفة عندما هاجر إليها وهبط بها الرسول
الأعظم عام ٦٢٢ ميلادية وأشرق بها نوره - وكان يومها مبدأ التاريخ الهجري -
إشراقاً غامراً على القرون، وعلى دول العالم المتعاقبة حتى الأبد بمشيئة الفرد
الصمد.

المؤاخاة

بنى النبي محمد ﷺ مسجده ومسكنه، وانتقل من بيت أبي أيوب الأنصاري إليه، ثم جعل يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتح بها، والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة في دور جديد من أدوارها. فلم تعد الدعوة مقتصرة على التثقيف، بل أصبحت واقعا قائما يريد له تطبيقاً عملياً يمارسه الناس، ويتجلى في علاقاتهم الخاصة والعامة، وهذا لا يكون إلا بإقامة الحكم المدعم بالقوة المادية إلى جانب قوة العقيدة.

وهنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة الرسول ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل، إلا وهو الطور السياسي الذي أبدى فيه النبي محمد ﷺ من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً يطأطئ الرأس له إجلالاً وإكباراً. لقد كان أكبر همه أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز، بحيث تكون نقطة الارتكاز التي يركز إليها الإسلام في تطبيق أحكامه، وإنشاء جيشه لحمايته من أعدائه.

ومن هنا توجه اهتمام النبي ﷺ إلى تنظيم صفوف المسلمين، وترسيخ وحدتهم للقضاء على كل ما يمكن أن يثير العداوة القديمة بينهم.

وقد اتخذ الرسول العظيم أساساً لهذا الأمر: وحدة العقيدة الإسلامية التي تجمع بين المسلمين كافة من مهاجرين وأنصار، وتؤلف بينهم، ولذا فقد ركز الرسول العظيم في إقامة هذه العلاقات على الأساس الواحد الجامع المتين الذي

هو العقيدة، ذلك الأساس الذي ظل يقيم عليه بنيانه طيلة ثلاث عشرة سنة بقوة الإيمان الصادق بالله الواحد الأحد. فبرز البناء شامخاً عالياً، وظهرت مآثره في حياة الفرد كما في حياة الجماعة عملاً صالحاً.

ولقد كانت المآثرة الفريدة من مآثر الرسول الكريم ﷺ التي هي واحدة من جملة مآثره العظيمة تظهر في دعوته المسلمين لترجمة العقيدة واقعاً عملياً يراه واضحاً في تأخيهم في الله أخوين أخوين؛ حتى يكون لأخوتهم الأثر الحاسم في معاملاتهم وأموالهم وشؤونهم كافة.

وهذا ما أرادته ونفذه، ثم إنه ﷺ أراد أن يكون في هذه الخطوة - كما هي عادته ﷺ في جميع الأمور الهامة - المثال المحتذى، فبادر إلى المؤاخاة بين صحابته الكرام اثنين اثنين، من أولهم إلى آخرهم؛ ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم بعضاً، ويربط بينهم برباط الإيمان، واعتبر هذا الرباط أوثق من رابطة العرق والدم. فكان أن أكد ﷺ بتلك الأخوة وحدة الهدف والغاية فيما بينهم بحيث إنهم لا يحبون ولا يكرهون، ولا يرضون ولا يبغضون إلا الله وفي سبيل الله.

وأراد من كل فرد من الأنصار أن ينظر لأخيه المهاجر كما ينظر لأخيه النسبي، فيحس بإحساسه، ويألم لآلامه، ويفرح لأفراحه، ويشاركه في السراء والضراء - لأن الوافدين إلى المدينة قد تركوا كل شيء وراءهم في مكة، وأصبح أكثرهم لا يملك قوت يومه - فخاطب الأنصار قائلاً: «إن إخوتكم قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا من ديارهم، وهاجروا إليكم يبغون رضا الله والدار الآخرة». فقالوا: يا رسول الله، أموالنا بينهم قطع. فأخى بينهم على الحق والمواساة، وجعل يضم الشكل إلى الشكل ليؤلف بينهما، فأخى بين عمر وأبي بكر، وأخى بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وأخى بين طلحة والزبير، وأخى بين أبي عبيدة بن الجراح

وسالم مولى أبي حذيفة، وأخى بين أبي بن كعب وابن مسعود، وبين معاذ ابن جبل وثنوبان، وبين أبي طلحة وبلال، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وبين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، وبين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين سعد بن أبي وقاص وصهيب الرومي، وبين أبي ذر والمقداد، وبين أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن سلام، وبين أسامة وهند حجام النبي ﷺ، وبين معاوية وحباب المجاشعي، وبين فاطمة بنت محمد وأم سلمة، وبين عائشة وامرأة أبي أيوب الأنصاري.

فتركت تلك المؤاخاة إحساساً في نفوس الأنصار بالمسؤولية تجاه إخوانهم المهاجرين، فكان أن آثروهم على أنفسهم حتى إن الرجل المسلم من الأنصار كان يطلق زوجته الثانية بمحض إرادته ليتزوجها أخوه المسلم المهاجر الذي لا زوجة له عند انتهاء العدة، كما وقع بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع اللذين أخى بينهما رسول الله؛ فقد فقال سعد لعبد الرحمن: أنت أخي، وأنا أكثر الأنصار في المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذ، وتحتي امرأتان فانظر أيهما تعجبك حتى أطلقها، وبعد العدة تتزوجها. فقال عبد الرحمن: بارك الله في أهلك ومالك يا أخي، وإني لا أريد منك إلا أن تساعدني في معرفة السوق؛ حتى أبيع وأشتري. فدلّه على السوق، وراح عبد الرحمن يعمل في بيع الزبد والجبين، حتى استطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير، وأن يمهر أحد نساء المدينة مهراً محترماً من ماله الخاص، وأن تكون له قوافل مع قوافل التجار.

ولم يكن عبد الرحمن بن عوف وحده من المهاجرين الذين عملوا في التجارة، بل فعل مثله كثيرون غيره. ولم يكن في المسلمين أحد بلا عمل إلا جماعة من العرب وفدوا على المدينة، وأسلموا - وكانوا في حال العوز، حتى لم يكن لأحدهم سكن

يلجأ إليه ويأوي - وهؤلاء هم الذين أفرد لهم رسول الله ﷺ (الصفة) في المسجد؛ حتى يأووا إليها، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً.

هذه هي المؤاخاة بين المسلمين التي أرادها الرسول الأعظم ﷺ ثابتة الأساس، قوية الدعائم من الناحية العقيدية كما هي من الناحية الواقعية المادية. وقد برزت آثارها الملموسة فيما أظهره الأنصار لإخوانهم المهاجرين من كرم وحب ومساعدة، حتى راح المهاجرون يشتكون كرم الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فلما سألهم النبي محمد ﷺ عن سبب شكواهم، قالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أكثر بذلاً في كثير؛ لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنا؛ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال ﷺ: «لا ما أنتم عليهم، ودعوتم الله عز وجل لهم».

وكان النبي محمد ﷺ لما آخى بين أصحابه، لم يؤاخ بين علي ؓ وبين أحد من الناس، فقال علي ؓ: «يا رسول الله، لقد ذهبت روحي، وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري؛ فإن كان هذا من سخط عليّ فلك العتبي والكرامة يا رسول الله». فقال رسول الله: «والذي بعثني بالحق نبياً، ما أخرجتك إلا لنفسي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي، وأنت أخي ووارثي». فقال علي ؓ: «وما أرت منك يا رسول الله؟». قال: «ما ورث الأنبياء من قبلي». فقال علي ؓ: «ما ورث الأنبياء من قبلك؟». قال ﷺ: «كتاب ربهم، وسنة نبيهم، وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي، وأنت أخي ورفيقي». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(١).

هذا ما رواه أحمد بن حنبل في مناقبه. وأمّا ما في لفظ أمير المؤمنين عليه السلام ويعلى ابن مرة، فهو: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك، فإن حاجك أحد فقل: أنا عبد الله، وأخو رسول الله، لا يدعيها بعدك إلا كذاب». يقول جابر بن عبد الله الأنصاري: سمعت علياً - ورسول الله يسمع شعره - يقول:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي	ربيت معه وسبطاه هما ولدي
جدي وجد رسول الله منفرد	وزوجتي فاطم لا قول ذي فند
صدقته وجميع الناس في بهم	من الضلالة والإشراك والنكد
الحمد لله شكراً لا شريك له	البر بالعبد والباقي بلا أمد

فقال له النبي: «صدقت يا علي».

الأذان والإقامة

جاء في سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، و(السيرة الحلبية) أن النبي محمدًا ﷺ كان يصلي من غير إعلان ولا أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة. وكان المسلمون يجتمعون إلى النبي محمد ﷺ في أوقات الصلاة بدون إعلان أو أذان، فربما تأخر بعض الناس عن الصلاة - لعدم معرفتهم بأوقات الصلاة - فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: لقد فاتتنا الصلاة يا رسول الله، فهل من وسيلة تُعلم الناس بأمر الصلاة؟ فأطرق النبي ﷺ برأسه إلى الأرض، ثم رفعه وهو يقول: «أيها الناس، هل من وسيلة تعلم الناس بأوقات الصلاة؟».

فقال بعضهم: ننصب راية عند حضور الصلاة، فإذا نظر إليها الناس أعلم بعضهم بعضاً بحضور وقت الصلاة، فلم يعجب الرسول هذا الرأي. فقال آخر: نستعمل البوق. فكرهه النبي ﷺ، وقال: «هو من عمل اليهود». فقالوا: نستعمل الناقوس. فكرهه النبي أيضاً، وقال: «هو من عمل النصارى». فقالوا: نوعد ناراً، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة. فقال: «ذلك من عمل المجوس». وأخيراً وافق على الناقوس وهو كاره، وكان ممن حضر عبد الله بن زيد الأنصاري الخزرجي، فلما ذهب إلى منزله، وبات تلك الليلة رأى في منامه رؤيا، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ متهللاً الوجه، منشرح الصدر، وقال: يا نبي الله، إني رأيت البارحة في عالم الرؤيا رؤيا. قال ﷺ: «خيراً، ما الذي رأيت؟». قال: رأيت في عالم الرؤيا رجلاً عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت

له: يا عبد الله، أتتبع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعوه إلى صلاة الجماعة إذا جاء وقتها. قال: إلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر - أربع مرات - أشهد أن لا إله إلا الله - مرتين - أشهد أن محمداً رسول الله - مرتين - حي على الصلاة - مرتين - حي على الفلاح - مرتين - الله أكبر - مرتين - لا إله إلا الله - مرة واحدة - وعد عليه صيغة الأذان كما هي عند المسلمين الآن.

استمع رسول الله ﷺ إلى رؤيا عبد الله، فبان البشر في وجهه، وشاع الاطمئنان في نفسه، فلقد أهدي المسلمين أخيراً إلى ما يدعوهم إلى الصلاة، وقال: «نعم ما رأيت يا عبد الله، قم مع بلال فألقي عليه ما رأيت، فليؤذن به؛ فإنه أندى صوتاً منك». فقام وهو ينشد ويقول:

أحمد الله ذا الجلال وذا الإكـرام حمداً على الأذان كثيراً
إذ أتاني به البشير من اللـه فأكرم به لديّ بشيراً
في ليالٍ وافى بهن ثلاث كلما جاء زادني توقيراً

وذهب إلى بلال، وعلمه الأذان، فقام بلال يؤذن، فارتفع صوت الأذان بصوته الندي الشجي، فملاً الأفتدة إيماناً، والأسماع روعة، فخرج الناس من دورهم ميممين صوب المسجد؛ ليروا هذا الحدث الجديد، ومن هو ذلك البلبل الصداح.

وبلغ أذان بلال سمع عمر بن الخطاب - وكان نائماً - فانتبه وهو يقول: إن ما أسمع الآن هو عين ما سمعته في منامي الليلة. وهبّ مسرعاً يجر رداءه يريد رسول الله ﷺ، فدخل المسجد وهو يقول: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً، لقد رأيت في عالم الرؤيا مثل الذي رأى عبد الله بن زيد.

وهذا الرأي لا يقبل به أحد من أهل الرأي: «حديث خرافة، يا أم عمرو»؛ إذ إن من المعلوم أن الأذان والإقامة من المستحبات الشرعية المكلف بها الإنسان، ومن الأحكام الشرعية التي ليس للنبي محمد ﷺ أن يستقل بها أو يرتئها فضلاً عن المسلمين. فإذا أخذنا أحكامنا الشرعية من الطيوف، فإن الأمر سوف يصبح حينئذٍ أن كل واحد عنده طيف يجب أن نأخذ برأيه، وهذا لا يكون أبداً، ولا يقبل بحال من الأحوال، فالشرع لا يعتمد على المنامات، وهذا لا يجوز في تشريع الأحكام.

فالروايات الواردة عن أهل البيت ؑ أن الأمين جبرئيل نزل على النبي محمد ﷺ ونقل له صورة الأذان والإقامة تماماً مثلما قال له: إن أجزاء وشرائط الصلاة كذا وكذا. وقال: «علمه بلالاً ليؤذن به». فدعا بلال وعلمه الأذان، وأن «حي على خير العمل» ثابتة في الأذان بعد «حي على الفلاح» على عهد رسول الله ﷺ، وأن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أمر بتركها، مخافة أن يتكلم الناس على الصلاة ويتركوا الجهاد.

وجاء في السيرة الحلبية عن أبي العلاء قال: قلت لمحمد بن الحنفية؛ إنا لنحدث أن بدء الأذان كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه، قال: ففزع محمد بن الحنفية لذلك فزعاً شديداً، وقال: عمدتم إلى ما هو الأصل في شرائع الإسلام، ومعالم دينكم، فزعمتم أنه إنما كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه، تحمل الصدق والكذب، وقد تكون أضغاث أحلام؟ قال: فقلت له: هذا الحديث قد استفاض في الناس. قال: هذا والله هو الباطل؛ إن مشروعية الأذان بالكتاب لا بالمنام.

ثم قال: أخبرني أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ أن الأمين جبرئيل أذن

في بيت المقدس ليلة الإسراء وأقام، ثم أعاد جبرئيل الأذان لما عرج بالنبي إلى السماء، ولما بنى النبي محمد مسجده بالمدينة نزل الأمين جبرئيل على النبي محمد بالأذان، كما نزل عليه بشروط الصلاة، وقال: «عَلِّمَهُ بِلَا لَأَ لِيُؤْذَنَ بِهِ».

وجاء في (الكافي) عن محمد بن عمير عن حماد بن عيسى عن منصور بن أبي حازم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «هبط جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان رأسه في حجر علي عليه السلام - فأذن جبرئيل وأقام، فلما انتبه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا علي أسمعت؟ قال: نعم. قال: ادعُ بلالاً وعلمه الأذان».

أسماء المدينة ومكائنها

تقع المدينة المنورة من الحجاز في وسطه تقريباً، في وادٍ منبسط، تكثر فيه أشجار النخيل الباسقة، والحدائق الغناء المورقة. تتفرق فيها الينابيع وعيون المياه العذبة في مختلف الجنبات لتغطيها بالخضارة والنضارة؛ ولتجعلها غنية بالثمرات والخيرات، مشبعة بطيب الهواء واعتدال الجو.

وهي ترتفع عن سطح البحر بنحو خمسمئة متر، وتبعد عن مكة المكرمة بنحو ٤٩٥ كيلو متر، يحدّها من الشمال جبل أحد، ومن الجنوب جبل ثبير، ومن الشرق صحراء وسهول واسعة، ومن الغرب ميناؤها ينبع هواؤها رطب بارد في الشتاء، جاف حار في الصيف، وماؤها صالح للشرب.

وهي بلاد كرمها الله، وأعزّ فيها دينه، وتساوت في الفضل بأم القرى مكة المكرمة التي بها الكعبة بيته العتيق، والمسجد الحرام الذي فيه الصلاة بمئة ألف صلاة. فالكعبة حرم الله، والمدينة حرم رسول الله ﷺ. قال: «إني أحرم بين لابتي المدينة كما حرم إبراهيم لابتي مكة».

بل إن المدينة قد زادت بالفضل على مكة، وهي البلدة الوحيدة التي افتتحت بالقرآن الكريم عندما أرسل إليها النبي الكريم قبل الهجرة أبا عبد الله مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقري أهلها القرآن، ويفقههم في الدين الخنيف، ولما عهدناه من دعاء الرسول ﷺ بالحصانة والبركة والخير، ولما لاقاه فيها من النصر والتأييد بين أهلها.

ولقد اختصّها رسول الله بكل الميزات الحسنة، ورغب في سكنائها، وهي معقل

الإسلام، ومنتشاً الفتوحات، وأول عاصمة للمسلمين، إنها قدس الأقداس، ومتحف ناطق بأعمال الأجيال، ومخلفات القادة والزعماء الأبطال من المسلمين الذين حفل بهم التاريخ الطويل، ودخلوا سجل الخلود.

عاش فيها الرسول أعوامه الأخيرة التي كانت أجل وأفضل من مئات السنين؛ حيث كانت أعوام فتح، وسنوات تثبيت لدعائم الدين الأبدى، وفترة تأكيد لوجوب الوحداية لله رب العالمين. وكانت تسمى - سابقاً - يثرب؛ نسبة إلى أول من سكنها: يثرب بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح النبي ﷺ. وعندما هاجر إليها الرسول الأعظم ﷺ سماها المدينة المنورة. ثم توالى الأسماء عليها حسب المناسبات، فمن أسماؤها: المؤمنة، المحبوبة، المقدسة، دار الأبرار، البارة، وطابة، وطيبة. ولهذا فقد جاء في شعر بعض الشعراء:

سلام على طابة الطيبه

وسيدة البلدان، ودار السلام، والمحرمّة، والمباركة، والمحروسة، والمحرومة، والجابرة، والمختارة، وحرَم رسول الله، وذات الأحرار، وقلب الإيمان، وقبة الإسلام، والدار، والإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) يعني بذلك الأنصار في إكرامهم للمهاجرين. وهذه الكثرة من الأسماء تدل - ولا شك - على عظمة المسمى وفضله.

ويكفيها من الفضل أن الإسلام بدأ ينتشر فيها، وقد حمت الرسول المهاجر إليها، وناصره أهلها، وفيها كانت قيادة جهاده ومقر أول خلافة له، حتى عمت الرسالة السماوية أقطار الأرض. ثم أخيراً ضمت جسده الطاهر، فإذا هو أعظم مزار تشدّد إليه الرحال بعد المسجد الحرام.

(١) الحشر: ٩.

لقد أصبحت هذه البقعة المقدسة مزاراً للمسلمين من كل أقطار الدنيا، وملتقى المؤمنين يأتون إليها ليشهدوا فيها رموز الطاقات التي انتشر بها الدين الإسلامي، حتى غمر العالم، وليصلوا ويسلموا عن قرب على الهادي المصطفى حامل رسالة السماء إلى البشرية، ومبلِّغ دعوة الحق والإصلاح للناس.

بقعة كريمة مباركة، وبلد طيب أمين، ووطن عظيم جليل، هذه هي المدينة الحبيبة.. مدينة الرسول وحرمة ومضجعه، عاصمة الإسلام الأولى، ورمز الكفاح المجيد الصادق، وأول الأساس والبناء لحضارة إسلامية عربية شامخة، إنها قدس الأقداس وكفى.

المدينة مركز الدولة الإسلامية

لقد مرت عشرات السنين قبل أن تُسكن المدينة لأول مرة، وتكون في ميزان الوجود التاريخي. فأول من نزل بها يثرب بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح نبي الله، ومن أجله سميت يثرب باسم أول من نزح إليها إلا إنهم لم ينعموا فيها طويلاً؛ فقد قال شاعرهم يرثيهم:

عين جودي على عبيل وهل ير
عمروا يثرباً وليس بها شغر
جم من فات فيضها بانسجام
ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين
ثم حفوا النخيل بالأجام

وكان يختصر في شمال الجزيرة قد هدم بيت المقدس، وألقى أنقاضه في البحر، وظل يقاوم بني إسرائيل حتى تفرقوا عن بلاد الشام. وكان بعضهم يقرؤون في كتبهم بأن نبياً اسمه محمد سيظهر في إحدى البلدان بقرية ذات نخل اسمها يثرب، فراحوا ينتقلون من قرية إلى قرية بين الشام واليمن عليهم يجدون وصف يثرب مطابقاً لإحدى القرى؛ رجاء أن يلتقوا بمحمد بن عبد الله الذي قرؤوا عنه في كتبهم. فأقامت منهم طائفة بيثرب من حملة التوراة من بني هارون، فكان أن تكاثروا، ومات الآباء وهم يؤمنون بأن زمان محمد قد جاء، ويوصون أبناءهم باتباعه، غير أن من أدركه منهم كفر به؛ غيظاً وحسداً من الأنصار الذين كانوا قد سبقوهم إليه.

ولما انهدم سد مأرب قال عمرو بن عوف لقومه: من كان منكم يريد الراسيات في الوحل، المطاعم في المحل، المدركات في الدخل، فليلحق بيثرب.

وكان الأوس والخزرج بطنين من الأزد، وكانت ديارهم مأرب باليمن، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الهجرة، فمروا على يثرب، فطابت لهم، فنزلوا ضيوفاً على سكانها اليهود.

فلما استوطنوها، عقدوا مع جيرانهم اليهود من بني هارون حلف جوار، وعدم اعتداء، فلما تكاثروا وأثروا، خاف اليهود غلبتهم، فنكثوا الحلف، واستضاموهم واضطهدوهم.

فشبت الحرب بينهم، فاستنجد الأوس والخزرج على اليهود بتبع ملك اليمن - وهو مثلهم من عرب قحطان اسمه تبان بن أسعد الذي عمّر البيت الحرام وكساه - فجهز تبع جيشاً جراراً، ولم يكن يريد غزو المدينة المنورة إنما قصد قتل اليهود الذين كانوا فيها، وخانوا العهد الذي بينهم وبين الأوس والخزرج، فجرى الاقتتال بينهم.

وفي ذات يوم دخل رجل من الأوس بستانه بالمدينة، فوجد رجلاً من أصحاب تبع على نخله يجذع عذقا من التمر، فضربه الأوسي بمنجله فقتله، فلما علم تبع بذلك غضب على الأوسي، وحلف أن يقتل جميع من في المدينة من الأوس والخزرج، ويخرب بيوتها.

فجاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان في العلم قد قرأا الكتب السماوية، وعلما بنبوة محمد ﷺ ومهاجرته إليها، فلما سمعا ما يريد تبع من خراب المدينة وهلاك أهلها قالوا له: أيها الملك، لا تفعل؛ فإنك إن أبيت حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا له: أيها الملك، هذه المدينة مهاجرة نبي كريم، يخرج من هذا الحرم المكي الشريف من قريش في آخر الزمان، وتكون داره وقراره.

فكف عن ذلك، وكان معه أربعون رجلاً من سلالة العلماء، وكانوا يرافقونه، فلما سمعوا كلام الأخبار، طلبوا من الملك تبّع البقاء بالمدينة حتى يلتقوا بذلك النبي ﷺ فوافقهم تبع على ذلك، وأكرمهم، وبني لكل واحد منهم داراً، وزوّجه، وأقطعته جارية، وزوده بالمال الوفير.

كما أنه ابنتى داراً باسم النبي محمد ﷺ؛ لينزل بها عند قدومه المدينة، وأعطى لكبيرهم كتاباً مختوماً بالذهب - يعلن فيه إيمانه به - ليسلمه إلى النبي محمد ﷺ إن أدركه هو أو ولده أو أحفاده. وجاء في الكتاب:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره	لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرّجت عن صدره كل هم

وهذه الدار التي ابتناها تبع إلى النبي محمد ﷺ تعاقبت عليها الملائك إلى أن أصبحت إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، وهو من سلالة كبير العلماء. ولا تزال هذه الدار تعرف بدار أبي أيوب الأنصاري إلى اليوم.

ومنذ ذلك الحين دخلت المدينة المنورة ميدان الحياة الصاعد، وراح التاريخ يسطر الصفحات الخالدة بمداد النور والمعرفة.

وعندما هاجر الرسول الأعظم ﷺ إليها، وهبط بها عام ٦٢٢ ميلادية - وكان عامها مبدأ التاريخ الهجري إشراقاً غامراً على القرون وعلى دول العالم المتعاقبة حتى الأبد بمشيئة الواحد الفرد الصمد - نظم الشعراء قصائد في ذلك، ومن أعظم ما نظم فيها من نفائس الشعر قول الشاعر حسان بن ثابت:

لذرا الحبيب أحق أن تهواها	وتحن من طرب إلى ذكراها
فلأنت أنت إذا حللت بطيبة	وظللت ترتع في ظلال رباها
لا تحسب المسك الذكي كتربها	هيئات أين المسك من رباها

٤٠ قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

وابشر ففي الخبر الصحيح مقررأ أن الإله بطابة سماها
واختصها للطيبين لطيبها واختارها ودعا إلى سكنها
لا كالمدينة منزل وكفى لها شرفاً حلول محمد بفناها
حظيت بهجرة خير من وطئ الثرى وأجلهم قدراً فكيف تراها

وأقام فيها رسول الله ﷺ أحد عشر عاماً، والأمين جبرئيل ينزل عليه بالقرآن
الكريم بالتشريع الحنيف وآيات الحق، وشرح أمور الناس، والرد على المشركين
تبياناً لقوم يعقلون.

وسأذكر باقتضاب أهم حوادث سنّي الهجرة العشر على عهد رسول الله ﷺ
إلى سنة رحيله إلى الرفيق الأعلى.

أحداث العام الأول من الهجرة

اتفقت الصحابة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وجعلوا أولها شهر المحرم. وفيه لما هاجر النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، نزل وادي قبا، ومكث أياماً ينتظر قدوم ابن عمه علي وابنته فاطمة. وأمر ببناء المسجد المعروف بمسجد قبا، وكان أول من وضع حجر الأساس في قبلته، وأخذ الناس في بنائه. وهو أول مسجد بني في الإسلام، وأول مسجد أسس على التقوى، قال فيه تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾^(١).

وفيه بنى السيدة عائشة ابنة أبي بكر في التاسع عشر من شهر شوال بعد مقدمه المدينة بثمانية شهور، وعمرها تسع سنوات. وكان ﷺ قد عقد عليها في مكة المكرمة - بعد وفاة السيدة خديجة - وعمرها ست سنين.

وفيه لما اطمأن الرسول على سلامة ابن عمه علي وابنته فاطمة، ارتحل من قبا يريد الدخول إلى المدينة - وكان يوم الجمعة - فأدركته صلاة الظهر في بني سالم بن عوف، فأمر بالتوقف، وصلى بالناس الجمعة، وكانت هذه أول صلاة جمعة جمعها رسول الله ﷺ في الإسلام. وخطب الناس في هذه الجمعة، وهي أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في الإسلام بالمدينة المنورة. وبنى الأصحاب في ذلك المكان مسجداً سمي بمسجد الجمعة.

وفيه لما انتهت رحلة المهاجرة، ونزل الرسول في منزل أبي أيوب الأنصاري، اتجه همّة منذ حطّ قدميه في داخله القيام بعمل في المدينة معلن عن نهج الإسلام في

(١) التوبة: ١٠٨.

البناء والتوحيد؛ لذلك دعا إليه المسلمين، وأمرهم بالبدء في إقامة مسجد اختار له المكان الذي بركت فيه ناقته. ولم يترك الوقت يمر، بل دعا اليتيمين سهلاً وسهياً - وكانا في حجر أسعد بن زرارة - فساومهما على المكان حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير دفعها لهما من ماله الخاص.

ولما اطمأن الرسول ﷺ إلى امتلاك المسلمين مكاناً عاماً، توجه من فوره أمام جمع حافل، وضرب أول معول في الأرض لحفر الأساس، فاندفع المسلمون إلى العمل بقوة وحماس، والرسول يشجعهم:

لا عيش إلّا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وما إن فرغ من بناء مسجده الشريف حتى انصرف إلى بناء مساكنه، فبنى لنفسه حجرتين بالحجارة والطين، وسقفهما من جريد النخل. وبما أن علي بن أبي طالب كان لا يزال في بيت النبي - وهو الآن قد قارب العشرين، وفي هذه السن تفتح في نفس كل شباب براعم الغريزة الجنسية - بنى له داراً بجوار حجرتيه ملاصقة للمسجد النبوي الشريف. ولما انتهى البناء انتقل ﷺ من بيت أبي أيوب الأنصاري بعد أن دام بقاؤه فيه سبعة شهور مع زوجته زمعة بنت الأسود. وكانت أول امرأة تزوجها في مكة بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد.

وفيه آخى بين المهاجرين والأنصار أخوين أخوين. وهذا التآخي الذي عقده رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كان مسبقاً بمؤاخاة أخرى أقامها النبي ﷺ بين المهاجرين أنفسهم في مكة المكرمة. قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين أنفسهم بمكة المكرمة، وأخرى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة المنورة ليذهب عنهم وحشة الغربة من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بذلك أزر بعضهم بعضاً، ويربط بينهم برباط الإيمان.

وترك علياً عليه السلام، فقال: «يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد من الناس؟». فقال صلى الله عليه: «تركتك لنفسي، أنت أخي، وأنا أخوك في الدنيا والآخرة، فإن حاجك أحد فقل: أنا عبد الله، وأخو رسول الله، لا يدعيها بعدك إلا كذاب».

وفيه زيد في صلاة الحضر ركعتين، حيث فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر ركعتين. وفيه بدأ الأذان؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه يصلي في مكة والمدينة بدون إعلان ولا أذان، فلما قدم المدينة رأى أصحابه اليهود فيها يستعملون بوقاً للإعلام عند حضور الوقت المعين لاجتماعاتهم وعباداتهم، فسأله أصحابه باستعمال البوق للإعلام المسلمين بأوقات الصلاة حيث كانوا يجتمعون للصلاة بغير إعلام، وربما فاتت أحدهم الصلاة، فكرهه الرسول صلى الله عليه، فأشار عليه آخرون بالناقوس. يقول ابن هشام وابن سعد وابن كثير: فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد ابن ثعلبة في منامه رجلاً عليه ثوبان أخضران، ويده ناقوساً فقال له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال ندعو به إلى الصلاة. فقال له: إلا أدلك على خير منه؟ قال: وما هو؟ قال: تقول الله أكبر - أربع مرات - وعد عليه صيغة الأذان كما هي عند المسلمين اليوم.

فلما تم حديثه مع النبي صلى الله عليه قال إنها لرؤيا حق، وأمره أن يعلمه بلائلاً فأذن بها.

ومهما كان الحال فمما لا شك فيه أن حديث تشريع الأذان بالشكل الذي رواه ابن هشام وابن سعد وابن كثير وغيرهم «حديث خرافة يا أم عمرو»، فمهما تكن الملابسات والتفصيلات حول الأذان وبيان جزئياته، فإنه لا يمكن إلا أن يكون

بأمر من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الأذان شعار من شعارات الإسلام، وبه تعرف الجماعات الإسلامية أينما وجدت. وما يكون كذلك لا يمكن أن يترك لشورى المسلمين أو اجتهاداتهم كما ذكرت بعض السير.

كما أن الأذان بحد ذاته عبادة، والعبادة لا تعرف أجزاءها إلا بوحي من الله عز وجلّ لنبيه الكريم، لا برؤيا لغيره - مهما كانت مكانة هذا الغير في الإسلام - فقد نزل به جبرئيل الأمين على قلب محمد ﷺ فعلمه لبلال، وبلال أذن به، وكانت «حي على خير العمل» ثابتة في الأذان على عهد رسول الله، إلا إن عمر ابن الخطاب أمر بتركها؛ مخافة أن يتكل الناس على الصلاة، ويتركوا الجهاد. وفيه أرسل الرسول ﷺ بعض السرايا لتقصي الأخبار، وجمع المعلومات، وليرصدوا له أخبار قريش:

فأول سرية بعثها ﷺ بقيادة حمزة بن عبد المطلب.

والثانية بقيادة عبيدة بن الحارث.

والثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص.

والرابعة بقيادة عبد الله بن جحش، وهي آخر السرايا.

أحداث العام الثاني من الهجرة

وقع في هذا العام الكثير من المغازي والسرايا، ومن أعظمها وأجلها غزوة بدر التي كانت في شهر رمضان، وقد فرق الله بها بين الحق والباطل، والهدى والبغي. وسببها ما عرف الناس من عداوة قريش وبغضها للنبي محمد ﷺ وأصحابه، وما تقوم به من اعتداءات على الدعوة الإسلامية. ومن غير الجائر والمعقول أن يقف النبي ﷺ مكتوف اليد وقريش مصرّة على عنادها، وتحاول بشتى الوسائل القضاء على الدعوة الإسلامية، وقد أتيح له أن يحد من نشاطها وتعتتها.

وهكذا أذن الله له في القتال ضد كل من يحاول الاعتداء والعدوان على الإسلام. وليس في هذا القتال شيء ضد إنسانية الإنسان، بل الهدف منه حماية المسلمين من كيد قريش، وحفظ الدعوة الإسلامية من محاولتها القضاء عليها. فكان أن رأى النبي ﷺ أن من الدعائم الأساسية التي قامت عليها وتقوم المجتمعات البشرية هي القوة الاقتصادية؛ إذ بدونها يبقى المجتمع مفكك الأوصال، يستجدي مقومات العيش.

ولقد كانت قوة قريش الاقتصادية - في تجارتها الواسعة التي جابت بها القوافل أقطاراً بعيدة حتى وصلت بلاد الشام واليمن ومصر، وجنت منها ثمرات كثيرة - هي التي جعلتها سيدة القبائل في جزيرة العرب.

ولم تكن تلك السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ في طليعة عهده إلا لغاية هامة هي رصد أخبار قوافل قريش، حتى يتدبر الخطة التي تمكّنه من القضاء على قوتها الاقتصادية.. تلك القوة التي كانت في نظر النبي بمثابة الأجنحة التي تخلق بها

قريش في الأجواء البعيدة، وكالمخالب التي تفتك بها بكل من يحاول اعتراضها أو الوقوف في وجهها.

وعليه فإذا أمكنه قص تلك الأجنحة، وتقليل تلك المخالب؛ فمما لا شك فيه أن شوكة قريش المؤذية سوف تنكسر، وبكسرهما ينهار طغيانها ويذهب استبدادها. وعندها يمكن للمسلمين استعادة حقوقهم وأموالهم التي سلبتهم إياها ظلماً وعدواناً.

ولم تكن قريش ليغيب عن بالها ما يفكر به المسلمون، فراحت تعيد الخطط لحماية قوافلها والمحافظة على تجارتها، فزادت الرجال الذين يرافقون القوافل ويحمونها، وغيرت بعض الطرق التي كانت تسلكها في العادة. وزادها يقظة وحيطة ما فعله عبد الله بن جحش بإحدى قوافلها الصغيرة القادمة من الطائف؛ ثم صادف أن خرجت قافلة لقريش بزعامة أبي سفيان في تلك الفترة وكانت من أعظم قوافل قريش، وأجمعها لأموالها، فخرج النبي مع أصحابه يريد التعرض لتلك القافلة بعد أن تناهت إليه أخبارها، ولكنها فاتته. فلما عادت من الشام راجعة إلى مكة هبط الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ يأمره بالتعرض لها، ووعدته إحدى الطائفتين: إما العير أو النفير.

فلم يتوان عن جمع أصحابه من مهاجرين وأنصار، وحضهم على الخروج لاعتراض قافلة قريش، وأخبرهم بما أوعدته الله به، وأن الله لا يخلف وعده.

وحلت الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية من الهجرة - الواقعة في الثالث عشر من شهر مارس عام ٦٢٤ ميلادية - فخرج النبي محمد ﷺ على رأس تلك الفئة المؤمنة التي لا يتجاوز عدد أفرادها عن ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً كعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. ودفع اللواء

لمصعب بن عمير، وأعطى رايته العقاب للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

وإذا كان محمد قد أخبره جبرئيل بالزمن الذي تعود فيه عير قريش وهي تحمل أكبر تجارة لها، فإن أبا سفيان لم ينس أن المسلمين قد خرجوا في طلب قافلته عند ذهابه إلى الشام؛ ولذا فقد تحسب أن يكونوا في انتظاره في ناحية من الطريق في عودته، فبعث من يقتص له الخبر حتى إذا عرف أن النبي محمدًا ﷺ قد خرج مع أصحابه - لاعتراض القافلة - حول وجهة القافلة على طريق البحر لبيتعد عن النبي محمدًا ﷺ. واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة ليعلم قريشاً بأن النبي محمدًا ﷺ وأصحابه قد اعتراضوا قافلته، ويستنفرهم على عمل سريع لحمايتها.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم أن رجلاً أقبل على بعير له ينادي: يا آل غالب، اغدوا إلى مصارعكم. ثم وافى بجمله إلى جبل أبي قبيس، فأخذ حجراً من الجبل، فدهدهه، فما ترك داراً من دور قريش إلا أصابته فلذة، فانتبهت فرعة، وأخبرت العباس بن المطلب، فأخبر العباس عتبة وكان صديقاً له، فقال: هذه مصيبة تحدث في قريش.

وبلغ ذلك أبا جهل فقال: هذه نبية ثانية في بني عبد المطلب، واللات والعزى، لنتظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقاً، وإلا كتبنا كتاباً نبين فيه أن ما من بيت في العرب أكذب رجالاً ولا نساء من بني هاشم.

فلما كان اليوم الثالث قدم ضمضم، فلما وصل بطن الوادي من مكة، قطع أذني بعيره، وجدع أنفه، وجعل يصيح - وقد شق ثوبه -: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أدركوا أموالكم مع أبي سفيان، وما أراكم تدركونها؛ فقد تعرض لها

محمد وأصحابه.

فهبت قريش دفعة واحدة يتأهبون للخروج، ومن لم يقدر على الخروج أناب من يخرج عنه، ونادى منادي قريش: من لم يخرج لحرب محمد هدمنا داره. فخرجت قريش بخيلها وخيلائها وعبيدها، يقدمهم أبو جهل، والكل متلهّف لملاقة محمد والقضاء عليه، وأخرجوا معهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب. وجاؤوا حتى وصلوا إلى وادي بدر، ونزلوا بالعدوة القصوى من ناحية مكة، فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ، وأخبره بأن «العرير قد أفلت، وأن قريشاً قد أقبلت لتمنع غيرها، وأن الله يأمرك بمحاربتهم، وقد وعدك النصر، وهو لا يخلف الميعاد».

فاستطلع الرسول ﷺ أصحابه بما أخبره به الأمين جبرئيل عن ربه بمقاتلة المشركين، ووعد له بالنصر، فأجابوه بالسمع والطاعة. فلما اطمان من عزمهم سار بهم على بركة الله حتى وصلوا وادي بدر^(١) فنزلوا بالعدوة الدنيا مما يلي

(١) بدر هي سهل رمل ما بين مكة والمدينة على مسافة تقارب المئة والستين كيلو متر من المدينة، وتحدها السهل تلال شديدة الانحدار من الشمال والشرق، وكثبان رملية من ناحية الغرب، أما جنوباً فينتهي بمنحدر صخري منخفض ينساب في واديه جدول ماء يعبره من الشرق إلى الغرب، وينقطع هذا الجدول في أماكن متفرقة فيشكل آباراً كان المسافرون يقيمون من حولها سدوداً صغيرة لتصير على شكل أحواض يقضون منها حاجاتهم، ويسقون ماشيتهم. وقد جعل الماء من بدر محلة مشهورة، فكانت تقام بها مواسم العرب يجتمعون فيها مرة كل عام لإقامة سوق واسعة تتبادل فيها السلع والبضائع على اختلافها. انظر: سميع عاطف.

وقيل: بدر ماء مشهور بين مكة والمدينة ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة أحد أجداد النبي محمد ﷺ الذي سميت به قريش قريشاً، فهو الذي احتفرها، وغلب اسمه عليها، فسميت باسمه. وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة يقال له بدر، سكن هذا الموضع فنسب إليه، ثم غلب اسمه عليه. وهذا الماء كانت الواقعة الشهيرة التي أظهر الله بها الإسلام. انظر: ابن هشام.

المدينة المنورة.

وهكذا اجتمع الفريقان في وادي بدر، المسلمون بالعدوة الدنيا، والمشركون بالعدوة القصوى من غير موعد اتفقوا عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ * إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴿١﴾. فلما رأى أصحاب النبي ﷺ كثرة المشركين وقتلهم خافوا وفزعوا، فعرف منهم النبي ذلك، فرفع يديه إلى السماء وقال: «يا رب هذه قريش قد جاءت بخيلها وخيلائها وعبيدها، فإن لم تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد. اللهم أنجز لي ما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد».

فهبط الأمين جبرئيل بهذه الآية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾.

وأراد أبو جهل أن يتعرف على عدد المسلمين، فدعا بعمير بن وهب الجمحي - وكان فارساً شجاعاً - وأمره أن يقوم بجولة استطلاعية حول أصحاب محمد ﷺ، فأخذ جولة حول جيش المسلمين، ورجع وهو يقول لأبي جهل: لا كمين ولا مدد، لكنها نواضح يثرب تحمل الموت النافع يتلمظون تلمظ الأفاعي. فقال له: كذبت وجبنت، ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذ اليد.

فوقف عتبة في وجهه وقال: يا معشر قريش، اطيعوني اليوم واعصوني الدهر

(١) الأنفال: ٤١ - ٤٢.

(٢) الأنفال: ٩.

كله؛ إن يك محمد صادقاً فهو ابن عمكم، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. فثارت نائرة أبي جهل وقال: كذبت، بل نظرت إلى أسياف بني عبد المطلب فجبنت. فغضب عتبة وقال: إياي تعني يا مصفر استه، سيعلم اليوم أينما أجبن.

فقام ولبس لامة حربيه، وتقلد سيفه ودعا بأخيه شيبه وابنه الوليد، وانطلق بهما نحو صفوف المسلمين، ونادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قريش. فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار، فلما انتسبوا لهم قالوا: ارجعوا؛ فإننا نريد أكفاءنا من قريش. فنظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب وقال: «قم يا عبيدة». ونظر إلى الحمزة بن عبد المطلب وقال: «قم يا عم». ونظر إلى علي بن أبي طالب وقال: «قم يا علي، اطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم؛ فقد جاءت قريش بخيلها وخيلائها تريد أن تطفئ نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره».

فقاموا بين الجمع كلاً شاهراً سيفه، فقال ﷺ: «يا عبيدة عليك بعتبة». وقال لحمزة: «عليك بشيبه». وقال لعلي: «عليك بالوليد».

فخرجوا إليهم فلما انتسبوا إليهم قال عتبة: أكفاء كرام، لعن الله من أوقفنا وإياكم هذا الموقف. فحمل عبيدة على عتبة فضربه بالسيف على رأسه ضربة لا يرجى منها الشفاء، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعاً. وحمل حمزة على شيبه فتضاربا بالسيفين حتى تكسرا، فاعتنقا وتصارعا بالأيدي، وحمل علي على الوليد فضربه على جبل عاتقه بالسيف، فأخرجه من إبطه، يقول علي عليه السلام: «فأخذ الوليد يده المقطوعة بشماله وضربني بها فأصاب هامتي، فظننت أن وقعت على الأرض، وخر صريعاً يخور في دمه».

فصاح المسلمون: يا علي أدرك عمك؛ فقد بهر الكلب، فحمل عليه علي ليضربه على رأسه إلا أن حمزة، كان أطول من شيبه، فقال له علي: «طأطئ رأسك

يا عم» فأدخل الحمزة رأسه في صدر شيبه، فضربه علي بالسيف على رأسه، فطار نصفه، وخرّ صريعاً، وجاء إلى عتبة وبه رمق فأجهز عليه، وحمل عبيدة وألقياه بين يدي رسول الله، فصاح أبو جهل: لا يهولنكم مقتل أبناء ربيعة؛ فإنهم عجلوا فقتلوا، فعليكم بأهل يثرب. فتدافعوا نحو المسلمين كالسيل الجارف، وأبو جهل من ورائهم يجرضهم وهو يرتجز:

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث السن

لمثل هذا ولدتني أمي

فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو في عريشه، فقال: «اللهم لا يفتك فرعون هذه

الأمّة». ورأى بجانبه نوفل بن خويلد، فقال: «اللهم اكفني ابن العدوية».

فهبط الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ في قبيل من الملائكة المسومين على

نجب من نجب الجنة على رؤوسهم عمام بيض، وفي أيديهم الحراب، وأمره عن

الله سبحانه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ

صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

فاحتدم القتال، وحمي النزال، واقتتل الرجال، فلا ترى إلا رؤوساً طائرة،

وأكفاً متنافرة، وأجساداً مطشرة. يقول بعض من حضر: والله لقد نظرنا إلى سحابة

سوداء فيها برق ورعد، قد وقعت على معسكر النبي، وقائل يقول: أقدم حيزوم،

أقدم حيزوم. وسمعنا قعقعة السلاح من الجو، فجعل الله الغلبة للمسلمين على

المشركين، وأنزل الله على نبيه محمد ﷺ كلمات صادقة كريمة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢).

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) آل عمران: ١٢٣.

فقتل من المسلمين أربعة عشر، وقتل من المشركين سبعون، كان نصف المقتولين بسيف علي بن أبي طالب، وأغلبهم من صناديد قريش، وقتل المسلمون مع الملائكة النصف الآخر.

وكان عدد أسرى المشركين سبعين أسيراً منهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب، وساقوهم جميعاً إلى المدينة، وهناك أمر النبي ﷺ بقتل من اشتهر منهم بالعداوة، ومنهم من أدخل سبيله كراماً منه، وبعضهم من قد افتدتهم قريش، أما من يقرأ منهم ويكتب فقد جعل النبي ﷺ فديتهم تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وهكذا.

وفيه حدثت غزوات عدة، منها غزوة بني قينقاع، وغزوة بني النضير، وغزوة بواط، وغزوة ذي العشيرة، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني سليم، وغزوة الأبواء، ويقال: ودان.

وفيه أرسل النبي محمد ﷺ ثلاث سرايا:

سرية بقيادة عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة.

وسرية بقيادة عمير بن عدي.

وسرية بقيادة سالم بن عمير.

وفيه فرضت زكاة الفطرة في الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك بنزول

هذه الآية على المصطفى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(١).

جاء عن أهل البيت عليهم السلام أن هذه الآية نزلت في زكاة الفطرة، وصلاة العيد.

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: «من أخرج

الفطرة». و﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ قال: «صلاة العيد».

يقول الإمام الحكيم: يجب على من جمع الشرائط أن يخرجها عن نفسه، وعن كل من يعول به واجب النفقة كان أم غيره، قريباً أم بعيداً، مسلماً أم كافراً، صغيراً أم كبيراً.

والضابط في جنس الفطرة أن يكون قوتاً في الجملة، شائعاً لأهل ذلك البلد، ويجزي دفع القيمة. والمقدار الواجب: صاع واحد لكل واحد.

وفيه خطب المصطفى ﷺ قبل عيد الفطر بيوم أو يومين، وأمرهم بذلك. وفيه صلى النبي ﷺ بالناس صلاة العيد، وخرج بالناس إلى المصلى، وكانت أول صلاة عيد صلاحها.

وفيه فرضت زكاة الأموال تقريراً لقاعدة التكافل العام بين جميع أفراد المجتمع، فلا يبيت فرد على جوع، ولا يبيت آخر على تخمة. وهي فريضة إسلامية تجب على كل مسلم ومسلمة يملك مالاً؛ فاضلاً عن حاجته الضرورية التي لا غنى للمرء عنها، وأن يحول عليها عام هجري.

وتجب في الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، والغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، والنقدين: الذهب والفضة، ولا تجب فيها عدا ذلك.

وقد بين الله سبحانه وتعالى موارد صرفها في قرآنه الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ووجوبها من ضروريات الدين، والمنكر لها مع العلم بها كافر. وقد قرنها الله سبحانه بالصلوات المفروضة في أكثر من آية، وهي أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، وفي الحديث: «من منع قيراطاً من الزكاة، فليمت إن شاء يهودياً

(١) التوبة: ٦٠.

وإن شاء نصرانياً».

وفيه حولت القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس. وكان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة أعظم الحوادث الدينية، وأهم التشريعات التي وقعت بعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة. وكان لهذا الأمر أثر كبير في نفوس المسلمين؛ لأن قريشاً كانوا دائماً يفخرون على المسلمين ويقولون لهم: تزعمون أنكم على ملة إبراهيم وإسماعيل، وأنتم تتركون قبلة إبراهيم وإسماعيل، وتصلون إلى بيت المقدس قبلة اليهود. واليهود يعيرون النبي محمد ﷺ بذلك ويقولون: أنت تابع لنا، تصلي إلى قبلتنا. فاغتم النبي لذلك، فكان يخرج أثناء الليل يقلب وجهه في أفق السماء، وفي نفسه أن يصلي قبل الكعبة؛ لأنها قبلة آباءه إبراهيم وإسماعيل.

فأصبح ذات يوم وهو في بني سالم، فحضرته صلاة الظهر، فدخل مسجدهم يصلي الظهر، فلما أنهى الركعة الثانية نزل عليه الأمين جبرئيل بهذه الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(١).

ثم أخذ بيده، وحول وجهه إلى الكعبة، وحول من خلفه وجوههم حتى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال. ولأنه ﷺ كان أول صلاته إلى بيت المقدس، وأخرها إلى الكعبة؛ فقد سمي هذا المسجد بمسجد القبلتين.

وفيه فرض صيام شهر رمضان؛ ففي الثامن والعشرين من شهر شعبان نزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ

مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴿١﴾ .

وفيه خطب رسول الله ﷺ في آخر يوم من شهر شعبان وقال في خطبته: «قد أقبل عليكم شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار».

وفيه - في السادس من شهر ذي الحجة بعد واقعة بدر التي انتصر فيها الإسلام وذل الكفر والطغيان، وكان الفتح فيها لعلي وأكثرية القتلى بسيفه - هبط الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ، وقال له: «العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول لك: زوج النور من النور». قال: «من بمن؟». قال: «فاطمة من علي؛ فقد زوجها الله به في السماء، فزوجها منه في الأرض». فتزوجها علي وعمرها تسع سنوات.

وفيه توفيت رقية بنت رسول الله زوج عثمان بن عفان وكانت قبله تحت عتبة ابن عبد العزى بن عبد المطلب المعروف (بأبي لهب)، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة.

وفيه كنى الرسول علياً بأبي تراب، فما كان له اسم أحب إليه منه. روى ابن عساکر بإسناده عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن عبد الله الأنصاري: إن هؤلاء القوم يدعونني إلى شتم علي بن أبي طالب. قال: وما عسيت أن تشتمه به؟ قال: أكنيه بأبي تراب. قال: فوالله، ما كانت لعلي كنية أحب إليه من أبي تراب؛ إن النبي محمد ﷺ آخى بين أصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يؤاخ بين علي وبين

أحد منهم؛ فخرج علي مغضباً حتى أتى كثيراً من الرمل، فنام عليه، فهبت عليه الريح، وسفى عليه التراب، فطلبه النبي محمد ﷺ فوجده راقداً - وقد سقط رداؤه عن منكبيه، وخلص التراب إلى ظهره - فجلس عنده، وجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول له: «اجلس أبا تراب، أغضبت حين آخيت بين المهاجرين والأنصار، ولم أُوَاح بينك وبين أحد منهم؟». قال: «نعم». قال: «أنت أخي، وأنا أخوك، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي؟ إلا وإن من مات على حبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك أماته الله ميتة جاهلية، وحوسب بعمله في الإسلام».

وقد أبدع الشاعر المفلح عبد الباقي أفندي العمري في قوله:

يا أبا الأوصياء أنت لطفه	صهره وابن عمه وأخوه
إن الله في معانيك سرّاً	أكثر العالمين ما علموه
أنت ثاني الآباء في منتهى الدو	ر وأبأؤه تعد بنووه
خلق الله آدمًا من تراب	فهو ابن له وأنت أبوه

وفيه ضحى ﷺ بكبشين عنه وعن أمته في العاشر من شهر ذي الحجة الحرام.

أحداث العام الثالث

قد وقع في هذا العام - الثالث للهجرة - كثير من المغازي والسرايا؛ ففي أوله غزوة نجد ويقال لها غزوة ذي أمر، ومقتل كعب بن الأشرف، وسرية زيد بن حارثة، والغزوة التي أدمت قلب الرسول الأعظم ﷺ بمقتل عمه حمزة بن عبد المطلب، وهي غزوة أحد.

أما أحد، فهو اسم جبل شمالي المدينة قرابة ميل، معروف بكثرة مسالكه وشعابه. وسمي بهذا الاسم؛ لتوحده بين تلك الجبال. وفي سفح هذا الجبل وقعت الواقعة الأليمة بين المسلمين والمشركين في العام الثالث من - الهجرة في السبت الخامس عشر من شهر شوال، الموافق للتاسع عشر من مارس عام ٦٢٥ ميلادية؛ فسميت واقعة أحد. وكان سببها أن قريشاً الحاقدة على الإسلام قد أصيبوا بنكسة مريعة في بدر، فتحركت حفائظهم، وأثيرت ضغائنهم القديمة، وأحقادهم الدفينة، فخفت تثار لقتلاها يوم بدر، لتمحوا عنها عار الهزيمة التي أصابتها، فألبوا من جديد على حرب محمد ﷺ. وكان أبو سفيان رأس المؤيدين والحاquدين، فأرسلوا أربعة نفر - منهم عمرو بن العاص - فساروا في العرب يستنفرون القبائل لإعلان حرب جديدة على النبي محمد ﷺ. ونادى منادهم في مكة: من لم يخرج لحرب محمد هدمنا عليه داره.

فخرجت قريش بأحرارها وعبيدها وأحبيشها، ومن والها من بني كنانة، وأهل تهامة في ثلاثة آلاف فارس، وألفي راجل، يقدمهم أبو سفيان بن حرب، وقد نذر ألا يمسه رأسه الماء من جنابة حتى يثار لنفسه من بدر.

وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، واللواء بيد طلحة بن أبي طلحة - وكان يدعى كبش الكتبية - والنسوة من وراء الصفوف يضربن الدفوف، ويحرضن الجيوش على القتال، ويثرن فيهم الحمية، حمية الجاهلية، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان تنشد وتقول، والنساء يرددن معها:

ويهاً بنى عبد الدار ويهاً حماة الديار
ضرباً بكل بتار ضرباً يصل بالثار

وتغير هند إرجوزتها وتبدلها بأخرى لتزيد الرجال تحريضاً وإثارة، وتذكرهم بقتلى بدر وتقول:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشي القطا البوارق المسك في المفارق
والدار في المخانق إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وجاءت قريش ونزلت بالسهل على شفير الوادي مما يلي المدينة، وأمر أبو سفيان خالد بن الوليد ومعه ومثي فارس أن يعمل كميناً من وراء الشعب، وقال لهم: إذا رأيتمونا اختلطنا بعسكر محمد فاخرجوا عليهم من هذا الشعب، حتى تكونوا من ورائهم. أما الرسول محمد ﷺ فقد اختار النزول في الشعب من أحد من عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى الجبل للحماية، واستقبل المدينة.

وكان في سبعمئة رجل، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ودفع رايته العقاب إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وأقام خمسين من الرماة الأشداء على قم الجبل لحماية ظهور المسلمين لئلا

يأتوهم من الخلف، وجعل عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: «لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من مكانكم. وان رأيتموهم هزمنوا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا، والزموا مكانكم».

واشتعل الحقد في قلوب المشركين، وهاج الغضب في نفوسهم، وتصوروا أنهم يملكون من القدرة والشجاعة ما يجعلهم قادرين على البطش بالمسلمين إذا ما تقابلوا وإياهم، فانبروا يطلبون المبارزة، وكان أول من تقدم - يصيح في المسلمين: من يبارز- طلحة، وكان يدعى كبش الكتبية، وحامل اللواء، فينبري له علي في هجمة بطولية نادرة، فما إن وصل إليه حتى عانقه سيفه البتار بضربة فلق هامه، وهوى إلى الأرض، وسقط اللواء، فأخذه أخ له يقال له عثمان بن أبي طلحة، فلم يمهل دون أن شد عليه وصرعه، وتعاقب حملة اللواء من بني عبد الدار حتى قتل منهم تسعة من أشداء أبطال المشركين.

فرأت قريش أن المبارزة لم تعد أبداً في صالحها، فصاح أبو سفيان قائد حملة الوثنيين مسعوراً يدعو القوم بهجوم شامل، فاختلط الجيشان، ودارت الفرسان بعضها ببعض، فلا ترى إلا هامات تهوي، وأيدي تتطاير، ورؤوساً تتدحرج، وأنزل الله النصر على نبيه، وانهمز المشركون، وتركوا معسكرهم، وأقبل المسلمون يغنون أمتعتهم، ويجمعون ما خلفوه وراءهم من غنائم وأسلحة وأرزاق. فلما نظر أصحاب عبد الله بن جبير إلى إخوانهم المسلمين يغنون صاحوا: الغنيمة الغنيمة. وهموا بالنزول من فم الشعب، فنهاهم عبد الله بن جبير وذكرهم قول رسول الله، فلم يسمعوا، ونزلوا يغنون، ولم يبق إلا عبد الله مع نفر قليل. فهجم عليهم خالد بن الوليد في مئتي فارس، فقتلهم جميعاً على فم الشعب.

يقول الواقدي إن النصر الذي تهبأ للنبي محمد ﷺ يوم أحد بمشيئة الله لم

يتهيأ له في موطن قط، وظل النصر بجانبهم حتى عصوا الرسول، وتنافسوا على الغنائم، وتركت تلك الحامية موقعها خلافاً لأمر رسول الله ﷺ، وتجاهلوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير، ونزلوا يغنمون فانكشف ظهر المسلمين للمشركين. فأدرك خالد بن الوليد أن الحامية قد تفرقت، ولم يبق إلا القليل، فهجم عليهم في مئتي فارس من المشركين، وأبادوهم عن آخرهم، والمسلمون منصرفون إلى جمع الغنائم، فما أحسوا إلا والعدو قد تغلغل في أوساطهم ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، فاندھشوا، وجعلوا يضرب بعضهم بعضاً، وهم يحسبون أنهم يضربون أعداءهم.

وصاح خالد بخيل المشركين، فجمعهم بعد هزيمة، ولمهم بعد تفكك، وحملوا جميعاً على المسلمين يحاولون أن يمحوا عنهم عار الهزيمة.

فشتتوا قواهم، وبددوا فرحتهم بالنصر، فكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة سبعين رجلاً من المسلمين، منهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وعبد الله بن جحش بن أخت الحمزة، ومصعب بن عمير حامل لواء المسلمين. فلما رأى رسول الله ﷺ ما حل بالمسلمين لم يجد بداً من أن يقاتل بنفسه، فرمى بالنبل حتى لم يبق معه شيء، وانكسر قوسه وانقطع وتره.

فرماه ابن قميئة بحجر أصاب وجهه، فكسر أنفه ورباعيته، وشق شفتيه، ودخلت حلقات المغفر في جبهته، وسال الدم على وجهه ولحيته الشريفتين، ووقع مغشياً عليه.

ونادى إبليس: «قتل محمد». وصاح أبو سفيان: أعلى هبل أعلى هبل، يوم بيوم بدر. وجاءت هند ومن معها من النساء يمثلن بالقتلى من أصحاب محمد، فجعدن الأذان والآناف، واتخذن منهن قلائد وأقرطة.

وشقت هند بطن حمزة، واستخرجت كبده، ووضعتها في فمها ولاكتها، وقطعت مذاكيره، ويديه ورجليه، وصعدت على صخرة وهي تنشد وتقول:

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ والحرب بعد الحرب ذات سعرٍ
ما كان عن عتبة لي من صبرٍ ولا أخي وعمه وبكري
شفيت قلبي وقضيت نذري حتى ترم أعظمي في قبري

ثم ولت مع النساء، وهي تذكر ما فعلت بحمزة وتقول:

شفيت من حمزة قلبي بأحدٍ حتى بقرت بطنه من الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجدُ من لدغة الحزن الشديد المعتمد
ولما رأى عبد الله بن الزبير مصرع الحمزة أخذته نشوة النصر، فأنشد قصيدته المشهورة:

يا غراب البين ما شئت فقلُ إنما تنطق شيئاً قد فعلُ
إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبلُ
كل عيش ونعيم زائلُ وبنات الدهر يلعبن بكلُ
إلى أن يقول:

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الحدِّ ومقدام بطلُ
صادق النجدة قرم بارع غير ملتات لذي وقع الأسلُ
وقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدلُ
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسلُ

عن مكرمة قال: سمعت الإمام علي بن أبي طالب يقول: «لما انهزم الناس يوم أحد عن النبي محمد ﷺ لحقني من الجزع عليه ما لم يلحقني، وكنت أمامه أضرب بسيفي بين يديه فرجعت أطلبه فلم أره، فقلت: ما كان رسول الله ليفر،

وما رأيته في القتلى، وما أظن إلا إنه رفع إلى السماء. فكسرت جفن سيفي، وقلت: لأقاتلن عنه حتى أقتل. فحملت على القوم، فأفرجوا عني، وإذا أنا برسول الله قد وقع على الأرض مغشياً عليه، وقد خضبت الدماء وجهه ولحيته، فقممت على رأسه، فلما أفاق فتح عينيه وقال: عليُّ هذا؟ قلت: عليُّ يا رسول الله. قال: ما صنع الناس؟ قلت: يا رسول الله نقضوا العهد، وولّوا الدبر. قال: مالك لا تلحق ببني عمك؟ قلت: يا رسول الله، كفر بعد إيمان؟ إن لي بك أسوة. فصاح رسول الله بأعلى صوته يشعر الناس أنه حي لم يمت كما أشاع إبليس وأعوانه.

فسمع خالد بن الوليد صوت محمد وهو ملقى على الأرض، فقال لمن معه: هذا محمد الذي تطلبونه، فحملوا عليه يريدون قتله، فقال: «يا علي، ردهم عني».

فشد عليهم علي حتى كشفهم عنه، فكان كلما دنت منه جماعة تريد الواقعة به، نادى: «يا علي، ردهم عني». فيحمل عليهم علي بجأش ثابت لم يدخله خوف ولا رعب، مشمراً كادحاً، مجدداً ناصحاً، قد وهب حياته لله ولنصرة الدين حتى يردهم عنه، وهكذا كلما دنت منه جماعة نادى: «يا علي ردهم عني»^(١).

(١) قد اتخذ الشيعة الإمامية نداء يا علي اقتداءً بنبيهم محمد المصطفى ﷺ لقوله: «خذوا عني ما أقول، وافعلوا ما كنت أفعل». فإذا عرض لأحدهم عارض مفاجئ أقوى منه نادى: يا علي، من باب التوسل به إلى الله. وبالأحرى النساء عند المخاض كنّ ينادين: يا علي، فتسهل عليهن الولادة بحول الله وقوته من أجل توسلها بوليّه وابن عم نبيّه. وفي ذلك يقول موحّزهم:

نادٍ علياً مظهر العجائبِ تجده عوناً لك في النوائبِ
فكل هم وغم سينجلي بك يا علي يا علي يا علي

فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ وقال: «يا رسول الله، ما هذه المواساة التي أبداها بطل الإسلام؟ لقد عجبت منها الملائكة فقال: «وما يمنعه من ذلك وهو مني، وأنا منه». فقال جبرئيل: «وأنا منكما». وخرج وهو ينادي:

لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فتى إلا علي
وأخذ حسان هذا النداء، فأنشد يقول:

جبريل نادى معلناً والنقع ليس بمنجلي
والمسلمون قد أحدقوا حول النبي المرسل
هذا الذي ومن له الـ زهراء ربة منزل
لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فتى إلا علي

ولما هدا روع المسلمين، وعادت إليهم أوامر اللحم، نزل رسول الله ﷺ إلى مكان المعركة؛ كي يلقي نظرة الوداع على المستشهدين الأبرار، ويرقب بأم العين ما حل بالمسلمين من نكبة، وما نزل بهم من مصاب، حتى بلغ مصعب بن عمير، فرآه صريعاً في برده، واللواء إلى جانبه، فنعاه لمن حوله، وقال: «لقد رأيتك بمكة وما فيها أحد أرق حلة منك ولا أحسن لمة، ثم ذا أنت أشعث الرأس في بردة؟».

وتهادى الرسول في مشيته يحصي القتلى حتى وقف على عمه حمزة بن عبد المطلب ببطن الوادي، وقد بقرت هند بطنه، وأخرجت كبده، وقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، وفعلت به ما لا تفعله الوحوش الضارية. فحزن لمرآه حزناً شديداً، وبلغ الغيظ به كل مبلغ، فقال: «ما وقفت موقفاً أغيظ علي من هذا الموقف». وذرفت عيناه بالدموع، وبكى وبكى المسلمون معه، وقال: «لئن أمكنتني الله من قريش لأمثلن بسبعين رجلاً من خيارهم». فنزل عليه الأمين جبرئيل بهذه

الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(١). وقال له: «إن عمك الحمزة مكتوب في أهل السماء: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله».

ثم عزاه عن الله عز وجل في مصاب المسلمين، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٢).

وقد أثر مصابه على كثير من المسلمين، ورثاه شعراؤهم بقصائد مطولة، منهم كعب بن مالك الذي يقول في قصيدته:

ولقد هددت لفقد حمزة هدة	وظلت بنات الجوف منها ترعد
ولو أنه فجعت حراء بمثله	لرأيت رأسي صخرها يتبدد
قرم تمكن من ذؤابة هاشم	حيث النبوة والندى والسودد
عم النبي محمد وصفيه	ورد الحمام فطاب ذلك المورد
وأتى المنية معلناً في أسرة	نصروا النبي ومنهم المستشهد

ومنهم عبد الله بن رواحة في قصيدته التي أخذنا منها ما يلي:

بكت عيني وحق لها بكائها	وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجل القليل
أصيب المسلمون به جميعاً	هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هدت	وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك في جنان	مخالطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبراً	فكل فعالكم حسن جميل

(١) النحل: ١٢٦.

(٢) آل عمران: ١٣٦.

وفيه تزوج النبي محمد ﷺ من السيدة حفصة ابنة عمر بن الخطاب بعدما مات زوجها خنيس بن عبد الله بن حذافة السهمي .

وفيه بنى عثمان بن عفان بأم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية .
وفيه - في الخامس عشر من شهر رمضان المبارك - شاء الله أن يقر عين الزهراء وعين أبيها رسول الله ﷺ الذي انقطع نسله إلا أن يكون من فاطمة، حيث وضعت بكرها الحسن بن علي، وسعى البشير إلى أبيها فخفت إليها مشوقاً فرحاً، وحمل وليدها بين ذراعيه، وأذن في اليمنى، وأقام في اليسرى، وسأل أباه عن اسمه، فقال: «ما كنت لأسبق رسول الله ﷺ». فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت لأسبق باسمه ربي». عندئذ أوحى الله إلى جبرئيل أنه قد ولد لمحمد ابن، فاهبط وأقرئه السلام، وهنئه بمولده، فهبط وقال له: «إن علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسم هذا المولود باسم ابن هارون».

ولما سأله عن اسم ابن هارون قال: «شبر في السريانية، وحسن في العربية». واحتفلت مدينة الرسول بمولد الحسن، وتصدق جده على الفقراء بزنة شعره فضة.

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطه الحسن يغمره بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان، ويُفيض عليه عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد على كثرة ما تزوج من النساء.

وكان يجد فيه وفي أخيه الحسين أنسه وسلوته عما فقد من الأبناء.

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت.

وفيه تزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت قبله عند الطفيل ابن الحارث، فطلقها، فتزوجها رسول الله ﷺ.

وفيه نزل على النبي محمد ﷺ تحريم الخمر. والخمر هو ما يخمر العقل من كل مائع مسكر عمل بالتخمير. وهو من الكبائر بالانفاق، وجميع الكبائر نهي عنها رسول الله في مكة قبل الهجرة إلى المدينة منذ الأيام الأولى لبعثته، وهذه الآيات التي نزلت عليه بعدها في المدينة كانت للتشديد والتأكيد على حرمتها. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) فنصت الآية أن الخمر من عمل الشيطان، وأعمال الشيطان لا بد لكل نبي أن يحاربها، وينهى عنها ويحرمها.

ومن الآيات التي تنص على تحريمه قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٢). وقد نزلت سورة (الأعراف) على النبي محمد ﷺ في مكة قبل هجرته إلى المدينة، ونص أكثر المفسرين على أن الإثم هو الخمر، وكانت تسميته بذلك من الشائعات عند العرب، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

شربت الإثم حتى غاب عقلي كذاك الإثم يفعل بالعقول
وقال آخر:

نهانا رسول الله أن نقرب الخنا وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

(١) المائة: ٩٠.

(٢) الأعراف: ٣٣.

أحداث العام الرابع

فيه حدثت غزوة ذات الرقاع، وسببها أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان في نجد راحوا يعدون العدة لقتال محمد ﷺ كما جاء في رواية الطبري، فلما علم رسول الله ﷺ خرج لهم في أربعمئة مقاتل، فسار جيشه حتى نزل ذات الرقاع - وهذه الأراضي التي سكنوها كما جاء في بعض التفاسير كانت بها بقع سوداء، وبقع بيضاء كأنها مرقعة برقاع مختلفة فسميت ذات الرقاع - فلما عاينوا جيش المسلمين قد أقبل، لاذوا بالفرار تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم غنائم للمسلمين.

وفيه: وقعت قصة جمل جابر. قال جابر بن عبد الله الأنصاري: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله راجعاً قفلنا معه، فبينما أنا أسير إذ أعيأ بعيري فبرك، فزجرته فلم ينهض، وضربته فلم يتحرك، فجعلت الرفاق تمضي وأنا واقف مكاني.

فأدركني رسول الله ﷺ - وكان من عاداته أن يتأخر عن الركب ليتفقد أصحابه - فلما رأي أن أخ بعيره، وقال: «ما بك يا جابر؟». قلت: أبطأ بي جملي يا رسول الله. فتقدم إلى الجمل ووخزه بعصاة كانت معه، وقال: «اركب يا جابر». فركبت، فقام الجمل وكأنها نشط من عقاب بركة رسول الله ﷺ.

وفيه وقعت غزوة بدر الثانية. وسببها أنه لما خرجت قريش من واقعة أحد منتصرة، نادى أبو سفيان بالمسلمين: إن موعدنا معكم بدر في العام القادم، وهو يريد بذلك أن ينتقم لقتلى بدر في المكان الذي قتلوا فيه.

فلما استدار العام على واقعة أحد، وحل الموعد الذي ضربه أبو سفيان يوم نادى بالمسلمين عند خروجه من واقعة أحد، جمع الرسول أصحابه، وذكرهم بتهديد قريش، وطلب منهم الاستعداد للحرب، وجعل على المدينة عبد الله بن رواحة، ودفع رايته إلى علي بن أبي طالب، وخرج بالمسلمين يغدون السير حتى بلغوا بدرًا، ونزلوا ينتظرون قريش، ولكن أبا سفيان خالف وعده، ولم يخرج، وعاد النبي محمد ﷺ إلى المدينة مع أصحابه، وشاعرهم يقول:

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد لميعاده صدقًا وما كان وافيًا

وفيه صلى النبي محمد ﷺ صلاة الخوف لأول مرة، وهي صلاة ركعتين ركعتين، كصلاة المسافر. عن زرارة قال: سألت الإمام الصادق جعفر بن محمد السليمان عن صلاة الخوف وصلاة السفر: تقصران جميعاً؟ قال: «نعم».

وصلاة الخوف أحق أن تقصر من صلاة السفر التي ليس فيها خوف.

وفيه تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة - في شهر شوال - واسمها هند بنت أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهي ابنة عم أبي جهل. وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الله الأسدي، وهو أول من هاجر بها إلى الحبشة، فولدت له في الحبشة سلمة وعمراً.

وكان زوجها ممن شهد أحداً، وأصيب بجراحات بليغة، وقبل أن يشفى منها شفاء كاملاً - وبعد مضي شهر تقريباً على رجوعه من واقعة أحد - أرسله النبي محمد ﷺ على رأس سرية لمهاجمة بني أسد، فغزاهم بمن معه من المسلمين، واستولى على نعمهم وأموالهم. وبعد رجوعه إلى المدينة انتقضت عليه جراحاته ومات منها.

ولما انقضت عدتها خطبها رسول الله ﷺ؛ ليعوض عليها ويضمها هي وأولادها إلى عائلته تقديراً لمواقف زوجها الخالدة في سبيل الإسلام، فقالت له: يا رسول الله، إني امرأة في غيري، وأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله عليه، وقد كبر سني، وتخطيت الشباب، ومع ذلك فإني امرأة ذات عيال، وأحتاج لأن أعمل في قوتهم: فقال لها ﷺ: «أما الغيرة فسيذهبها الله عنك، وأما السن فقد أصابني ما أصابك، وأما العيال فعيالك عيالي». فرضيت، وتزوجها. وعاشت بعد وفاته زمناً طويلاً، وكانت أفضل من تركهن النبي ﷺ من نسوته في دينها وعقلها والتزامها بوصايا رسول الله ﷺ وسنته.

وكان ولدها سلمة ملازماً لعلي ؓ، وحضر معه حربي الناكثين والقاسطين. وفيه تزوج النبي ﷺ بزینب بنت جحش الأسدية، وكان النبي قد زوجها من قبل بمولاه زيد بن حارثة إلا إن الفوارق الاجتماعية دعت زيدا إلى الطلاق. جاء في الدر المنثور عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة - وكان زيد خادماً لخديجة، ووهبته إلى النبي بعد زواجه منها، ثم أعتقه النبي وتبناه. - فأنفت منه متذرة بأصلها القرشي وقالت: أنا خير منه حسباً؛ لأنني ابنة عمته رسول الله - أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم - وهو من الموالي. فيقول رسول الله ﷺ: «ولكني رضيت به». وينزل قوله تعالى مؤيداً لحكم رسول الله فيما يقضي به: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١)، أي لا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما يشاؤون.

ويتزوج زيد من زينب، ولكن زينب راحت تعيره بالفارق الاجتماعي بينها

٧٠ قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

وبينه، وتبين له بصراحة أنها لم تكن لترضى به زوجاً لولا أمر رسول الله ﷺ، فيصّر على الطلاق، ويذهب إلى رسول الله ﷺ يستشيره في طلاق زينب، فيقول له الرسول ﷺ: «امسك عليك زوجك، واتق الله يا زيد».

وكان الله قد عرّف نبيه محمداً أسماء أزواجه، وأنهن أمهات المؤمنين، وأحد من سمى له: زينب بنت جحش، وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة. فأخفى اسمها في نفسه مخافة سوء أثره في الناس؛ ولذا فإنه ﷺ قال له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله يا زيد».

فأمنه الله بعبابه عليه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(١).

فكان هذا ترخيصاً لزيد في طلاق زوجته، وتمهيداً لبيان الحكم السماوي الذي عرفه النبي ﷺ، وكتمه في نفسه خشية ما يتقوله المتقولون.

وانفصل الزوجان، وعادت زينب إلى أخيها عبد الله، فلم يتقدم لخطبتها أحد على الرغم من جماها الفائق، وشرفها المتألق؛ لأنها مطلقة المولى؛ فأحسّت بالمرارة، وجاء اليوم الموعود لتظهر الحكمة المقدره، ويهبط جبرئيل ﷺ على النبي محمد ﷺ يتلو عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٢) فقال: «من يذهب إلى زينب، ويبشرها أن الله قد زوجنيها في السماء؟». فلما أخبروها سجدت لله شكراً، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول:

(١) الأحزاب: ٣٧.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

ما منكن امرأة إلا زوجها أبوها أو أخوها، إلا أنا زوجني الله من فوق سبع سماوات.

وفيه - في شهر رمضان - تزوج رسول الله ﷺ من زينب بنت خزيمة بن هلال بن عامر بن صعصعة، وهي من بني عبد مناف. وهي التي يقال لها أم المساكين؛ لكثرة عطفها على الفقراء، وصدقاتها، وكانت قبله - كما في رواية لابن الأثير - عند عبد الله بن جحش، فقتل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ. يقول ابن هشام: كانت عند جهم بن عمرو بن الحارث، وهو ابن عمها، فلما قُتل تزوجت عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، أو عند أخيه الطفيل، وتوفيت بعد زواجها من رسول الله بشهرين.

ولم تتوفَّ من أزواجه في حياته إلا هي، وخديجة أم المؤمنين.

وفيه استقبلت المدينة المنورة - في اليوم الثالث من شهر شعبان المعظم - بزوغ نجم الوليد الجديد لفاطمة الزهراء. وتردد آفاق يثرب صدى هذا النبأ المفرح، ويتلقاه الرسول الأكرم بالبشر والحبور، وتعلوه الفرحة، ويهب إلى بيت ابنته الطاهرة ليحمل لها مسراته وتهانيه الخالصة. وتقدم إليه الطفل المبارك ليؤذن في أذنه اليمنى، ويقيم في اليسرى، ثم يعلن تسميته حسيناً.

لقد تفتح قلب النبي ﷺ لهذين الحفيدين الغاليين - الحسن وأخيه الحسين - ورأى فيهما امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض، ومنتفساً لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التي يئست من الولد منذ ماتت السيدة خديجة؛ فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه - الحسن والحسين - يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد على كثرة من تزوج من النساء.

لقد أثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى، فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى ﷺ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت. كما كرم الله وجه علي فجعل في صلبه نسل خاتم الأنبياء، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد. وفيه بعث النبي ﷺ سرية بئر معونة. قال ابن إسحاق: قدم أبو براء عامر ابن مالك - المعروف بملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن صعصعة - على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم، وقال: يا محمد، إن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبيوا لك. فقال ﷺ: «أخشى عليهم أهل نجد». فقال: أنا لهم جار.

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو وأخا بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين، ومعهم كتاب من رسول الله إلى بني عامر قوم أبي براء يدعوهم فيه إلى الإسلام. فسار المنذر بمن معه إجابة لنداء الواجب، حتى بلغت بهم الطريق إلى بئر معونة قريباً من بني عامر، فنزلوا عنده، فدعا المنذر بأحد أصحابه أن يحمل كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ابن أخي أبي براء، لكن عامراً قبل أن يرى ما في الكتاب ألقاه على الأرض، وقتل الرسول، واستعان ببعض القبائل المجاورة على القضاء على تلك الجماعة من المسلمين، حيث إنه زعم أنهم جاؤوا ليفتنوا الناس عن دينهم. فتكاثر عليهم القبائل عند بئر معونة، وقتلوهم، ولم ينج منهم إلا من كتب الله له النجاة.

وفيه جلاء يهود بني النضير من المدينة. قال ابن هشام: خرج النبي ﷺ مع بعض أصحابه إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهم

عمرو بن أمية الضمري. وبعد أن رحبوا به غلب عليهم طابع الغدر والخيانة، فتأمروا على قتل النبي، فنزل عليه جبرئيل، وأخبره بما عزم عليه يهود من اغتياله، وأمره بالخروج. فدعا النبي محمد بن سلمة، وأمره أن يذهب ليهود بني النضير، ويقول لهم: «إنكم نقضتم العهد الذي بينكم وبين رسول الله ﷺ بغدركم؛ فاخرجوا عن بلاده. وقد أجلكم عشراً؛ فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه».

وبما أنهم لا قبل لهم بقتال محمد وأصحابه، راحوا يستعدون للخروج إلا إن عبد الله بن أبي نهام عن الخروج، وأوعدهم المساعدة على محمد، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. ونزل على النبي محمد في عبد الله بن أبي قرآنًا يقول فيه تعالى في سورة (الحشر): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١).

فأمر النبي ﷺ بالاستعداد للقتال، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب، وخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وسار بأصحابه يريد قتال يهود بني النضير. فتحصنوا عنهم في حصونهم، فحاصرهم الرسول خمسة عشرة يوماً وأمر بقطع نخيلهم، فذب الرعب في قلوبهم، وعرفوا أنه لن تكون لهم نجدة من أحد.

فسألوا رسول الله ﷺ أن يؤمنهم على دمائهم وذرايعهم ولهم ما حملت الإبل من أموالهم، فقبل النبي ﷺ على شرط أن يتركوا سلاحهم، ولا يأخذوا منه شيئاً. فقبلوا لأمره صاغرين.

وارتحلوا عن المدينة منخذلين، تاركين وراءهم للمسلمين غنائم كثيرة، فنزل قسم منهم خيبر، ومنهم سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب،

(١) الحشر: ١١.

ومنهم من لحق بالشام، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١).

وفيه قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فالآية تأمر بغض الأبصار - أي تنهى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي والأجنبية - ويحفظوا فروجهم، وأشارت إلى وجه المصلحة في الحكم بقوله تعالى فيها: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. فلا يجوز لمؤمن ولا لمؤمنة النظر إلى ما لا يجب عليهم ستره.

أخرج الترمذي عن أم سلمة أنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ ومعني ميمونة، وفي رواية السيدة عائشة. قالت: فبينما نحن عنده إذ أقبل ابن أم مكتوم،

(١) الحشر: ٢.

(٢) النور: ٣٠ - ٣١.

أحداث العام الرابع..... ٧٥

فدخل على النبي محمد ﷺ - وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب - فقال لنا رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال ﷺ: «أفعميا وان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟».

أحداث العام الخامس

وفيه حدثت غزوة دومة الجندل. وهي دومة تقع على الحدود بين الحجاز والشام - وهو المكان المعروف اليوم بالجوف، كما جاء في أعيان الشيعة - وكان قد بلغ الرسول ﷺ أن بدومة الجندل جمعاً كبيراً يقطع الطريق، ويغير على القوافل، ويظلمون من مّر بهم، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فجهز النبي جيشاً قوامه ألف رجل من المسلمين، وخرج لتأديبهم، حتى نزل بساحتهم، ولكنه لم يظفر بهم؛ لأنهم ما أن سمعوا بقدمه حتى أخذهم الفرع والهلع، ولوا هارين وتركوا أموالهم غنائم للمسلمين، فكفاه الله إياهم.

وفيه غزوة الأحزاب. يقول ابن إسحاق وغيره: كانت غزوة الأحزاب في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة النبوية، وكان السبب أن رسول الله ﷺ كان له مع اليهود الساكنين حول المدينة المنورة شروط ومعاهدات، فنقض اليهود تلك الشروط، وخانوا المعاهدات؛ فأجلاهم رسول الله عن المدينة، وصادر بعض ممتلكاتهم، فخرج منهم جماعة من بني النضير وبني وائل إلى مكة - حيث قريش هي صاحبة السيادة بين القبائل، وما تفعله قريش يمكن أن يشد القبائل الأخرى ويجعلها تفعل مثلها - وجعلوا يجرضونهم على حرب المسلمين، وأعدوهم بأن يكونوا معهم حتى يستأصلوا النبي محمداً وأصحابه، فقالت لهم قريش: إنكم أهل الكتاب الأول، وتعلمون بما أصبحنا عليه نحن ومحمد، ونحن نسألكم: أديننا خير أم دينه؟ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وكانت قريش قد خرجت بعد واقعة أحد، وهي ظافرة منتصرة، فطمعت في

محاربة المسلمين حرب إبادة وقضاء؛ لتقلع جذور العار الذي لاحقها يوم بدر، وتضيف إلى انتصارها انتصاراً آخر، فلما سمعت من اليهود ذلك، طمعت أن يحقق لها النصر النهائي على النبي محمد وأصحابه، وتواعدوا على حربهم ﷺ.

وجعلت قريش تجمع رجالها وأحباشها وأحلافها إلى حرب النبي محمد ﷺ، ولم يكتفِ اليهود بتفضيل الوثنية على التوحيد الذي يدعو إليه النبي محمد ﷺ، وجميع الأديان السماوية، بل خرجوا من مكة يحملون موافقة قريش سمة إقناع لقبائل العرب الأخرى. فراحوا ينتقلون من مضارب إلى أخرى، ومن حي لآخر.. من غطفان إلى بني مرة، ومن بني فزارة وأشجع وسليم إلى بني سعد وأسد، وإلى كل قبيلة لها عند المسلمين ثأر، أو في نفوسها عداوة للنبي محمد ﷺ وأصحابه، يرضونهم على حرب النبي محمد ﷺ وأتباعه، حتى أمكنهم أن يستنفروا أكبر عدد من الأعراب لمساعدتهم على حرب النبي محمد وأصحابه، والقضاء عليهم.

ولما حان الموعد المتفق عليه، خرجت القبائل والعشائر جماعات وأحزاباً يحملون رايات العرب وتأييد اليهود - بعد أن جمعتهم الغاية، ووحدت بينهم الأهداف - لغزو المدينة والقضاء على الإسلام وأهله. وخرجت قريش - بقيادة أبي سفيان بن حرب - والتقت تلك الجموع الغفيرة التي بلغ مجموعها أكثر من عشرة آلاف مقاتل - فسميت بذلك وقعة الأحزاب - واتفقوا على أن يهاجموا المدينة من فوقها ومن أسفلها.

وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ عن طريق جماعة من خزاعة كانوا قد وفدوا عليه، فأخبروه بالتجمع الذي أعدته قريش وأحلافها من العرب واليهود لغزوه، فرأى رسول الله ﷺ أن الأمر شديد الخطورة، فعليه أن يأخذ التدابير العاجلة،

فدعا إليه على الفور وجوه أصحابه يشاورهم فيما يجب أن يتخذه لمنع قريش وأحلافهم من دخول المدينة، وأخذ هذا الأمر حيزاً كبيراً من وقت المجتمعين دون أن يبتدوا إلى حله.

فأخذهم الهم والقلق، وسادت بينهم لحظة من الصمت قطعها سلمان الفارسي - الذي كان بين المجتمعين - وهو يقول: يا رسول الله، إن القليل لا يقاوم الكثير، والرأي أن نحفر خندقاً حول المدينة؛ لتكون الحرب بيننا وبينهم من جهة واحدة؛ فإننا كنا بأرض فارس إذا هاجمنا العدو خندقنا علينا.

فتهلل وجه رسول الله ﷺ بالبشر، فانعكس بشره ارتياحاً على نفوس الصحابة؛ إذ وجدوا في فكرة حفر خندق في ناحية المدينة الشمالية ما يبعد كثيراً خطر تلك الناحية عن الجيش الإسلامي.

وخرجوا راضين، وعلى عون الله متوكلين، وأمر الرسول بحفر الخندق، داعياً الرجال إلى شد العزائم، وحمل المعدات والأدوات.

وسميت الواقعة - بذلك - بواقعة الخندق. ووزع الرسول أصحابه جماعات على أن تضم كل جماعة عشرة من الرجال، وحدد لكل عشرة حفراً أربعين ذراعاً. واندفع رجال الإسلام إلى العمل، تشدهم العزيمة، ويحدوهم الأمل، يستعينون بما عندهم من الأدوات والوسائل، وما غنموه من بني قريظة من معاول ومكاتل.

جاء في كتب السيرة أنه بينما كان سلمان الفارسي مع تسعة يحفرون في المساحة التي حددها لهم رسول الله ﷺ؛ إذ عرضت لهم صخرة بيضاء لم تعمل بها معاولهم شيئاً، فسألوا سلمان أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك - فلعله يأمر بالعدول عنها - فلما أخبره، أقبل معه، وهبط بنفسه في الخندق، وأخذ المعول من سلمان الفارسي، وضرب الصخرة ضربة صدعتها وخرج منها بريق أضواء أجواء المدينة،

فكبر رسول الله وكبر المسلمون، ثم ضربها أخرى فتصدعت وخرج منها نفس البريق الأول، فكبر النبي وكبر المسلمون، وفي الضربة الثالثة تكسرت وظهر منها بريق أضواء ما وراء المدينة، فكبر رسول الله وكبر المسلمون.

ولما سئل صلى الله عليه وآله عن سبب تكبيره قال: «لقد أضاءت لي في التكبيرة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها، وفي الضربة الثانية أضاءت لي قصور الحمر بالروم، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها. وفي الضربة الثالثة أضاءت لي قصور صنعا، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها». وكان سلمان الفارسي رجلاً شاباً قوياً، فاختلف فيه المهاجرون والأنصار، فقال المهاجرون: سلمان منا. وقالت الأنصار: سلمان منا.

وإنما وقع التنافس في سلمان؛ لأنه كان رجلاً قوياً يعمل عمل عشرة رجال في الخندق، فكان يحفر في كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: «سلمان منا أهل البيت». يقول الشاعر:

ونال بخدمة المختار طه وعترته الأكارم ما تمنى
لقد فقت الورى شرفاً وفخراً بقول المصطفى «سلمان منا»

وتواصل الحفر ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم على ذلك العمل مشرفاً على سيره، يحثهم على الدأب والمواصلة، ويشحذ فيهم العزيمة والصبر، وربما التقط معولاً من أحد العاملين، وينزل إلى عمق الخندق يضرب به ويقول:

اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة

فينساب دعاء النبي صلى الله عليه وآله إلى الشفاه، فينشده المؤمنون لحناً طيباً مشجعاً،

ويهزجون فرحين:

والله لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى لقد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا
ويتبعهم آخرون:

بسم الإله وبه اهتدينا ولو عبدنا غيره شقينا

يا حذار رباً وحبّ ديناً

يقول البراء بن عازب: كان رسول الله ﷺ كأحدنا، يحفر بيده، ويجهد نفسه، وينقل التراب والحجر، فإذا أخذه التعب جلس على الأرض، وربط على بطنه حجراً، ويأتيه النعاس فيغفو.

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري: رأيت رسول الله ﷺ قد ربط على بطنه حجر المجاعة حيث مكثنا ثلاثة أيام لم نذق طعاماً، فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أذهب إلى البيت، فأذن لي، فذهبت مسرعاً، وقلت لزوجتي ما رأيت من رسول الله ﷺ: وإني أريد أن أصنع له طعاماً، وكان عندي عناق فذبحتها وسلختها، وأمرت زوجتي أن تأخذ صاعاً من شعير وتطحنه وتعمله خبزاً.

وذهبت إلى رسول الله ﷺ أدعوه لتناول الطعام، فقال: «ما عندك يا جابر؟» فأخبرته بما صنعت، فقال لي: «أنا ومن أحب؟». قلت: أنت ومن تحب. وكان في أملي أن من يحب علي وسلمان والمقداد وعمار وأبو ذر، وإذا به قد وقف على شفير الخندق، وصاح: «هلموا لوليمة جابر».

وكان في الخندق خلق كثير لا يكفيهم ما صنعته من طعام، فقلت: واخجلتاه! وعدوت مسرعاً إلى زوجتي أقول: لقد افتضحنا، لقد جاءنا النبي محمد ﷺ بالمهاجرين والأنصار. قالت: ألم تخبره بما صنعت؟ قلت: نعم. قالت: الله ورسوله أعلم.

وجاء النبي ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار، ودخل بيت جابر، ونظر في القدر، وقال اغرف وأبق. ونظر إلى التنور وقال أخرجي شيئاً وأبقي.
ثم قال: «يا جابر علي بقصعة، وبعض الخبز». وأخذ الخبز فقطعه في القصعة، وأمر أن يصب عليه من المرق حتى صار ثريداً، ونادى: «يا جابر، علي بالذراع» فجعله على الثريد، وقال: «يا علي أدخل علي عشرة». فأكلوا وشبعوا وخرجوا، ثم مرة ثانية وقال: «يا جابر علي بالذراع». وصاح: «يا علي أدخل علي عشرة». فأكلوا وشبعوا وخرجوا، وهكذا في الثالثة، فقلت: يا رسول الله، كم للشاة من ذراع؟ فقال: «لو سكت يا جابر، لأكل الناس كلهم من الذراع».

يقول جابر: فلم يزل علي يدخل عليه عشرة عشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، وبعث النبي منه إلى أزواجه وابنته فاطمة، وبقي من الطعام ما عشنا به أياماً كثيرة.

فلما اطمأن الرسول إلى تنفيذ ما كان قد أمر به من حفر الخندق، وأن جميع الأمور التي أرادها قد دبرت، دعا إلى المناداة بالخروج، وخرج ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل يتقدمهم إلى الناحية الشمالية من المدينة حيث أقيم الخندق، وهناك نصبت للرسول خيمته الحمراء، وأقيم معسكر الجيش الإسلامي متخذين من هضبة جبل سلع حاجزاً يحمي ظهورهم من العدو، ومن الخندق عاملاً يفصله عنهم، وأقبلت قريش بخيلها وخيلائها، وأحلافها وأتباعها، يقدمهم أبو سفيان يريد دخول المدينة، فذهلت عندما رأت الخندق دون المدينة، والذي يبعتها عن الوصول إليها، وهو حديث عهد بالحفر، عميق المدى، واسع العرض، لا يجروءون على النزول إليه، ولا يستطيعون تجاوزه، فقال أبو سفيان: من أين لمحمد هذا الصنيع في الحرب؟ إنها لمكيدة لم تعرف بها العرب، وأظنها من تدبير الفارسي.

فأمر أبو سفيان بالنزول وحصار المدينة من عدة جهات؛ فلعل الأيام القادمة تتيح لهم سبل اقتحامها، والقضاء على النبي محمد وأصحابه. فما زالوا في حصارهم حتى انبرت طائفة من الفرسان من كتيبة أبي سفيان بعبور الخندق - وهم عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد العزى، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن ود العامري، وهو أول من عبر الخندق - وفيه يقول الشاعر:

عمرو بن ود كان أول فارس طفر المراد وكان فارس يليل

ويراه المسلمون مندفعاً، فلا يجروا أحد على ملاقاته، ويزيد في تقاعسهم ما كان له من شهرة في القتال، حتى قيل عنه بأنه البطل الذي لا يقاوم، وقد سمي لشهرته: فارس يليل.

وتعود هذه التسمية إلى يوم أنه كان في ركب يسيرون بوادي يليل القريب من بدر، فعدا عليهم فرسان من بني بكر، فصاح بأصحابه: دعوني وإياهم، وانجوا بأنفسكم. فجعل يقتل من يقتل ويجرح من يجرح حتى انهزموا. فاستقبله قومه بالهتاف: أهلاً بفارس يليل. ومن ذلك الحين غلب عليه ذلك اللقب، وتلك الشهرة هي التي أجفلت أبطال المسلمين من البراز إليه.

ويتعاضم البلاء عليهم حتى يبلغ المدى الذي تزيغ معه الأبصار، وتبلغ به القلوب الحناجر، فيصير معه المسلمون على الحالة التي وصفهم بها الله بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(١). فلما لم يبرز إليه أحد ركز رمحه في الأرض، وجعل يجول حوله وهو يقول:

ولقد بحت من النداء بجمعكم هل من مبارز
 ووقفت إذ جن الشجاع مواقف الـ قرم المنـاجز
 إنني كذلك لم أزل متسرعا نحو الهزاهز
 إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فكانت كلماته كنداء الموت، ما سمعها أحد إلا رجف قلبه، وانهارت قواه، ولم يلبّ نداءه، إلا ريبب الوحي، والسابق للإسلام علي بن أبي طالب - وكان حديث السن، في غصارة الشباب - فقال النبي: «اجلس يا علي، إنه عمرو بن ود».

ويبقى عمرو يجول في الميدان دون أن تنقطع مناداته للمسلمين، أو يتوقف افتخاره بنفسه، بل تزداد صرخات عمرو متحدياً: يا من تزعمون أننا إذا قتلناكم تدخلون الجنة، وإذا قتلتمونا دخلنا النار، فهلموا إليّ، طريقكم إلى الجنة مفتوحة، فأنا أقودكم إليها.

ويغضب رسول الله ﷺ لاستهزاء هذا الكافر، ويصيح: «من لهذا الكلب العقور، وأنا الضامن له على الله الجنة؟». ويظل الجميع قابعين في الصمت، يسيطر عليهم جو الرهبة والخوف، فيعود علي، ويتقدم، فيقول النبي: «اجلس يا علي؛ إنه عمرو بن ود». ويصيح مرة ثالثة: «من لهذا الكلب العقور، وأنا الضامن له على الله الجنة؟». فلم يجبه أحد، فيندفع علي نحو النبي يطلب منه مبارزته من جديد، فيقول النبي: «إنه فارس ليليل». فيقول علي عليه السلام: «وأنا علي بن أبي طالب». فيقول ﷺ: «أنت أنت».

وينظر إليه بعين ملؤها المحبة والعطف، وتتجاذبه حياله شتى الأفكار؛ إنه علي الإنسان الذي يجبه من أعماقه، وكان أول من آمن به بعد زوجه خديجة، وظل بجانبه منذ ذلك الحين يعينه على نوائب الأيام وصعابها بقدر ما يستطيع؛ فهو الذي

فداه بنفسه عندما نام على فراشه يوم هجرته، وهو زوج ابنته التي منها نسله؛ فكيف يسلمه إلى عمرو بن ود صاحب القوة والبأس، بطل الأبطال، وقاتل الرجال، ومشتت الفرسان المعلم الأول وفارس ليليل؟ ولكن، أو ليس الإسلام بحاجة إلى علي الآن، وما على الرسول إلا أن يأذن له، فقال النبي: «ادنُ مني يا علي». فنزع النبي درعه ذات الفضول، ودرعه بها، وقلده سيفه ذا الفقار، ونزع عمامته السحاب، وعممه بها، وقال له: «تقدم يا علي على بركة الله».

فلما برز علي، رفع النبي يديه نحو السماء وقال: «اللهم، إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا علي أخي وابن عمي، فلا تردني فرداً وأنت خير الوارثين». وقال داعياً: «اللهم احفظه من خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، اللهم سدّد علياً وأيده، وانصره على خصمه؛ إنك أنت أرحم الراحمين».

فلما برز علي قال النبي: «لقد برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

ويندفع علي راکضاً نحو عمرو بن ود وهو يقول:

لا تعجبين فقد أتاك مجيب صوتك	غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق من	جبي كل فائز
إنني لأرجو أن أقيم عليك ناصية	الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى صيتها	بعهد الهزاهز

فصاح به عمرو: من أنت؟ قال: «أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف». فقال: كان أبوك صديقاً وندياً لي في الجاهلية، وأكره أن أقتلك. قال علي عليه السلام: «ولكنني أحب أن أقتلك». قال: أما خاف ابن عمك عليك

حين بعثك أن اختطفك برححي، فأتركك شائلاً بين السماء والأرض، لآحي ولا ميت؟ فقال عليه السلام: «قد علم ابن عمي إن قتلني فأنا في الجنة وأنت في النار، وإن أنا قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة». فقال: كلتاها لك يا علي؟ تلك إذن قسمة ضيزى فقال علي عليه السلام: «دع عنك هذا، لقد سمعتك تقول: ما دعاني أحد إلى ثلاث خصال إلا أجبته، ولو إلى واحدة، وأنا أدعوك إلى ثلاث». قال: قل. قال: «الأولى: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». قال نحها عني يا علي. قال: «الثانية: أن ترجع وترد هذه الجيوش عن رسول الله إلى مكة». قال: تتحدث نساء مكة في مغازلها، والرجال في محافلها أني جبت ورجعت، وخذلت قوماً رأسوني عليهم؟ قال: «الثالثة: أنت راكب وأنا راجل، فانزل حتى أنا بذك».

فوثب عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما ظننت أحداً من العرب يسومني عليها. وشد على علي فضربه بالسيف على رأسه فاتقاها علي بالدرقة فقطعها وثبت السيف على رأسه وجرحه وسال دمه، فعاجله علي بضربة على فخذة فبرأها، وسقط على الأرض، فجثا على صدره كالأسد المصور، وارتفع صوته يشق عنان الفضاء مكبراً بندااء الحق: «الله أكبر». فسمعه رسول الله، فكبر، وكبر المسلمون، فقطع رأسه، وأنشد مفاخرأ بنصر الله، وهو يشير إلى عدو الله:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	ونصرت رب محمد بصوابي
فضربته وتركته متجدلاً	كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أني	كنت المقنطر بزني أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه	ونبيه يا معشر الأحزاب

فلما نظر أصحاب عمرو بن ود الذين عبروا معه الخندق إلى صاحبهم يخور في دمه، فروا ليعبروا الخندق، فطفرت بهم خيلهم إلا نوفل بن عبد الله فإنه قصر به

فرسه، فرماه في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معشر المسلمين، قتلة أكرم من هذه. فنزل إليه علي فقتله.

ويعود علي برأس عمرو، فيستقبله النبي والمؤمنون بهتافات النصر والابتهاج، ويضمه النبي إليه، ويقول: «لو وزن عملك اليوم بعمل جميع أمة محمد لرجح عملك على عملهم».

ولما نعي عمرو إلى أخته عمرة - وكنيتها أم كلثوم - قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟ قيل لها: علي بن أبي طالب. فقالت: لقد قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفاء كريم من قومه، وأنشدت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه دائم الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به قد كان يدعى أبوه بيضة البلد
من هاشم من ذراها وهي صاعدة إلى السماء تميت الناس بالحسد
قوم أبى الله إلاً أن يكون لهم كرامة الدين والدنيا بلا ندد
يا أم كلثوم ابكيه ولا تدعي بكاء معولة حرى على ولد

وأنزل الله على نبيه محمد ﷺ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾^(١).

وفيه غزوة بني قريظة. فبعد أن انجلت الشدة، وتفرقت الأحزاب من حول المدينة، عاد المسلمون إلى بيوتهم للقاء الأهل والأحبة يحتفلون بالنصر الذي حققته إرادة السماء بسيف علي بن أبي طالب، ولكنها لم تمض إلا ساعات حتى يهبط بعدها جبرئيل على النبي ﷺ وهو يقول: «يا محمد، غفر الله لك، وضعت السلاح؟». قال: «نعم» قال: «فالملائكة ما وضعت السلاح بعد، إن الله يأمرك

بالمسير إلى بني قريظة».

فأمر النبي المؤذن أن يؤذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة».

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ودفع رايته إلى علي بن أبي طالب، وخرج رسول الله ﷺ بجيشه، حتى إذا وصلهم، نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم، يقال له بئر إني، فحاصروهم خمسة وعشرين يوماً، حتى جهدهم الحصار، وقذف في قلوبهم الرعب، فلما رأوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، نزلوا على حكمه، فحكّم فيهم سعد بن معاذ.. وكان سعد قد أصيب بسهم في أكحله قطع عرقاً منه خلال حصار الأحزاب للمسلمين نزل منه أكثر دمه، وأصبحت حياته مهددة بالخطر، وكان النبي ﷺ بعد رجوعه من الخندق أمرهم أن يضعوه في خيمة «رفيدة» في المسجد قريباً منه لزيارته، وكانت رفيدة قد ضربت لها خيمة في المسجد تعالج فيها الجرحى، فلما اختارته قريظة ليكون حكماً بينها وبين النبي محمد ﷺ، أتاه قومه وحملوه على حمار قد وطّؤوا له بوسادة من آدم - وكان رجلاً جسيماً وسيماً - وأقبلوا به إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك؛ فإن رسول الله إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فقال: قد آن لسعد إلا تأخذه في الله لومة لائم.

ولما وصل سعد إلى رسول الله ﷺ استقبله النبي وقال لمن حوله من الأوس:

«قوموا إلى سيدكم».

فقاموا إليه وأنزلوه عن دابته، وقالوا له: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت؟ قالوا: نعم. والتفت إلى الناحية الثانية التي فيها رسول الله ﷺ وقال

مثل مقالته، فرد عليه رسول الله: «نعم».

فقال سعد: إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله لسعد: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات». فأمر الرسول علياً بضرب أعناقهم، وكانوا ستمئة، وقيل: أكثر. وبعد أن نفذ رسول حكم سعد في بني قريظة توفي سعد، فلما بلغ النبي خبر وفاته قال: «والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش». وأكثر النبي من الترحم عليه وعلى من صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وقال فيه الشاعر:

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو^(١)

وفيه تزوج النبي محمد ﷺ برملة بنت أبي سفيان، وتكنى أم حبيبة. وكانت قد أسلمت هي وزوجها عبيد الله بن جحش في مكة على الرغم من معارضة أبيها أبي سفيان بن حرب أحد زعماء مكة وقائد المشركين، مما عرضها وزوجها لظلامه قريش واضطهادها، فهاجرت مع زوجها عبيد الله إلى الحبشة، ومكثا هناك رداً من الزمن أولدها فيه بنتاً اسمها حبيبة، ثم لم يلبث أن ارتد عن دينه الذي من أجله هاجر إلى الحبشة، وجاهد أن يرد زوجته رملة عن دين الإسلام فأبت عليه؛ فتفارقا لتعيش رملة مع طفلتها حبيبة وحيدة في تلك الديار، تذوق مرارة العزلة، والفقر والغربة.

ولم يعد لها ملجأ غير أن ترجع إلى أبيها عدو الإسلام والمسلمين، وإذا رجعت وأصرت على الإسلام فلا بد أن تتعرض لأشد أنواع الأذى والتعذيب من أبيها وأتباعه، فعرف النبي ذلك، فأرسل عمرو بن أبي أمية الضمري إلى النجاشي

(١) السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٢٤٩. الوافي بالوفيات ١٥: ٩٦.

يطلب منه أن يزوجه منها لينقذها من الغربة وضياح القرين، ويعود بها وبمن بقي في تلك البلاد من المهاجرين الأولين إلى المدينة؛ ليعوض على ابنة زعيم قريش أبي سفيان ما لاقته من مرارة الهجرة، وقساوة الوحدة والاعتراب، ورفعها إلى أعلى المراتب بين النساء، وأدخلها البيت النبوي زوجة عزيزة موفورة الكرامة، وعاشت كما عاشت أمهات المؤمنين في كنف الرسول الأعظم.

وفيه أنزل الله على نبيه محمد ﷺ آية الحجاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾^(١). وقد كانت النساء في أول الإسلام على عاداتهن في الجاهلية متبذلات، يبرزن في درع وخمار من غير فصل بين الحرّة والأمة، فنزلت هذه الآية تأمرهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن أن يدنين عليهن من جلابيبهن - أي يسترن وجوههن وأبدانهن بالملاحف من الأجنب - لئلا يطمع أهل الريب فيهن.

أحداث العام السادس

كانت السنة السادسة للهجرة مليئة بالحروب والسرايا والمناوشات الدائمة، لم يهدأ فيها المسلمون أبداً. لكن إذا كانت السنوات التي انقضت منذ هجرة النبي محمد بن عبد الله من مكة قد تلاحقت مليئة بالحروب والمعارك، فإن ذلك لا يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية بل يجب أن يحل اليوم الذي يدرك فيه أهالي جزيرة العرب أن النبي محمد بن عبد الله ما جاء داعية حرب وقتال، ولا منادياً بالترفة وزرع بذور الفتنة بين الناس، بل إنه على العكس من ذلك تماماً، جاء هادياً ليخلص الناس من أدران الوثنية، ويتشلها من موبقات الجاهلية.

وإذا كانت قريش واليهود قد رفضوا الانصياع لنداء العقل، وأصروا دائماً على محاربة الإسلام، فلا يمكن أن يفكروا في إقامة علاقات سلام ما داموا يفكرون أنهم قادرون على محاربة الإسلام. واليهود هم أبعد الناس عن تقبل هذه الفكرة، فلم يبقَ إلا الطرف الآخر أي قريش، فكيف السبيل إلى إقناع قريش؟ فجاء الأمر من السماء أن يجدد العهد بزيارة البيت الحرام، وأداء بعض المناسك، فخرج مع أصحابه قاصداً بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج غير راغب في حرب، ولا طامع في قتال، بل رغبته أن يتخذ من الحج إلى بيت الله الحرام خطة سلام تمكنه من الاجتماع بقريش والتفاوض معها على مختلف الشؤون التي تهم الطرفين.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ودفع لواءه لعلي بن أبي طالب، وأخذ معه سبعين بدنة من الهدي، وحمل معه من نسائه أم سلمة، وسار حتى وصل ذا الحليفة ميقات أهل المدينة الذي يجرمون منه إلى الحج - ويقع على ستة أميال من

المدينة - وهناك أحرم، وأحرم الناس، وسار حتى بلغ عسفان، فبلغ قريشاً الخبر، فاجتمعوا على صده، وأخرجوا معهم النساء والصبيان، ونزلوا بذي طوى ليحولوا بينه وبين دخول بلدهم مهما كلفها الأمر من توضحيات، وأرسلوا ممتي فارس بقيادة خالد بن الوليد إلى كراع الغميم ليقطع الطريق على النبي محمد وأصحابه، فلما علم النبي محمد ﷺ بما فعلته قريش، وما بعثت من جيوش، قال لأصحابه: «من فيكم يخرج بنا على غير طريقهم».

فتقدم رجل من أسلم، وسار بهم حتى أوصلهم الحديبية، فبركت ناقة رسول الله فجأة، فظننها الناس قد جهدت، فقال النبي ﷺ: «ما جهدت، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. والذي نفس محمد بيده ما تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم وتعظيم حرمت الله إلا أعطيتهم إياها».

ثم أمر الناس بالنزول، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء، وهذه الآبار قد جف ماؤها، فأخرج الرسول سهماً من كنانته وأعطاه أحد أصحابه، فأطلقه في أحد تلك الآبار، وغرزه في جوفها، فنبع الماء بقدرة الله تعالى. ولما عرفت قريش أن النبي نزل الحديبية، أقبلوا حتى وقفوا على مدخل مكة لمنع النبي وأصحابه من دخولها. ولما طال الانتظار من الجانبين استبدَّ بقريش القلق، وأخذها الفزع، فرأت أن ترسل إلى النبي محمد من يسأله عما جاء به، وماذا يريد، فأجابهم: «ما خرجت في الشهر الحرام أريد القتال، ولا حرباً، وإنما أردت أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها شريعة العرب وبعض الأديان من قبل».

ولكن قريشاً أصرت على عنادها، ورفضت السلام مع النبي محمد، وأبت أن يدخل عليها بلدها، ولو أدى ذلك إلى فنائها عن بكرة أبيها؛ مما أثار غضب المسلمين، وقالوا: لا نبرح حتى نناجز القوم. ولكن رسول الله ﷺ كان يؤمل

السلم الذي أراه. فأوحى الله إليه أن يطلب منهم البيعة، فلبى المسلمون طلب رسول الله ﷺ، وأقبل الناس يبايعون النبي ﷺ على الفتح أو الشهادة. وكان ﷺ يجلس تحت شجرة في ذلك الوادي، فبايعوه جميعاً، وقد أبدوا من عميق الإيمان أخلصه، ومن قوة العزيمة أصدقها، ودعيت تلك البيعة بيعة الرضوان، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١). وتناهى خبر البيعة إلى قريش، فخافت على نفسها، وأقرت أن تفاوض على صلح يقيم التوافق بين مطالبها ومطالب محمد ﷺ، فبعثت سهيل بن عمرو أخا بني عامر إلى النبي محمد بالحديبية يحمل مطالب قريش إليه، فوافق ﷺ أن يفادى في مطالب قريش حتى التأم الأمر على الصلح، ولم يبق إلا كتابة المعاهدة. فدعا الرسول علياً ليكون كاتب الوثيقة، وبدأ رسول الله يملئ على علي، وعلي يكتب فقال لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أمسك، لا أعرف من هو الرحمن الرحيم، اكتب: باسمك اللهم. فقال النبي: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال ﷺ: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: أمسك، لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: «أحها يا علي، واكتب ما يريد». فقال علي: «والله لا أمحوها». فأخذها النبي من يده ومحا كلمة رسول الله، والتفت إلى علي وقال: «ستدعى إلى مثلها، فتأتيها وأنت مضطر»^(٢).

وتابع النبي يملئ على علي نص المعاهدة حتى اكتملت، فجاءت أبرز بنودها:

(١) الفتح: ١٨.

(٢) مشيراً ﷺ إلى صلحه ﷺ مع معاوية.

١. إقامة هدنة بين المسلمين وقريش مدة عشر سنين من تاريخ توقيعها.
 ٢. من أسلم من قريش وأتى محمداً بغير إذن وليه رده عليه، ومن ارتد من المسلمين وجاء قريشاً فلا يردونه عليه.
 ٣. من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، ومن رغب في مخالفة قريش فله ذلك.
 ٤. رجوع محمد وأصحابه عن مكة هذا العام على أن يعودوا إليها في العام القابل، فيدخلوها، ويقيموا فيها ثلاثة أيام، وليس معهم من السلاح إلا السيوف في أغمارها، ولا سلاح آخر.
- وجرى التوقيع، وأشهدت الشهود رجال من المسلمين ومن المشركين.
- وفيه غزوة بني المصطلق. فبعد أن بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق - وهم فرع من خزاعة - يأترون عليه، وأن زعيمهم الحارث بن أبي ضرار قد جمع قومه ومن حوله من الأعراب لغزو المدينة، أذن مؤذن الرسول بالاستعداد للخروج، وسرعان ما احتشد جيش الهدى حول راية الهدى، وسار الجيش الإسلامي بقيادة المصطفى ومعه زوجته السيدة عائشة التي وقعت القرعة عليها لمرافقته في هذه الغزوة؛ إذ كان ﷺ يجب أن ترافقه إحدى زوجاته في الغزوات؛ لتقوم على شؤونها الخاصة.
- واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وأعطى رايته لعلي بن أبي طالب، وخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسع من ناحية قديد. فاشتبكوا معهم، فلما نظر الأعراب الذين جاؤوا لنصرتهم إلى جيش المسلمين وعرفوا استماتتهم وثباتهم فروا على وجوههم يطلبون النجاة، ووقع القوم بشر كيدهم، فقتلوا منهم عشرة، وأسروا الباقين، وسبوا النساء والذراري، وغنموا

الأموال، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد.

وكانت من بين الأسرى ابنة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار سيد قومه واسمها جويرية عزيزة في قومها ف وقعت في سهم ثابت بن قيس الشماس الأنصاري.
وكانت فكاتبته في نفسها، وأتت إلى رسول الله تستعينه في فدائها، وقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لا يخفى عليك، و وقعت في سهم ثابت بن قيس، وقد جئتك أستعينك على كتابتي.

فقال لها رسول الله ﷺ: «أفهل أدلك على خير من ذلك؟». قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك، وأتزوجك». قالت: نعم يا رسول الله. فأعتقها وتزوجها. فلما بلغ المسلمين خبر زواجها من رسول الله، أرسلوا ما كان بأيديهم من الأسرى - وهم أكثر من مئة أهل بيت - بدون فداء كما جاء عن ابن هشام، فعمت بركتها، وكانت السبب في إسلامهم.

وفيه حدث ما يسمى بقصة الإفك. فعن ابن هشام قال: كان رسول الله إذا أراد سفراً قرع بين نسائه، فأيهما خرج سهمها أخرجها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بينهن كما كان يصنع. قالت السيدة عائشة: فخرج سهمي، فحملني رسول الله معه، وكنت نحيفة خفيفة، وقد أعد هودجاً لمن تكون معه من نسائه، فإذا أرادوا المسير يأتون بالجمل عليه الهودج إلى باب خيمة النبي ويتنحى الرجال، فأدخل الهودج، فيأخذ الرجال به فيضعونه على ظهر الجمل، ويشدون في الحبال. فلما فرغ رسول الله من غزوته تلك، وقفل راجعاً إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها، نزل منزلاً بات فيه بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسل من عنقي - وأنا لا أدري

- فلما رجعت إلى الرحل ذهبت التمسّه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني فالتمسته حتى وجدته.

وخلال تلك المدة ظن القوم الذين كانوا يرحّلون لي البعير أني كنت قد دخلت الهودج، فاحتملوه ووضعوه على البعير، وساروا به وهم لا يشكّون أني في داخله. فرجعت إلى المكان الذي كانوا فيه، فلم أجد أحداً، وظننت أن القوم سيفتقدونني ويرجعون إلي، فألقيت عليّ جلبابي، واضطجعت فيه على الأرض منتظرة رجوعهم. فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان السلمي - وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته - فبصر بي، فأقبل نحوي وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبي، فلما رأني عرفني، وقال: طعينة رسول الله؟ وسألني عن سبب تخلفي، فلم أجبه، فنزل عن بعيره وقدمه لي، وتخلف ناحية وقال: اركبي. فلما ركبت البعير أخذ بزمامه، وانطلق مسرعاً؛ رجاء أن يدرك المسلمين قبل وصولهم المدينة؛ فلم يدركهم، وكانوا قد أسرعوا في مسيرتهم يريدون المدينة؛ ليستريحوا من عناء السير، فدخلوا المدينة ولم يفتقدوني إلا بعد أن حطوا أثقالهم، ودخل صفوان المدينة في وضح النهار وأنا على ظهر بعيره، فأنزّلني، ودخلت بيتي، ولم أكن أظن أن أحداً يحتمل بي وبصفوان السلمي سوءاً.

فتحدث الناس عن عائشة بما يمس شرفها، ويسيء إلى سمعتها، وقد استغل المنافقون - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي - ما تحدث به الناس، فوجدوا فيه ما يشفي حقدهم على النبي محمد ﷺ، فروجوه بقصد إيذاء النبي، وإيقاع الفتنة بين المسلمين.

ولما وصل الأمر إلى ما وصل إليه جاء الفرج من السماء، ونزلت براءة أم المؤمنين السيدة عائشة مثلما نزل الإثم بعصبة الإفك، وتوعدهم بعذاب عظيم،

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْأَسْتِثْمِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

وفيه نزلت آية تحريم المسلمات على المشركين، قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (٢) أي لا يحل الله مؤمنة لكافر ولا نكاح مؤمن لمشركة. وهذا أدل دليل على أن الذي أوجب فرقة زينب ابنة رسول الله ﷺ من زوجها أبي العاص بن الربيع هو حكم الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ... ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣).

وفيه بعثه النبي ﷺ سرية زيد بن حارثة، وأخذة الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع، فاستجار بزینب. تقول كتب السير: إنه في جمادى الأولى من السنة نفسها بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلى العيص - موضع على أربع ليالٍ من المدينة - وكان قد بلغ النبي ﷺ أن عيراً لقريش فيه قد أقبلت من الشام، فبعث زيدا ومعه سبعون فارساً - وقيل: مئة وسبعون - ليتعرض لها،

(١) النور: ١١ - ١٧

(٢) المتحنة: ١٠.

(٣) المتحنة: ١٠.

فأدركها زيد، فأخذها وما فيها، وأسر من أسر، وقتل من قتل، وفر الباقون ومن بينهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب.

وبينا زينب في يقظتها قبيل الفجر وإذا بالباب يفتح في تردد وحذر، ثم يبدو منه فجأة أبو العاص بن الربيع، وقد شحب وجهه، وبان عليه القلق والإجهاد، فنادت: أبو العاص؟ قال: أبو العاص يا أعز من لي.

فرت إليه بنظرة متسائلة، دون أن يقوى لسانها على كلام، فهز الربيع رأسه أسفاً على سؤالها الصامت: كلا يا زينب لم آت يثرب مسلماً، وإنما خرجت تاجراً إلى الشام في أموال لي وأخرى لرجال من قريش فلقيتني سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة، فأصابوا كل ما معي، وأعجزتهم هارباً، حتى إذا جن الظلام جئتكم متخفياً مستجيراً. فأمسكت أنفاسها لحظة، فتناهى إلى سمعها صوت بلال يؤذن للصلاة: الله أكبر. فقامت ووقفت بالباب، وصاحت بأعلى صوتها: أيها الناس، إني أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما فرغ رسول الله من صلاته قال لأصحابه: «هل سمعتم ما سمعت؟». قالوا: نعم. فقال: «إنه يجير على المسلمين أديانهم، وقد أجرنا من أجات». ثم دخل على ابنته، وعندها ابن خالتها، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة: يا رسول الله، إن أبا العاص إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قد أجرته. فقال: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك؛ فأنت لا تحلين له».

ثم أتى المسجد وقال: إن أبا العاص بن الربيع منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا برده عليه فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم. فأجابوه: بل نرده يا رسول الله، فردوا عليه جميع ما أخذوه منه لم يفقد منه شيئاً. ولما حان موعد رحيله ودع رسول الله ﷺ ومضى، وقد اعتزم أمراً. فلما

بلغ مكة، فرحت به قريش؛ إذ رأته يعود بتجارته رابحة، وبأموالها مثمرة. فلما أَدَّى إلى كل ذي مال ماله، وقف ونادى: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، لقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وعاد راجعاً إلى المدينة، ودخل المسجد إلى النبي معلناً إسلامه، وسأله في استرجاع زينب، فردها عليه على النكاح الأول، وقيل: بنكاح جديد.

وفيه نزلت فريضة الحج، حيث نزل الأمين جبرئيل بهذه الآية على النبي محمد ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

عن عبد الله بن جبير عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «لما نزلت آية الحج جمع الرسول الناس وخطبهم، وقال: أيها الناس، إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء؛ إن شاء يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر، ولا نصيب له في شفاعتي، ولا ورود حوضي».

وفيه كاتب عليه السلام الملوك والأمراء للدخول في الإسلام، جاء في كتب السيرة أنه بعد أن اطمأن الرسول على سيرة الدعوة في شبه الجزيرة العربية، اتجه إلى إيصال الدعوة إلى الأمصار البعيدة؛ لأن الدين عند الله الإسلام، وهو دين البشر جميعاً، ولأن محمداً هو رسول للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢). فالإسلام

(١) آل عمران: ٩٦ - ٩٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

ليس ديناً خاصاً بالعرب، ولا ديناً خاصاً بالعجم، ولا هو دين للشرق أو للغرب، بل هو دين جميع الأمم والشعوب، دين الناس كافة. وما دام الإسلام ديناً للناس كافة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)، فيجب ألا يبقى محصوراً في نطاق ضيق لا يتعدى حدود جزيرة العرب، فاتخذ رسول الله ﷺ قراره بدعوة الملوك والحكام خارج الجزيرة للدخول في الإسلام، وعزم على بعث سفراء له يحملون تلك الدعوة، فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه: «محمد رسول الله». ليمهر به كتبه.

ثم اختار سفراء له لدى أولئك الملوك والحكام يحملون إليهم رسالات الدعوة للدخول في الإسلام. وكان كل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم، وهم: دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى عاهل الفرس، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن شمر الغساني ملك تخوم دمشق، وسليط بن عمرو العامري إلى هودة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وعلاء الحضرمي إلى المنذر بن ساوى التميمي حاكم البحرين، وعمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان، ومهاجر بن أمية المخزومي إلى الحارث الحميري ملك اليمن.

وحمل كل من هؤلاء الصحابة كتاب رسول الله ﷺ يبلغه إلى صاحبه، فكانوا أوائل الرسل الذين يحملون الإسلام إلى خارج جزيرة العرب. وفيه وقعت حوادث عديدة، فلم تكن الأجواء لتخلو من بعض المناوشات التي كانت بعض قبائل الأعراب تتجرأ على القيام بها طمعاً في الغنيمة والسلب.

(١) آل عمران: ١٩.

فسير لها رسول الإسلام السرايا لتأديبها وإبعادها عن طريق القوافل والناس، وعن شتى أنحاء الجزيرة التي أصبحت تحت نفوذه؛ وذلك لكي يكون تأديب تلك القبائل عبرة لغيرها، فتستقر الأوضاع، ويسود الأمان والاطمئنان في سائر ربوع المناطق: فأرسل سرية بقيادة علي بن أبي طالب عليه السلام إلى فدك في مئة رجل.

وسرية بقيادة عكاشة بن محض في أربعين رجلاً إلى الغمر.

وسرية بقيادة محمد بن سلمة في عشرة نفر إلى القرطاء.

وسرية بقيادة عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى ذي القصة.

وسرية بقيادة زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة.

وسرية أخرى بقيادة زيد بن حارثة إلى وادي القرى.

وسرية ثالثة بقيادة زيد بن حارثة إلى العيص.

وسرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.

وسرية بقيادة عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر.

أحداث العام السابع

وفيه وقعت غزوة خيبر. لقد عاد رسول الله ﷺ بعد غزوة الحديبية مطمئناً إلى ما هداه الله تعالى إليه، وما منّ عليه به من فتح مدين، فلم يمكث بالمدينة بعد عودته من غزوته تلك إلا بضعة عشرة ليلة؛ حيث هبط عليه الأمين جبرئيل يأمره بغزو يهود خيبر، ودكّ حصونهم؛ حتى تفلل هذه القاعدة التي هي من أخطر القواعد العسكرية على الإسلام.

وكان اليهود قد اجتمعوا بعد الهزائم التي لاحقتهم في حصون بخيبر، وكانت حصوناً منيعة، وبيوتاً متينة، أقيمت على سفوح الجبال ورؤوس الهضاب، وجمعوا من الثروات والأموال ما يجعلهم قادرين على الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية والحيلولة دون انتشارها. وكانت تلك الحصون موزعة في مناطق ثلاث: «النطاة، الشق، الكتيبة»، وفي كل منطقة أقيمت حصون ثلاثة:

ففي منطقة (النطاة) حصن الناعم، وحصن الصعب بن معاد، وحصن الزبير، ويقال له حصن فلة.

وفي منطقة الشق حصن أبي، وحصن البري، وحصن الحقيق.

وفي منطقة الكتيبة حصن الوطيح، وحصن السلام، وحصن القموص، ويقال

له حصن نزار.

ولقد ساعد على إقامة تلك الحصون المنيعة، وانتشار تلك البيوت المتينة الواحة الكبيرة الخصبة ذات المياه الوفيرة، والزرور والنخيل الكثيرة؛ مما جعل أهلها يتفرقون في حصون منيعة، وبيوت متينة. وهي حصون أقاموها خصيصاً لتشكّل

معاقل لهم تمنع عنهم العادين، وترد الغازين.

وقد أمكنهم - بفضل ما منحهم طبيعة تلك البلاد من منعة وخبرات - أن يتدربوا على فنون الحرب، ويتمرسوا على ضروب القتال؛ حتى أصبحوا أقوى بني يهود في جزيرة العرب، وأعلاهم شأنًا، وأوفرهم مالاً وسلاحاً، وأمنعهم حصوناً، وأكثرهم عدداً وعدة. فكان عددهم على ما جاء في بعض الروايات ما يقارب من عشرين ألف نسمة، منهم الأبطال والصناديد والشجعان؛ مما جعلهم قادرين على الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، والكيد للمسلمين، وينفقون الأموال للوثنيين، ويوغرون صدورهم بالحق على الإسلام ونبيه، ويقنعونهم بإعلان الحرب ضده، ويوهمونهم أنه يقيم سلطاناً قد يهدد كيانهم وعروشهم بالزوال.

إذن فإن صالح الدعوة يستوجب القضاء على شوكة يهود خيبر، ودك حصونهم، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك ببلاد العرب قائمة أبداً. فأمر النبي محمد ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لغزو خيبر، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وخرج من المدينة في ألف وستمئة من المسلمين فوصل إليهم ليلاً فحاصروهم.

وفيما كان الناس يخرجون من بيوتهم مبكرين على عادتهم إلى مزارعهم فوجئوا بجيش المسلمين على أبواب مدينتهم، فولوا راجعين يصرخون: هذا محمد قد جاءكم بأصحابه. فانتبه الناس مذعورين، فأسرعوا يجمعون النساء والأولاد، ويجمعون الأموال والذخائر في حصون الكتيبة، بينما يستعدّ مقاتليهم في حصون النطا، فعقدوا لواء القيادة لأحد زعمائهم، وهو سلام بن مشكم.

وبينما كان المسلمون في حيرة من أمرهم لا يعرفون الحصن الذي تجمع العدو

فيه، ليهاجموه، إذ رأوا اليهود يعتلون حصن الناعم في منطقة النطا، فاندفع المسلمون يريدون اقتحامه إلا إن اليهود قد أعدوا العدة، فراحوا يرمونهم بالسهم والنبال والحجارة، فتقهقر المسلمون.

ومكثوا أياماً فلا المسلمون قدروا على فتح الحصن، ولا اليهود قدروا على طرد المسلمين، ودامت تلك الحال سبعة أيام، فرأى المسلمون أنهم قد أجهدوا، وقل معهم الزاد؛ مما قد يؤثر على صمودهم. وكان رسول الله ﷺ يعطي كل يوم لواءه لأحد الصحابة كي يقود المسلمين إلى فتح الحصن، فيرجع ومن معه منهوكي القوى.

يقول ابن إسحاق: أعطى النبي لواءه في اليوم الأول لأبي بكر، فذهب وقاتل قتالاً شديداً وعاد ولم يفعل شيئاً. فأعطى الراية في اليوم الثاني لعمر بن الخطاب فقاتل قتالاً شديداً وعاد ولم يفعل شيئاً. فصاح النبي ﷺ بصوت رفيع: «والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله عليه».

فبات الناس يتفكرون ليلتهم، من يعطي الراية غداً لفتح الله على يديه، ويكون الفائز بحب الله وحب رسوله؟ وكان علي بن أبي طالب أرمم العين، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، وكل منهم يرجو أن يعطاها. وإذا بالنبي الأكرم ينادي: «أين علي بن أبي طالب؟». فقالوا له: يا رسول الله، إنه أرمم العين. فقال ﷺ: «ادعوه لي». فجاءوا به يقاد، وأجلسوه بين يديه، فمسح رسول الإسلام بيده على عينيه بشيء من ريقه، ورقاه بآيات من القرآن الكريم، فبرئت من ساعتها وكان لم يكن به رمد ببركة النبي محمد ﷺ. وكان حسان بن ثابت يرقب ذلك الحنان، فينفث أثره على مشاعره، فيصرخ قائلاً:

وكان علي أرمم العين لم يجد دواء فلما لم يحس مداويا
شفاه رسول الله منه بريقه فبورك مرقياً وبورك راقياً
وقال سأعطي رايتي اليوم صارماً كمياً محبباً للرسول موالياً
يحب إلهي والإله يحبه به يفتح الله الحصون الأوابيا
فأصفي بها دون البرية كلها علياً وسماه الوزير المؤاخيا

فأعطاه رايته البيضاء، وقال له: «امضِ فإن الله سيفتح على يدك؟».

فأخذ علي الراية، وخرج ومعه المسلمون إلى لقاء المشركين، فاعترضه فارس من أبطالهم يقال له الحارث أخو مرحب، وكان من شجعانهم المعروفين، ومنع علياً من التقدم، فشدّ علي عليه، ولم يمهله دون أن ضربه بسيفه على عاتقه خر علي إثرها صريعاً يخور في دمه.

فنظر مرحب إلى أخيه الحارث صريعاً، فغضب وخرج من الحصن كالجبل العظيم، وعليه مغفر وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، يتبجح بشجاعته، وهو يرتجز ويقول:

أنا الذي سمتني أمي مرحباً شاكي السلاح بطل مجرباً
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تلهب

فتلقاه علي بن أبي طالب، وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدر ضرغام آجام وليث قسوره
على الأعادي مثل ربح صرصره أضرب بالسيف رقاب الكفره

وحمل عليه فتجاولا وتطاولا، وثار بينهما الغبار، وعلا القسطل، فاختلف هو وعلي بضربتين، فضرب مرحب علياً بالسيف فاتقاه بترسه فوقع الترس من يده، فعاجله الإمام بضربة على رأسه فقد الحجر والمغفر ورأسه، ونزل السيف إلى

أضراسه، وانجدل صريعاً يخور في دمه، وحمل على قوم اليهود ينشر الموت بينهم، فلما كثر القتل فيهم فروا منهزمين، ودخلوا حصنهم، وأغلقوا عليهم الباب، وجعلوا يقذفون المسلمين بالنبل والحجارة من أعلى الحصن.

ولم يكن عند الإمام علي ترس يتلقى به النبل، فأقبل إلى باب الحصن وكان الباب من حجر منقور في صخر، والباب من الحجر في ذلك الصخر المنقور كأنه حجر رحي، وفي وسطه ثقب، يقول اليعقوبي: وطول الباب أربعة أذرع في عرض ذراعين في سمك ذراع، وكان لا يفتحه إلا أربعون رجلاً، ولا يغلقه إلا أربعون رجلاً. وقول ابن أبي الحديد: فأدخل علي يده في ذلك الثقب الذي في وسط الحجر، وهزه فاهتز الحصن بقدره الله، وانهار الصخر المنقور، وصار الباب في يد علي، فجعله ترساً له وحمل على القوم يقاتلهم، حتى فتح الله على يده، واستطاع أن يبعدهم عن المدخل. يقول بن أبي الحديد في قصيدته:

يا قالع الباب التي عن فتحها عجزت أكف أربعون وأربع

وينبري الشاعر الموهوب الأزري ليقول في رائعته التي وصف بها هذا الحادث

الخطير:

وله يوم خبير فتكات	كبرت منظراً على من رآها
يوم قال النبي إنني لأعطي	رايتي ليثها وحامي حماها
فاستطالت أعناق كل فريق	ليروا أي ماجد يعطاها
فدعا أين وارث العلم والحلـ	م مجير الأيام من بأسها
أين ذو النجدة الذي لو دعتـه	في الثريا مرعوبة لبأها
فأتاه الوصي أرمـد عين	فسقاه من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولت	عنه علماً بأنه أمضاها

وبرى مرجباً بكف اقتدار أقوياء الأقدار من ضعفها
ودحا بابها بقوة بأس لو حمتها الأفلاك منه دحاها

يقول المؤلفون في السيرة: وكان القوم قد خندقوا حول حصنهم خندقاً يتعذر على المرء اجتيازه؛ مما أوقف زحف المسلمين، فهم لا يجروون على النزول إليه، ولا يستطيعون تجاوزه. يقول هيكل في حياة محمد: فأخذ علي الباب، ووضع جساً على الخندق، فقصر الباب، فأتمه علي بزنده، وعبر الجيش الإسلامي على زند علي ثم دحا بالباب أربعين ذراعاً إلى الخلف، وقد تكلف رده إلى محله أربعين رجلاً، فما أطاقوه إلا بعد مشقة. وفيه يقول الشاعر:

إن امرأ حمل الرتاج بخير يوم اليهود بقدره لمؤيد
حمل الرتاج رتاج باب قموصها والمسلمون وأهل خير حشد
فرمى به ولقد تكلف رده سبعون شخصاً كلهم متشدد
ردوه بعد تكلف ومشقة ومقال بعضهم لبعض ردّوا

وهجموا على اليهود يطاردونهم من حصن إلى حصن حتى انتهوا إلى حصن الوطيح وحصن السلام وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيها الذراري والنساء والأموال.

ولما أحس اليهود بأنه أسقط في أيديهم، وأن المسلمين سيأسرونهم ويقتلونهم إن هم ظلوا على موقفهم، طلبوا الصلح من النبي محمد ﷺ، فأجابهم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم وأسر نساءهم. لكنه أبقى رجالهم يعملون في الأرض على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم.

وكانت صفية بنت رئيسهم حبي بن أخطب مع نسوة من اليهود داخل حصن القموص، وهي زوج لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما أسرهن علي أرسلهن

مع بلال إلى رسول الله، فمر بهن بلال على قتلاهن، فلما نظرت صفية إلى أبيها وزوجها قد صرعا، لطمت وجهها، وحثت التراب على رأسها، حتى أثر ذلك على وجهها. ولما اصطفاها رسول الله رأى في وجهها أثراً، فسألها عن السبب، فأخبرته بما كان من بلال، فغضب رسول الله ﷺ، وقال لبلال: «نزعت الرحمة من قلبك؛ تمر بهن على قتلاهن؟».

وفي رواية أن هذا الأثر لرؤيا رأتها في منامها وهي عروس بكنانة بن الربيع، رأت أن قمر السماء قد سقط في حجرها، فقصت رؤياها على زوجها، فغضب ولطم وجهها، فخضرت عينها منها، وقال لها: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً أن يكون لك بعلاً.

وهكذا اطمأن الرسول الكريم، واطمأن المسلمون بذلك الفتح العظيم. وفيه أهدت زينب بنت الحارث اليهودية - ابنة أخي مرحب، وزوجة سلام ابن مشكم - إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية مسمومة في منزل صفية بنت حيي ابن أخطب، وزعمت أنه نذر عليها؛ لانتصار النبي على يهود خيبر. وقد سألت: أي عضو أحب إلى رسول الله؟ فقبل لها: الذراع. فأكثر فيها من السم، فجاء النبي ﷺ - ومعه بعض أصحابه، ومنهم بشر بن البراء بن معرور - فقدمت إليه صفية تلك الشاة المصلية، فتناول الرسول ﷺ قطعة من ذراع تلك الشاة ولاكها، فلفظها، وقال: «ارفعوا أيديكم؛ فإن هذا العظم يخبرني أنه مسموم».

أما بشر بن البراء فأخذ لقمة ومضغها، فأثر عليه السم، ومات. فدعا النبي بها وقال: «ما حملك على ذلك؟». قالت: لقد بلغت من قومي ما لا يخفى عليك، فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبره العظم بذلك. فأراد رسول الله قتلها ببشر، ولكن عاد وتجاوز عنها، فكانت أحد الأسباب في مرضه

ووفاته؛ فقد سمع عنه يقول: «لقد قطعت أبهري الأكلة التي أكلتها من الشاة المصلية يوم خير».

وفيه أهدي المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبي محمد هدايا كثيرة مع رسالة - جواباً على رسالته التي أرسلها إليه - يقول فيها: قد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، ومطية لتركبها والسلام. وكانت تانك الجاريتان اللتان أهداهما المقوقس إلى النبي محمد ﷺ مارية بنت شمعون لأب قبطي وأم مسيحية رومية، وأختها سيرين. وقد ولدتا في قرية يقال لها حفن قريبة من بلدة أنصنا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل. وقد انتقلتا في مطلع شباهما إلى قصر المقوقس وعاشتا فيه، حتى جاء حاطب موفداً من النبي محمد ﷺ، فبعث بهما المقوقس إلى النبي ﷺ. فاعتق الرسول الأختين، فتزوج من مارية، وتزوج حسان بن ثابت من أختها سيرين. وقد ولدت مارية للنبي ابنه إبراهيم، وولدت سيرين لحسان ابنه عبد الرحمن. وفيه حدثت سرية ذات السلاسل. يقول علي بن إبراهيم في تفسيره: إن جماعة من المشركين اجتمعوا بوادي الرمل، واتفقوا وتحالفوا على ألا يقروا حتى يقتلوا النبي محمد وعلياً.

وجاءوا ونزلوا بوادي السلاسل - وهو اسم ماء يقال له السلسل، فسمي المكان باسمه، وسميت الواقعة باسم المكان - فنزل الأمين جبرئيل ﷺ على النبي محمد ﷺ، وأخبره بأمرهم، وأمره أن يخرج إليهم من يفرقهم.

فأرسل إليهم أبا بكر في سبعمئة رجل من المسلمين فمضى أبو بكر بمن معه من المسلمين حتى قارب أرضهم - وكانت كثيرة الأحجار، والقوم يقيمون في بطن الوادي - فلما انتهى بمن معه إلى الوادي خرجوا إليه، وقتلوا من المسلمين جماعة،

وانهزم بمن بقي معه.

فلما عاد إلى المدينة أرسل النبي عمر بن الخطاب إليهم فكان نصيبه كنصيب صاحبه، فقال عمرو بن العاص ابعثني يا رسول الله فإن الحرب خدعة ولعلي أخدعهم. فأرسله رسول الله ﷺ مع جماعة من المسلمين، فلما وصلوا الوادي خرجوا إليهم فقتلوا منهم جماعة، وفرّ مع من بقي من المسلمين.

فاغتم رسول الله ﷺ، ولم يجد بداً من أن يبعث علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب، وقال: «اخرج إليهم». وضم إليه جماعة من المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وخرج علي وشيعة النبي ﷺ إلى خارج المدينة.

فمضى علي بمن معه نحو العراق على غير الطريق المؤدية إليهم، حتى ظن من معه أنه يريد غيرهم، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فلما عرف أنه قرب منهم انحرف نحوهم وبقي مرابطاً في مكانه حتى جاء الفجر، وهاجم القوم على غفلة منهم، فأمكنه الله من السيطرة عليهم، وقتل سبعة من أبطالهم الأشداء، وتم الفتح على يده، وغنموا أموالهم وأرزاقهم. وجمع علي الأسرى، وشدهم بالحبال مكتفين كأنهم في السلاسل، وساقوهم أسرى إلى المدينة؛ فسميت غزوة ذات السلاسل.

ونزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ وبشره بالفتح، وتلا عليه سورة (العاديات) بهذه المناسبة، فلما كان الغداة خرج النبي محمد ﷺ وصلى بالناس صلاة الغداة، وقرأ فيها ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾^(١) فلما فرغ من صلاته قال بعض الصحابة: يا رسول الله، هذه سورة لم نعرفها. فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إن علياً ظفر بأعداء الله، وبشرني بذلك جبرئيل هذه الليلة وأنزل علي هذه السورة».

(١) العاديات: ١.

وبعد ثلاثة أيام قدم علي بالغنائم والأسرى، وهي من أعظم الغزوات التي غزاها علي. ولما قرب علي من المدينة، خرج النبي ومعه المسلمون في استقباله، فلما رآه علي عليه السلام ترجل عن فرسه، فقال له النبي ﷺ: «اركب يا علي؛ فإن الله ورسوله عنك راضيان». فبكى علي فرحاً، فقال النبي ﷺ: «لولا أني أشفق أن تقول فيك طائفة من أمتي ما قالت النصراني في المسيح بن مريم لقلت فيك اليوم مقالة لا تمر على ملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة».

وفي هذه الغزوة يقول السيد الحميري:

وفي ذات السلاسل من سليم	غداة أتاهم الموت المبير
وقد هزموا أبا حفص وعمراً	وصاحبه مراراً فاستطبروا
وقد قتلوا من الأنصار رهطاً	فحل النذر أو وجبت نذور
أزار الموت مشيخة ضخاماً	جماجمة تسدّ بها الثغور

وفيه تم زواج النبي ﷺ من برة، فقد تزوج الرسول ﷺ برة بنت الحارث ابن حزن الهلالية. وكان أبوها أحد أشرف مكة، وأمها هند بنت عوف؛ فهي سيدة اشتهرت بالفضل والنسب الرفيع، وهي خالة خالد بن الوليد، وشقيقة أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأول امرأة آمنت بالرسول ﷺ بعد أم المؤمنين خديجة بنت خويلد. وكانت برة إحدى أخوات خمس: أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، لبابة الكبرى أم بني العباس، وأختها لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وأختها سلمى وأسماء بنت عميس. وكانت برة في الجاهلية عند مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، فطلبت منه أن تؤمن ويؤمن معها، ولكنه أبى عليها، حتى انتهى بهما الحال إلى النزاع والافتراق. فذهبت تعيش عند شقيقتها أم الفضل، حتى كانت عمرة القضاء، فرأت من أحوال المسلمين ما أعجبها، ومن شأن النبي ﷺ ما جعل قلبها يتعلق به.

فأفضت برة إلى شقيقتها أم الفضل بمكنون قلبها، ورجتها أن تطلب من زوجها العباس ليحدث النبي محمد ﷺ بأمنيتها من الزواج منه؛ لتحظى بالمكانة الرفيعة والشرف العظيم؛ إذ ستصبح زوجة لسيد المرسلين وأماً للمؤمنين.

فلم يتردد العباس في عرض ما توده برة على ابن أخيه النبي محمد ﷺ، فتزوجها رسول الله، وأبدل اسمها من برة إلى ميمونة؛ لأنه رأى في زواجه منها مناسبة ميمونة عليه وعلى المسلمين؛ إذ أمكنهم الله من دخول مكة، وزيارة المسجد الحرام.

وفيه رجوع جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين من هجرتهم من الحبشة. يقول أهل الروايات: رجع جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين من الحبشة سنة سبع من الهجرة، وصادف رجوعه رجوع النبي ﷺ من فتح خيبر، فسر النبي بقدومه، فضمه إلى صدره، وقبل ما بين عينيه، وقال: «ما أدري أنا بأيهما أسر؛ بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر».

ثم قال - كما روي عن ابن عباس -: «يا جعفر، إلاً أعطيك؟ إلاً أمنحك؟ إلاً أحبوك؟». قال: أمرك يا رسول الله. وظن القوم أنه يعطيه ذهباً وفضة من غنائم خيبر، وإذا به يعلمه صلاة التسابيح، وهي صلاة أربع ركعات بتشهدين وتسليمتين، والقراءة في الأولى بالحمد والزلزلة، والثانية بالحمد والعاديات، والثالثة بالحمد والنصر، والرابعة بالحمد والتوحيد، وإذا فرغ من القراءة في الركعة الأولى قال خمس عشرة مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم يركع ويقول في ركوعه بعد الذكر مثل ذلك عشر مرات، ثم يرفع رأسه ويقول كذلك عشر مرات، ثم يسجد ويقول بعد الذكر عشر مرات، ثم يرفع رأسه من السجود ويجلس ويقول كذلك عشر مرات، ثم يعود إلى السجدة ويقول كذلك

عشر مرات، ويرفع رأسه ويجلس ويقول عشر مرات. ثم يقوم إلى الركعة الثانية، فيصلي الثانية مثل ذلك، ثم يتشهد ويسلم ثم يقوم ويصلي ركعتين أخريين بهذا الترتيب. وتسمى صلاة الحبوة، وصلاة جعفر.

وفيه كانت عمرة القضاء. فقد مرت الأيام بعد معاهدة الحديبية وغزوة خيبر يمناً وبركة على الدعوة الإسلامية؛ إذ حفلت تلك الشهور التي أقامها بعدها رسول الله في المدينة بالأعمال المثمرة، فبعد أن أمن مقاتلة قريش، وغدر اليهود انصرف إلى البناء الداخلي في مجتمعه، فأخذ يعزز قواعد التعامل السوي بين الناس، ويسن لهم الأحكام وفق وحي السماء، ويستقبل الوافدين، ويبعث سفراءه وموفديه إلى الأباطرة والملوك والأمراء يدعوهم إلى دين التوحيد: دين الإسلام العظيم.

وبانقضاء تلك الشهور كان الحول قد دار على عهد الحديبية، وحان الموعد لخروج المسلمين حاجين إلى بيت الله الحرام، كما قضى بذلك العهد، وتم عليه الاتفاق بينه وبين قريش في الحديبية. فما أن أهل شهر ذي القعدة من السنة السابعة حتى نادى منادي الرسول في الناس أن يتجهزوا للسفر إلى مكة، فأسرع الناس بلهفة إلى تلبية هذا الطلب، فاستخلف النبي على المدينة أبا ذر الغفاري، وخرج من المدينة في ألفين من المهاجرين والأنصار، ووجهتهم زيارة بيت الله الحرام فلا قتال ولا حرب، بل البيت الحرام وحده مقصدهم. ولما انتهى إلى ذي الحليفة أحرم للحج هو وأصحابه، وساق معه ستين بدنة.

ولما وصل مكة خرج زعماءها إلى رؤوس الجبال والتلال المجاورة ينظرون إلى ما يفعله محمد وأصحابه، وقد دعاهم إلى ذلك مشاعر الحقد والكراهية؛ فهم لا يطيقون النظر إلى النبي محمد وأصحابه الضعاف العجاف، وكانت قريش تظن أن

النبي محمداً في جهد وضيق وعسرة.

فلما دخل رسول الله وأصحابه مكة رأى أهلها رجالاً أقوياء أشداء يحوطون بمحمد بأجسامهم وقلوبهم وهو على ناقته القصوى يسير والركب متهادياً في أرجاء مكة، وقد أخذ بزمام ناقته عبد الله بن رواحة، وقد أخذته نشوة الفرح، ويملؤه الحماس، ويندفع مرتجراً:

خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في سبيله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	بأن خير القتل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقبيله	إني رأيت الحق في قبوله
اليوم نضربكم على تأويله	كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

فجعلت قريش تتطلع إلى هذا الطريد الذي خرج من مكة مطروداً قبل سبع سنوات وقد عاد إليها اليوم ودخلها كما يدخل الفاتح المنتصر.

ولما انكشف لهم البيت، انفرجت شفاه المسلمين تعج بالتلبية لله العلي القدير الذي منّ عليهم بالعمرة: «لبيك اللهم لبيك، لا إله إلا الله وحده وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

فتجاوب الوادي من جميع جهاته بأصداً تلك الأصوات، فارتجفت قلوب أولئك الذين تسنموا رؤوس الجبال والمرتفعات، وتملكهم الحقد والغضب، فلما أنهى النبي والمسلمون الطواف انتقل بهم إلى السعي بين الصفا والمروة، وما كادوا ينتهون حتى حلق النبي رأسه، وحلق أصحابه متممين بذلك فرائض العمرة.

وخلال الأيام الثلاثة كان النبي محمد ﷺ يؤدي فريضة الصلاة في أوقاتها، وخلفه ألفان من المسلمين، وتتردد في أرجاء مكة تلك الكلمات الخالدة: «الله

أكبر... حي علي الصلاة... حي علي الفلاح».

فترتجف أوصال قريش، وترتعد فرائصها لهذا النداء، فيضع بعضهم أصابعهم في آذانهم يسدونها، ويغطي آخرون وجوههم يجربونها. إلا إن قريشاً احتملت آلامها على مضض، واعتصرت حقدتها على نكد حتى تنقضي الأيام الثلاثة لإقامة المسلمين في مكة طبقاً لما نصت عليه معاهدة الحديبية، فلاذت بالسكون، ولم تحاول التحرش بالمسلمين.

ويدعي جماعة من المفسرين أن في هذه العمرة نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١).

أحداث العام الثامن

ففيه حدثت غزوة مؤتة، لقد اختلف المؤرخون في الدوافع إلى هذه الغزوة، فقال بعضهم: إن الدافع إليها الانتقام للحرث بن عمير الأزدي، وكان وجهه رسول الله ﷺ بكتاب إلى ملك بصرى الشام، فلما نزل في طريقه بمؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، فقتله شرحبيل الغساني؛ لأنه رسول النبي محمد ﷺ، وهو من أمراء قيصر على الشام.

وقال آخرون: إن النبي محمد ﷺ بعث بخمسة عشر رجلاً من المسلمين إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون بدعوة الإسلام إلا إن جزاءهم على دعوتهم هذه كان القتل الذي لم ينبج منه إلا رئيسهم إذ حالفه الحظ، وتمكّن من الفرار من أيدي أولئك الناس، وعاد إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ؛ مما جعل النبي ﷺ يقدم على إجراء خطة عسكرية في بلاد الشام، فأعد في شهر جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة ثلاثة آلاف من خيرة أبطال المسلمين، وعيّن ثلاثة من الصفوة بين أصحابه يتولون قيادته على التعاقب، وأمرهم بالمسير ومقاتلة هرقل ملك الروم ومن معه من الأعراب في عقر داره.

وقد جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، ومن بعده لزيد بن حارثة، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة. وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أصيب الثلاثة. ولقد كان رسول الله ﷺ يعرف أن تلك الحملة من جيشه سوف تلاقي الأهوال والصعاب، وسوف تجد من الشدة ما لم يعهدوا من قبل، ولذلك قال لهم: «إن أصيب جعفر بن أبي طالب فزيد بن حارثة على الناس، وإن أصيب زيد فبعد

الله بن رواحة على الناس، وإن أصيب عبد الله فليرتض المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً».

فاستعد الجيش للمسير في أول غزوة خارج حدود الجزيرة العربية، فعقد الرسول لواء أبيض، ودفعه إلى جعفر الذي لم يسبق له أن يتولى قيادة من قبل، وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعوا من هنالك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا فليستعينوا عليهم بالله، وليقاتلوهم.

يقول الواقدي: وانطلق هذا الجيش، وخرج رسول الله ﷺ مع من بقي في المدينة لوداع الجيش، ومشى معهم حتى بلغ ثنية الوداع، ووقف عندهم يوصيهم، ويقول في وصيته: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا مكفوفاً ولا كبيراً، ولا منعزلاً بصومعته، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء».

وانتهى النبي من وصيته، وانطلق الجيش الإسلامي حتى بلغ معان - من أرض الشام - ونزلوا بها ليلتهم، فلما أصبحوا مضوا على هدى الله حتى بلغوا تخوم البلقاء، ونزلوا مؤتة - وهي قرية من قرى البلقاء على حدود الشام من ناحية الحجاز على مرحلتين من بيت المقدس شرقي البحر الميت - وهم يفكرون أن يأخذوا القوم على غرتهم، ولكن أخبارهم قد سبقتهم إلى العدو. فأخذ شرحبيل وهرقل يجمعون الجيوش إلى حرب المسلمين، حتى جمعوا مئتي ألف مقاتل من العرب والإغريق مقابل ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، وهناك جرت معارك ضارية ليس فيها تكافؤ في العدد والعتاد: ثلاثة آلاف يواجهون مئتي ألف، وأين؟ في أراضي بلادهم التي يخبرونها جيداً، والتي أجروا فيها معارك كثيرة مع أعدائهم

الفرس، ودارت رحى الحرب حامية الوطيس في أعنف قتال وأشدّه.
ويتقدم جعفر بن أبي طالب الشاب الجميل الوسيم الذي كان في الثالثة والثلاثين من عمره وفي يده لواء الإسلام بقلب شجاع وإقدام بطولي قد ورث الجرأة من بيتٍ دعائمهُ المجد، ولبناته الفضائل، وظلُّه الود والرحمة؛ فهو ابن أبي طالب بن عبد مناف بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد أول هاشمية ولدت لهاشمي عايش النبي ﷺ، ورأى مكانته عند والده أبي طالب. فلا عجب أن تمتع جعفر بقوة كانت قبساً من نور النبوة، كما يدل عليها قول النبي ﷺ لجعفر: «أشبهه خلقتك خلقي، فأنت مني ومن شجرتي».

يقول بعض من حضر غزوة مؤتة: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب عندما حمى الوطيس وقد نزل عن فرس له شقراء وعقرها، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقّر فرسه حتى لا يفر، وحمل على القوم راجلاً وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها

عليّ إن لاقيتها خرابها

فأحاطوا به من كل جانب فضربه رجل رومي بالسيف على يمينه فقطعها، فأخذ السيف بيساره فقطعها، فاحتضن اللواء بعضديه ولم يتركه يسقط فينهزم المسلمون، فضربه آخر بالسيف على رأسه، فخر صريعاً وسقط اللواء.

يقول الراوي: فوجد في مقدم بدنه تسعين جرحاً ما بين طعنة برمخ، وضربة بسيف، وقد عوّضه الله عن يديه جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، فسمي جعفرًا الطيار.

هوى جعفر - سلام الله عليه - في أرض المعركة، فاندفعت روحه ترفرف نحو

ذرا المجد، لتعبر في أجواء المدينة تحمل وصية الشهيد، وهو يقول: إلا بلغني ابن عمي رسول الله بأني وفيت في مؤتة.

نعم، وأي الوفاء ذلك الذي يدفعك إلا تتخلى عن لواء رسول الله حتى بلغ بك الأمر أن تحضنه في عضدين قطعت يمانها واليسرى منها؟ فسلام الله عليك يا ذا الجناحين، وصاحب المهجرتين، والمدافع عن لواء المؤمنين يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً.

فلما قُتل، أخذ اللواء زيد بن حارثة، وحمل على القوم بمن معه من المسلمين يقاتل قتال المستميت الذي لا يطمع في الحياة أبداً، وظل يقاتل حتى قتل، وسقط اللواء، فأخذه عبد الله بن رواحة، فاعتراه بعض التردد والخوف، ولكنه سرعاً ما جعل يخاطب نفسه ويقول:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت إن تفعلني فعلهما هديت
وحمل على القوم مطمئناً غير جزع، وما زال يقاتل حتى قتل، وسقط اللواء، ولحق يزيد وجعفر إلى الخلود. فهؤلاء قادة الجيش الإسلامي في مؤتة، وفيهم يقول حسان بن ثابت في قصيدة له:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
فصار مع المستشهدين ثوابه جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد وفاء وأمرأ حازماً حين يأمر
فما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم صدق لا ترام ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير
هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وفيه حصل فتح مكة، فلقد التزم النبي محمد ﷺ والمسلمون بكل بنود

الاتفاق التي اشتمل عليها كتاب الصلح بينه وبين قريش يوم الحديبية، ولكن قريشاً قد استخفت بقوة المسلمين بعد معركة مؤتة، وجرها هذا الاستخفاف إلى ارتكاب حماقة أصبح بعدها عهد المودعة لاغياً؛ لأن عهد الحديبية أعطى الحق لكل من أراد من العرب أن يدخل في عهد النبي محمد أن يدخل، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش فليدخل.

وكان بين بني بكر وخزاعة أحقاد قديمة، وحروب متواصلة، فلما تم صلح الحديبية دخلت خزاعة في عهد النبي محمد، كما كانت حليفة لجدّه عبد المطلب من قبل، ودخلت بنو بكر في عهد قريش. فلما كانت معركة مؤتة، ظن البكريون أن المسلمين لم يعد في مقدورهم أن ينصروا من دخل في عهدهم كخزاعة، فاستعان البكريون ببعض حلفائهم من قريش، وهجموا على الخزاعيين وهم على ماء لهم يدعى الوتير، فقتلوا منهم عشرين رجلاً، فذهبوا يستنجدون بمحمد، فلما دخلوا على الرسول أنشد عمرو بن سالم الخزاعي:

لا هم إنني ناشد محمدا حلف أينا وأيه الأتلا
 إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا

فغضب النبي ﷺ، وقال: «لا نصرت إن لم أنصر خزاعة فيما انتصر منه لنفسي». وقام من ساعته، وندب المسلمين في المدينة وخارجها لأن يكونوا على أهبة الاستعداد عندما يدعوهم إلى الخروج معه من غير أن يعرفوا وجهته التي يريد، حفاظاً على البيت الحرام وقدسيته من أن تراق فيه الدماء، وقد سأل الله أن يعمي أخباره على قريش، ولكن مع هذا التحفظ الشديد وتكتمه عن الناس ما عدا بعض أصحابه سرى نبأ سيرته إلى حاطب بن أبي بلتعة - وكان من المسلمين -

فكتب إلى قريش يخبرهم بالذي عزم عليه رسول الله ﷺ، وأعطى الكتاب لامرأة من مزينة وردت المدينة تستميح الناس وتستبرهم، وأعطاهم مبلغاً من المال مقابل إيصال كتابه إلى قوم من قريش ساهم لها، فأخذت الكتاب ووضعتها في عقيصتها وخرجت باتجاه مكة.

فنزّل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ يخبره بما صنع حاطب، فاستدعى علي بن أبي طالب وأخبره بالأمر، وأمره أن يلحق بالمرأة ويأخذ الكتاب منها، وأن يأخذ الزبير معه، وخرج الصحابيّان يبحثان عن المرأة، فأدركاها بذي الحليفة، فسبق إليها الزبير فسألها عن الكتاب فأنكرت، وحلفت أن لا شيء عندها، فقال: يا علي، ما أرى أن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله ﷺ نخبره ببراءتها. فقال علي: «ويحك يا زبير، رسول الله يقول: إن معها كتاباً، ويأمرني بأخذه، وتقول أنت: إنه لا كتاب معها؟». ثم اخترط سيفه، وتقدم إليها وقال لها: «أما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأضربن عنقك بسيفي هذا». فحاولت أن تراوغ معه كما فعلت مع صاحبه، إلا إنها رأت عنده من الإصرار؛ ما جعلها تثق أنه متأكد مما معها، فقالت: أعرض بوجهك عني. ففعل، فأخرجته من عقيصتها، ودفعته، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ.

فجمع النبي المسلمون حتى امتلأ بهم المسجد، فصعد المنبر وقال: «أيها الناس، لقد كنت سألت الله أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلاً منكم كتب إليهم كتاباً يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب قبل أن يفضحه الوحي». فقام حاطب - وهو يرتعد كالسعفة في مهب الريح - وقال: أنا صاحب الكتاب يا رسول الله، والله ما أحدثت نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني. قال: «فما الذي حملك على ذلك؟». قال: يا رسول الله، إن لي أهلاً بمكة، وليس لي بها أهل ولا عشيرة،

فأردت أن يكون كتابي كفاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم. فقال ﷺ: «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به».

وانتهت حادثة حاطب بالعفو عنه، فقد شفعت له أعماله وتضحياته في سبيل الدعوة، وعزم الرسول الأعظم على المسير من المدينة، وخرج لعشرٍ خلون من شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل.

واستخلف على المدينة أبا لبابة، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد، وأعطى رايته إلى ابن عمه علي بن أبي طالب، ودفع لكل رئيس قبيلة لواء. فلما بلغ السقيا لقيه عمه العباس بن عبد المطلب - وكان قد خرج من مكة - ومعه مخرمة بن نوفل يريدان المدينة، وهما يظنان أن النبي لا يزال فيها، فمضى العباس ورفيقه مع النبي وأرسل العباس أهله وثقله إلى المدينة. وسار جيش المسلمين بقيادة قائده الأعظم النبي محمد ﷺ، وقصده أن يباغت قريشاً قبل أن يعلموا، حتى بلغ مرّ الظهران، وهناك أمر القائد العظيم بالنزول، وكان الوقت عشياً فطلب إلى الناس أن يشعل كل واحد ناراً، وكانوا عشرة آلاف، فأوقد كل واحد ناراً تلبية لأمر رسول الله ﷺ.

ولابدّ أن نشير هنا إلى أنه ليس يسيراً علينا أن نتخيل عشرة آلاف نار موقدة، ولا ما تحدّثه ألسنة اللهب المتصاعدة من أنوار تسطع في جوف الظلمة، فتحيل فضاء الصحراء متلاًئلاً وهّاجاً، وأطرافها منيرة وضّاءة، كما أنه ليس يسيراً علينا أن نقدر ما يبعث هذا المنظر من رعب في القلب وخوف في النفس لمن يكون عدواً لأصحاب هذه النيران.

فقال العباس: يا سوء صباح قريش، والله لئن دخل محمد عنوة إنه لهلاك

قريش، فركب بغلة رسول الله، وسار ليرى أحداً متجهاً إلى مكة فيبعثه؛ كي يخبر أهلها بمكان رسول الله، لعلهم يأتونه ويطلبون منه الأمان.

فبينما هو يسير إذ به يسمع صوت أبي سفيان وكان قد أرسلته قريش ليتجسس لهم أخبار النبي محمد ﷺ، ومعه حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، فلما سمع العباس صوته عرفه - وكان صديقاً له في الجاهلية - فصاح به: يا أبا حنظلة. فعرفه أبو سفيان، فقال: لبيك يا أبا الفضل. فلما قرب منه سأله عن موقع النيران، فقال: ويحك هذا رسول الله في عشرة آلاف مقاتل مصبحكم. فقال: ما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي حتى آتي بك رسول الله، فأستأمنه لك. فأردفه معه وطلب من صاحبيه أن يعودا إلى مكة، وجاء به إلى رسول الله، فعرض عليه رسول الله الإسلام فأسلم بلسانه كرهاً، فقال النبي لعمه العباس: «خذه واحبسّه عند مضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله، فيراها». فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان سيد قريش، وزعيم مكة، وهو يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يفخر به على قومه. فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابها فهو آمن».

يقول العباس: فأخذته إلى مضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ، وأخذت القبائل تمر براياتها، وكلما مرت قبيلة يقول: يا عباس، من هؤلاء يا عباس؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: مالي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة الأخرى، فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: مالي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألتني عنها، فإذا أخبرته قال: مالي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار وهم منغمسون في

الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، فبهر أبو سفيان، وقال: يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فقال: والله ما لأحد بهؤلاء طاقة. يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أحيك عظيماً. يقول العباس: فقلت له: ويحك إنها النبوة.

فلما أشرف النبي على أبواب مكة فرق الجيش على مداخل مكة بشكل يمكنه معه أن يطبق على مكة من جميع النواحي، وتقدمت فرق الجيش الإسلامي مزودة بأوامر القائد العظيم التي تمنع القتال إلا إذا فرض عليهم ما عدا جماعة باغية ساهم لهم النبي بأسائهم قاموا بأعمال إجرامية تستوجب إهدار دمهم، وإنزال القصاص العادل بهم، منهم وحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة التي مثلت بحمزة، وهبار بن الأسود الذي كان السبب في وفاة السيدة زينب بنت رسول الله، وكعب بن زهير الذي سخر شعره في هجاء النبي ﷺ والنيل من أعراض المسلمين. فلما دخل النبي مكة هرب كعب خوف القتل، ولما رجع النبي إلى المدينة جاء مسلماً تائباً، وأنشد للنبي قصيدته المعروفة بمطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتولٌ

ومن جملة ما قال فيها:

نبت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعظ وتفصيلٌ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت في الأوابل
إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول
في عصبه من قريش قال قائلهم	ببطن مكة لما أسلموا زولوا

ومضت فرق الجيش تدخل مكة بدون أدنى مقاومة، فأخذت الحمية سعد ابن عبادة فصاح بأعلى صوته: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، أذل الله

قريشاً. فسمعته أبو سفيان، فأقبل مسرعاً إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: يا محمد، أما تسمع ما يقول سعد، وهل في مكة من النساء إلا عماتك أو خالاتك؟ فقال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «أدرك سعداً، وخذ اللواء من يده، وناد: اليوم يوم المرحمة اليوم تؤوى الحرمه، أعز الله قريشاً»؛ لأن ما جاء على لسان سعد يخالف أوامر النبي بعدم القتل.

ودخل النبي دخول الفاتح المنصور، وعلى رأسه عمامة سوداء، وإلى يمينه وصيه ووزيره، ويده لواء النصر وراية الفتح، ومن حوله أكابر الصحابة، والنبي على ناقته القصوى، ومحمد بن أبي مسلمة أخذ بزمامها، وقد وضع النبي رأسه على رحل ناقته تواضعاً لله عز وجل، وهو يقرأ سورة (الفتح)، والمناادي أمامه ينادي: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ولما بلغ الأبطح أمر أن تضرب خيمته، ونزل فيها مع زوجته أم سلمة وميمونة، ولما قال له بعض أصحابه: «إلا تنزل دارك؟ قال: «وهل أبقى لنا عقيل داراً».

وتمثل له كل ما قاساه خلال تلك الأعوام الأولى من تاريخ الدعوة الإسلامية، ورأى نفسه اليوم يعود إلى مكة منتصراً بعد أن خرج منها مطروداً خائفاً يترقب. إنها نعمة عنده لا يعادلها شيء، وكرامة أتخفه الله بها، وبدل أن دخلها عليهم بزهوة الفاتح ونشوة المنتصر، دخلها بخشوع العبد الشاكر، قد طأطأ رأسه حتى ليكاد يلصق برحله؛ تواضعاً لله واعترافاً بجميله على ما أكرمه من الفتح، وصان بذلك البلد الحرام من أن تراق فيها الدماء، وتزهق فيها النفوس.

وبعد أن اغتسل وصلى أدنيت له راحلته فركبها، وسار والناس من خلفه، حتى انتهى إلى الكعبة، فوجدها كما كانت مسرحاً للأصنام، ومستودعاً ضخماً للأوثان،

وقد بلغ عدد الأصنام الموضوعه حول البيت ٣٦٠ صنماً لكل قبيلة في هذا البيت الحرام صنم، فطاف بالبيت سبعا وهو على ناقته، وكان يومي إلى الحجر بيده، وكلما مر بصنم يشير إليه بقضيب في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١) فيقع الصنم لوجهه ويتحطم.

ولما أنهى طوافه، نزل من ناقته، واستلم الحجر، وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، فارتجت مكة، وخرجت إلى الجبال تنظر ماذا يفعل النبي محمد ﷺ وأصحابه، ثم أقبل ليدخل الكعبة، فوجدها مغلقة، فأرسل إلى عثمان بن طلحة من يأتيه بالمفتاح، وكان عند أمه، فذهب يطلبه منها، فقالت: أعيذك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومه على يده. فقال: إن لم تدفعيه لي، سيأتيك من يأخذه قوة. فدفعته إليه، فجاء وفتح الباب، ودخل النبي، فوجد فيها الأشكال والتماثيل والصور، وكأنها قد تحولت إلى مخزن للنصب المؤهله والتماثيل المعبودة، وقد نقشوا على جدرانها صوراً للمريم والمسيح والملائكة، وصورة إبراهيم شيخاً يستقسم بالأزلام، فأمر علياً أن يزيل ما بها من صور، ويمسح كل ما بها من تماثيل، وصلى فيها صلاة الفتح، ثم أخذ بعضادة الباب، وبيده مفتاح الكعبة، وإلى يمينه علي وقال: «الحمد لله وحده الذي صدق وعده، وأوفى عهده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

فاجتمعت له الناس، وأحاطت به قريش لتسمع ما يقول، وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، ثم قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بتحريم الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لأحد قبلي ولا تحل

لأحد بعدي، ولا تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم تعود كحرمتها بالأمس. إلا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى في الجاهلية فهو تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج». ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأبء، الناس كلهم لآدم وآدم من تراب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١) لبئسما كنتم؛ لقد كذبتُموني وأذيتُموني، وأخرجتُموني من وطني، ثم ما رضيتُم بذلك حتى جئتُموني في بلاد هجري تقاتلونني، فما تظنون أني فاعل بكم اليوم؟». قالوا: أخ كريم، وأبن أخ كريم، ملكت فاصفح، وقدرت فاسجح. قال: «أقول لكم ما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢)، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

اذهبوا فأنتم الطلقاء

روي عن نصر الله أبي يحيى - وهو من ثقات إخواننا السنة - قال: رأيت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام فقلت له: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة وتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ثم يتم على ولدك الحسين ما تم؟ فقال له الإمام علي عليه السلام: «أما سمعت أبيات أبي الصيفي في هذا المعنى؟». قلت: لا يا مولاي. قال: «اسمعها منه». فانتبهت فزعا مرعوباً، وذهبت مسرعاً لابن الصيفي سعد بن محمد التميمي - وكان شاعراً مشهوراً - فذكرت له الرؤيا، فحلف بالله العظيم أنه لم تخرج من فمه لأحد، وما نظمها إلا ليلته تلك، فمن أخبره بها؟ ثم أنشدها:

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) يوسف: ٩٢.

ملكننا فصار العفو منا سجية ولما ملكتم سال بالدم أبطح
 وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا عن الأسرى نعف ونصفح
 فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

وفيه تطهير الكعبة من الأصنام؛ فقد كانت الوثنية العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وكانت قد نفست فيهم في مظاهر متنوعة ومتعددة. وكانت أرض الجزيرة العربية برمتها قد أصبحت مقراً للأصنام، ومستودعاً ضخماً للأوثان، وقد تحولت هذه البقعة - من العالم - بيوتها وأزقتها وصحاريها - حتى بيت الله الحرام - إلى مخزن للنصب المؤلهة، والتماثيل المعبودة.

وكانت الكعبة المعظمة في الحقيقة محط أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت المعظم صنم أو وثن، وهو عندهم رمز الإله، وموضع العبادة والتقديس، ويسمى أنثى فلان، ومنه قوله تعالى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾^(١). وبلغ عدد الأصنام الموضوعة في ذلك المكان المقدس ٣٦٠ صنماً في مختلف الأشكال والهيئات والصور. ولعل أهم أصنام العرب وأوثانهم كانت اللات والعزى ومناة. ولم تكن هذه هي كل الأصنام التي كانت تعظمها وتعبدها العرب، بل كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأبرزها أساف ونائلة. وكان موضع أساف إلى جانب الحجر الأسود من الكعبة الشريفة، ونائلة بإزاء الركن اليماني.

أما أهم آلهة قريش - بل العرب كلها - فقد كان هبلأ، وهو صنم على صورة إنسان نُحت من عقيق أحمر، وقد كسرت يده اليمنى، فجعلت له قريش يداً بديلة من ذهب. وهبل هذا كان موضع الضراعة والابتهاال عند مشركي قريش في

(١) النساء: ١١٧.

حربهم مع المسلمين، وباسمه كانوا ينادون طالبين أن ينصرهم، وكم ترددت الصرخات، ولا سيما يوم أحد: اعلُ هبل، اعلُ هبل.

وقد بلغ خضوع العرب أمام الأصنام والأوثان حداً عجيباً جداً؛ فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسب رضاها بتقديم القرابين إليها، وكانوا بعد نحر الهدايا يلطخون وجوه الأصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا. فلما جاء الإسلام نبه القرآن الكريم إلى خطر هذا الوهم الأفاك الذي هو من عمل الشيطان زرعه في العقول والنفوس، وطلع على الناس بالآية البينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(١).

فدعا النبي بعلي بن أبي طالب، وقال: «يا علي، لقد مسحنا ما في جوف الكعبة من التماثيل والصور، وحطمنا ما حولها من الأصنام والأوثان، وقد بقي على ظهر الكعبة صنم كبير يقال له هبل؛ فإما أن تركب ظهري، أو أركب ظهرك، لنلقي هذا الصنم على ظهر الكعبة». فقال الإمام علي: «بل تركب ظهري يا رسول الله». فجلس الإمام على ركبتيه، وركب النبي على منكبه، وقال: «انهض يا علي». فنهض متثاقلاً، فلما رأى النبي ضعفه بالرغم عما اشتهر به من قوته، تبسم وقال: «اجلس يا علي». ونزل عن منكبه وبيّن له أن الإمامة لا تستطيع أن تحمل الرسالة ولكن الرسالة تستطيع أن تحمل الإمامة. ثم جلس النبي على ركبتيه وقال: «يا علي اصعد على منكبي». فامتنع علي من الصعود احتراماً لشخص الرسول محمد ﷺ، فكرر النبي عليه القول: «اصعد يا علي». فصعد علي على منكب النبي واضعاً قدميه على منكبي الرسول الأعظم ﷺ. يقول العمري:

فأنت أنت الذي حطت له قدم في موضع يده الرحمن قد وضعاً

فنهض به النبي ﷺ، يقول علي: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لما نهض بي رسول الله لو شئت أن أتناول الثريا بيدي لفعلت». يقول أبو نؤاس الهمداني:

قيل لي قل في علي مدحاً ذكره يخمد ناراً مؤصده
قلت لا أقدر في مدح فتى حار ذو اللب إلى أن عبده
والنبي المصطفى قال لنا ليلة المعراج لما صعده
وضع الله على كتفي يداً فأحس القلب أن قد برده
وعلي واضع أقدامه في محل وضع الله يده

يقول علي: «حتى صعدت ظهر الكعبة، ورأيت عليها تمثالاً عظيماً مثبناً بأوتاد من حديد، فجعلت أزاوله يميناً وشمالاً ومن أمامه ومن خلفه، حتى تمكنت منه، فقال لي رسول الله: اقذف به. فقذفت به إلى الأرض، فتكسر كما تتكسر القوارير».

وتحطمت معه الوثنية من جزيرة العرب كلها. يقول السيد رضا الهندي:

لما دعاك الله قدماً لأن تولد في البيت فليته
شكرته بين قريش بأن طهرت من أصنامهم بيته

ثم دعا النبي بقاء من زمزم، فغسل الكعبة داخلها وخارجها، فجرت العادة إلى

اليوم بغسل الكعبة في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة.

وفيه صارت واقعة حنين، ذلك أنه لما فتح النبي مكة، وطهر بيت الله من الأصنام والأوثان، وارتفع على ظهره الأذان بإعلان الشهادتين، واستقام له أهلها ملتفين حوله حيث أقام، وحين ذهب، ونفوسهم مطمئنة إلى أن من بقي من العرب على الشرك سيدخلون في الإسلام طائعين خلال أشهر معدودات. وإنهم كذلك يعيشون في هذا الجو من الاطمئنان والهدوء، والتطلع إلى غدٍ أفضل، والنبي لا يزال في مكة يبعث السرية تلو الأخرى إلى القبائل المجاورة لمكة؛ ليظهر

المنطقة من عبادة الأوثان، ويجمعهم على الإيمان بالله ورسوله، وفيما هم يعيشون في هذا الجو من الغبطة، وإذا بالأخبار تترامى إليهم بأن هوازن وأحلافها قد اجتمعوا بقيادة مالك بن عوف لغزوهم حيث كانوا، وأقبلت تلك الحشود التي قدرها المؤرخون بثلاثين ألفاً أو يزيدون، ونزلوا بسهل أوطاس - وهو وادٍ بديار هوزان، ويعرف بحنين - وقد حملوا معهم النساء والأبناء والأموال؛ ليكون في ذلك مدعاة لحماسة الرجال واستماتتهم في الذود عن الحرمات والأرزاق. فلما نزلوا قال لهم دريد بن الصماء - وكان شيخاً كبيراً قد حملوه معهم يستفيدون من رأيه وخبرته -: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرر، ولا سهل دهس. ثم قال: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وثغاء الشاة وبكاء الصغير؟ قالوا: إن مالك بن عوف أمر بحمل النساء والأطفال والأموال حتى لا يطمع أحد بالفرار. قال دريد: وهل يردّ المهزوم شيء؟ فإنها إن كانت لك فلا ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكراب؟ قالوا: لم يشهد معنا منهم أحد. فقال: غاب الجدّ والحدّ. ثم قال: فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذاك الجدعان لا ينفعان ولا يضران.

ودار حوار لم يتفقا فيه، فقال مالك محتدّاً: والله لا أفعل ما تقول؛ إنك كبرت وذهب عقلك وعلمك. والتفت إلى الناس وقال: والله إن عصيتموني لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري - وكان شاباً في الثلاثين من عمره، قوي الإرادة، ماضي العزيمة - فتبعه الناس، وقالوا: أطعناك.

وراح يفرق المقاتلين في قمم حنين، وقدم كميناً عند مضيق الوادي، وأمرهم

أن يجعل كل رجل منهم أهله وماله خلف ظهره، فإذا أغبش الصبح حملوا حملة رجل واحد على المسلمين، وقضوا عليهم؛ فإن محمداً لم يلقَ أحد يحسن الحرب. فبلغ النبي ﷺ تجمعهم، فعبأ الصفوف، ووزع الألوية على رؤساء القبائل، وأعطى رايته علي بن أبي طالب، واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد أميراً، وعلى الصلاة معاذ بن جبل، وخرج من مكة لستّ خلون من شهر شوال سنة ثمانٍ من الهجرة في عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة من المهاجرين والأنصار، وألفين ممن اسلموا بعد الفتح.

وخرج جيش المسلمين تحفّ به مظاهر القوة، وتبدو عليه سمات التفوق والاعتزاز، فظن البعض أن النصر حليفهم لا محالة؛ لكثرة عددهم، فقالوا: لا نُغلب اليوم عن قلة. وتابع النبي تقدمه بالجيش، حتى وصل في المساء إلى حنين، فحطوا، وناموا قسطاً من الليل، فلما طلع الفجر، لم يلبثوا أن تحركوا بانحدار نحو وادي حنين، وهمهم أن يفاجئوا العدو قبل طلوع الصباح، ولكنهم على خلاف ما ظنوا كان العدو يتربّص بهم، فلم ينم ليله، بل بقي ساهراً بانتظارهم، حتى إذا قربوا منه انهالت عليهم السهام والنبال مثل وابل المطر.

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري: لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة، وذلك في عمية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إليه، فكمنوا لنا في شعبه وأحنائه ومضايقه، وبقوا في انتظارنا، فما راعنا - ونحن نسير - إلا كتائب هوازن ومن معها من العرب شدّوا علينا شدّة رجل واحد، فانهزم المسلمون عن رسول الله لا يلوي أحد منهم على أحد، وقد أخذهم الخوف والفرع، حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ - وكان في مؤخرة الجيش راكباً بغلته البيضاء - ولم يبق معه إلا عشرة نفر، تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، فقتل أيمن وثبت التسعة الهاشميون - وهم علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب،

وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث، ونوفل وربيعة أخواه، وعبدالله بن الزبير، وعتبة ومعتب ابنا عبد العزّي؛ فكان العباس عن يمينه، والفضل عن يساره، وأبوسفيان بن الحارث آخذ بزمام ناقته، والباقي من حوله، وعلي يضرب بالسيف بين يديه. وفي ذلك يقول العباس بن عبد المطلب:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وقولي إذا ما الفضل كر بسيفه على القوم أخرى يابني ليرجعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما ناله في الله لا يتوجع
والنبي ينادي: «أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». فلم يجبه أحد من
المنهزمين، فعاد يكرر القول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

فلم يجبه أحد، فرأى أن يستعمل وسيلة أخرى، فطلب من عمه العباس أن يصعد الجبل، وينادي في الناس بما يعيد إليهم الوعي. وكان العباس رجلاً جهوراً باصيتاً، فصعد الجبل ونادى: يا أصحاب سورة البقرة، ويا أصحاب بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله؛ فإن محمداً حي لم يموت. وإذا بصوت العباس يدوي في الآذان، وتهتز لأصدائه أوتار القلوب، ويذهب الله عنهم مشاعر الخوف، فيرجع المؤمنون، وهم يتصايحون من كل صوب: لبيك لبيك يا رسول الله. ويرتدون إلى المعركة مستبسلين، قد هان عليهم الموت في سبيل الله، وأقدموا على اقتحام المعركة موقنين بأن النصر لهم. وإذا بجو المعركة يتحوّل من هزيمة إلى نصر، وإذا بهوازن وثقيف ومن معهم يفرون منهزمين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

وكان الفضل في هذا النصر لله سبحانه وتعالى، ولنبيه الكريم في ثباته، وتلك الفئة القليلة من ذوي القربى الذين أحاطوا بالنبى، يمنعونه، ويذودون عنه، وأنزل الله على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَن بَعَدَ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

وفيه غزوة الطائف؛ ذلك أنه لما نصر الله نبيه محمد ﷺ، وانهزمت هوازن، وغنم المسلمون أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم، وأسروا رجالهم، انهزم رئيسهم مالك بن عوف إلى الطائف محتماً بها أمر رسول الله ﷺ بالمسير إلى الطائف لمطاردة العدو، وحصار الطائف؛ طمعاً في إسلامهم. فسار النبي مع المسلمين في طريقهم إلى الطائف تاركين وراءهم أسرى حنين وغنائمها في الجعرانة بعد نقلهم إليها تحت حراسة مشددة، حتى يعودوا من مطاردة العدو، ومن حصار الطائف، فبرى النبي أمره فيهم. وكانت الطائف من أشهر مدن العرب في شبه الجزيرة بخصب أرضها ولطيف مناخها، حتى إنها كانت لتشكل بكرومها وورمانها واحة خضراء في وسط الصحارى، وهذا ما جعل أهلها ذوي ثروة طائلة، فحصنوها، وجعلوا لها أبواباً تغلق عليها كالكثير من مدن العرب في ذلك العصر. فلما بلغها المسلمون أغلقت الحصون في وجههم، فأمر النبي ﷺ أن يقيم معسكره على مقربة منها، فراحت ثقيف ترشقهم بالنبل من على جدران الحصون، حتى قتلت منهم جماعة، وجرح آخرون؛ مما اضطرهم أن ينتقلوا بعيداً عن

(١) التوبة: ٢٥-٢٧.

مرمى النبل. ولما طال الحصار فكّر المسلمون بالمنجنيق، فصنعوه، وأخذوا يرمون به الصخور على الحصون، ولكن الحصون منيعة، فلم يكن له أي أثر، فاستعملوا نوعاً آخر وهو الدبابات - وهي صناديق من خشب مغلقة بجلد، وبها ثقب للرؤية يدخل تحتها الرجال ويدبون حتى يقتحموا الحصون، وهي وسيلة لاتقاء السهام والنبال - ولكن رجال الطائف راحوا يحمون قطع الحديد، فإذا انصهرت ألقوها على الدبابة، فتحترق، وفشلت محاولات المسلمين. فأمر النبي بقطع الكروم، وقلع الشجر، فعزّ على ثقيف ما يحل بأهمّ مواردهم الاقتصادية، فسألوه بالله والرحم، فأمر رسول الله بالتوقف، ونادى مناديه أنه سيعفو عن كل وافد إليه منهم.

ففر إليه جماعة منهم، وكان النبي ﷺ قد مضى عليه أكثر من خمسة عشر يوماً، وقد أصبحوا على أبواب شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم فأثر النبي أن يرفع الحصار عنهم، ويرجع إلى الجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم على أن يعود إليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم.

وأدركت هوازن حراجة الموقف على أن نسائهم وأطفالهم أصبحوا غنيمة للمسلمين، فأرسلوا وفداً منهم إلى النبي محمد ﷺ يعتذرون إليه، ويعلنون إسلامهم، ويرجون أن يرد عليهم نساءهم وأطفالهم، فقال أحدهم: يا رسول الله، إن في هذه الحواضر خالاتك وحواضنك، وأختك، وأنت خير الناس أجمعين. وأنشد يقول:

امنن علينا رسول الله في كرمٍ فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على نسوة قد عاقها قدر ممزق شملها في دهرها غير
فطلب أن يأتوا بأخته، فلما جاءت عرفها حقاً أنها أخته الشيباء بنت الحارث

ابن عبد العزى التي طالما حملته على ذراعيها ودغدغته يوم كان صبياً في المهدي، وأُمها حليلة ترأف به وتحنو عليه. فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وأغناها من عطائه، وخيرها بين المقام عنده أو الرجوع إلى قومها، فاخترت قومها.

وخير الوفد بين نسائهم وأطفالهم وبين أمواهم، فاخترت نساءهم وأطفالهم، فردت نساء هوازن وأطفالها إليها بفعل إسلامها، وبفعل عظمة محمد ﷺ وإنسانيته التي لا تضاهى.

واتجه إلى توزيع الغنائم فبدأ بالمؤلفة قلوبهم، فأعطى أبا سفيان مئة من الأبل، وأعطى صفوان بن أمية مئة مثلها، وأعطى عيينة بن حصن مئة، وأعطى الأقرع ابن حابس مئة، وأعطى دون ذلك لآخرين، فأعطى العباس بن مرداس خمسين جملاً، فلم يقبل بعد أن أعطى غيره أكثر من ذلك، وأنشد يقول:

اتجهل نهبي ونهب العبيد ————— بد بين عينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ————— ومن تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذا تدرؤ ————— فلم أعط شيئاً ولم أمنع

فلما سمع رسول الله ﷺ شعره قال: «أذهبوا، فاقطعوا لسانه». فأخذه وأعطوه ما يريد، وعاد النبي إلى المدينة بعد انتصارين من أعظم الانتصارات التي حققها ﷺ في غزواته: فتح مكة، وهزيمة هوازن. وتركت هذه الانتصارات أثرها في نفوس من لا يتصورون أن تضطرهم الأيام للخضوع لمحمد ﷺ والإقرار له بالطاعة.

وفيه وفاة السيدة زينب ابنة رسول الله ﷺ. وكان أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة رسول الله ﷺ قد وقع أسيراً بأيدي المسلمين في واقعة بدر، وبقي أبو

العاص في الأسر حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراها، وكان معهم عمرو بن الربيع أخو أبي العاص - بعثته زينب في فداء زوجها - فتقدم عمرو بن الربيع إلى رسول الله، وقال: بعثني زينب بنت محمد بهذا. وأخرج صرة قدمها إلى النبي ﷺ، وإذا فيها قلادة، فلم يكدرها، حتى رقق لها، وخفق قلبه للذكرى؛ فقد كانت قلادة خديجة أهدتها إلى ابنتها يوم عرسها، فقال في حنان: «إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها، وتردوا عليها ما لها فافعلوا». فقالوا: نعم يا رسول الله.

فأدنى إليه صهره، وأسر إليه أن يبعث إليه ابنته زينب؛ لأن الإسلام فرق بينها وبينه لعدم إسلامه. ووعدته أن يرسل لها أخاها من الرضاعة زيد بن حارثة مع بعض أصحابه ينتظرونها خارج مكة؛ ليصحبها إلى المدينة. فوعده بالوفاء، ولما عاد إلى مكة أخبرها بما قال أبوها، فلما جاء الموعد، وكّل أخاه كنانة أن يوصلها إلى حيث ينتظرها أخوها وصاحبه، فخرجت وفي أحشائها بضعة منه جنين لم يستكمل شهره الرابع، فهال قريشاً أن تخرج بنت محمد على مرأى منهم ومسمع، فبعثوا رجالاً منهم لإرجاعها - ولو قسراً - فخرجوا في أثر المهاجرة حتى أدركوها في طوى، وكان قد سبقهم إليها هبار بن الأسود الأسدي، فنخس بعيرها بالرمح، فشب البعير وألقى براكبته على صخرة هناك فألقت جنينها.

ومضت سنوات ست^(١) حافلة بجليل الأحداث، وزينب في حمى أبيها تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس، وهو أن يشرح الله صدر أبي العاص للإسلام. وبعد عودة الرسول من صلح الحديبية - سنة سبع^(٢) من الهجرة - أسلم أبو العاص ابن

(١) الكلام في العام (٨) هـ، وهو ﷺ توفي عام (١١) هـ فإن كان رجوعها لأبيها ﷺ أول

العام (٨) هـ فهذا يعني أنه المتوفي سنوات ثلاث مع رسول ﷺ فكيف أصبحت ستاً؟

(٢) الكلام في عام ٨ هـ فكيف رجعنا للعام (٧) هـ؟ وكيف أسلم بعد العام الثامن ثم أسلم

أحداث العام الثامن ١٣٧

الربيع، وجاء إلى المدينة، ودخل على رسول الله - وهو في مسجده - معلناً إسلامه، وطلب منه إرجاع زوجته، فردها إليه على النكاح الأول، وقيل: بنكاح جديد، فأمضى معها عاماً واحداً، ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا، ماتت زينب في مستهل السنة الثامنة من الهجرة متأثرة بعلتها التي لزمها منذ طرحت جنيهاً على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة. فجهزت، وصلى عليها أبوها في مسجده، ثم شيعها إلى مرقدتها الأخير، وأودعها ثرى طيبة. ورجع أبو العاص إلى داره التي كانت بالأمس جنة الحب، فأمست بعد رحيل زينب منزل الذكريات والأشجان.

وكاد الحزن يهلكه لولا أن وجد في ولده علي وابنته أمامة صورة حية من الراحلة.

وفيه مولد إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأمه مارية بنت شمعون القبطية، أهداها إليه المقوقس صاحب الإسكندرية من قرية معروفة بصعيد مصر تدعى «صفن»، قريبة من بلدة «أنصنا» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونيين. ولدت مارية بنت شمعون لأب قبطي، وأمة رومية، وأمضت بها أحداثها الأولى قبل أن تنتقل في مطلع شبابها الباكر مع أختها سيرين إلى قصر المقوقس عظيم القبط.

وقد سمعت هناك بما كان من ظهور نبي في جزيرة العرب يدعو إلى دين سماوي جديد، وكانت في القصر حين وفد حاطب بن أبي بلتعة موفداً من هذا النبي العربي يحمل رسالة إلى المقوقس، فأهداها المقوقس إلى رسول الله مع أختها سيرين على يد موفده حاطب، ودفع له كتاباً يقول فيه: قد أكرمت رسولك، وبعثت لك

بجارتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة ومطية لتركبها، والسلام عليك.
وانطلق حاطب عائداً إلى النبي ﷺ ومعه مارية وأختها سيرين، وعبد أسود
خصي، وألف مثقال ذهب وعشرون ثوباً لينا من نسج مصر، وبغلة شهباء
«دلدل»، وزق من عسل، وبعض العود والند. حتى إذا بلغ الراكب المدينة سنة
سبع من الهجرة - وكان قد عاد النبي من الحديبية - أعطى حاطب الهدية إلى
النبي ﷺ فتلقى كتاب المقوقس وهدية مصر فأعجبه مارية، فتزوجها ووهب
أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت.

ومضى عام أو بعض عام، ومارية سعيدة بحظوتها لدى الرسول الكريم، قد
اطمأن بها المقام في كنفه، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات
المؤمنين، وانحصرت أمانيتها وخواطرها، بل انحصرت وجودها كله في شخص
ذلك الرسول العظيم الذي ربطها القدر به على غير ميعاد، فكان لها السيد
والصاحب، والأهل والوطن.

وكانت تتمنى أن تكون أما لولد محمد، ولكن ما أبعد الأمنية، وما أدناها من
المستحيل! لقد تزوج المصطفى منذ ماتت خديجة عشر زوجات منهن الشابة
الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد، ولكن أرحامهن جميعاً
أمسكت، فما تجود بولد واحد للنبي الذي تخطف الموت أبناءه من خديجة، فلم يدع
له سوى ابنة واحدة هي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

واستقبلت مارية عامها الثاني في حياة النبي، وما تكف عن أمنية أبعد من
الوهم، وأوهى من السراب، ولكن مشيئة الله فوق كل شيء. وفجأة أحسّت
ببوادر حمل مستكن، فأخذها الفرح، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب
لدعائها وتحقق أملها الذي بدا عقياً واهياً. فلما جاء الرسول أفضت إليه بالسر

الخطير الذي تجنه أحشاؤها، فرفع يديه إلى السماء يشكر خالقه الذي منّ عليه أثر فقدته ابنته زينب بعد أن ماتت قبلها رقية وأم كلثوم، ومات عبدالله والقاسم. وسرعان ما سرت البشرى في أنحاء المدينة أن المصطفى ينتظر مولوداً من مارية المصرية، ويتحدث البعض: أيؤثر الله مارية بهذه النعمة الكبرى، وأمّهات المؤمنين - وفيهن بنتا أبي بكر وعمر، وبنت زاد الراكب، وحفيدة أبي طالب - محرومات لا يلدن.

وخاف الرسول على مارية، فنقلها إلى العالية بضواحي المدينة؛ توفيراً لراحتها وسلامتها، وعناية بصحتها وصحة جنينها. فلما بلغ الجنين أجله، وحانت ساعة الوضع في ليلة من ليالي شهر ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة، وضعت مارية ابنها فخفّ إليها رسول الله ﷺ يهنئها بولدها الذي أعتقها من الرق، وأخذ ولده بين يديه فرحاً، وأقام عليه السنة، وسماه إبراهيم؛ تيمناً باسم جد الأنبياء.

وهبط عليه الأمين جبرئيل مهنتاً وقال: «السلام عليك يا أبا إبراهيم». وراح يرقب نموه يوماً بعد يوم، وهو ﷺ يجد فيه أنسه ومسرتة، ويود لو شاركتة دنياه كلها في هذا الأُنس، ولم يسعد مارية شيء قدر ما أسعدها أن تهب للسيد المصطفى على اليأس غلاماً تقرّ به عينه.

وفيه اتخذ النبي المنبر في مسجده. روى أبوهريرة وغيره أن النبي ﷺ لما بنى مسجده بالمدينة، لم يكن للمسجد النبوي منبر، ولم يكن أهل المدينة يعرفون المنبر يومذاك، فكان النبي ﷺ إذا خطب الناس - يوم الجمعة - يسند ظهره إلى جذع نخلة منصوب في المسجد، فقال: «إن القيام قد شقّ علي». وكان تميم الدارمي رجل من لحم من أهل فلسطين - يرى رسول الله وهو يشتم عليه وجع كان يجده في فخديه، فيشق عليه القيام والقعود، فقال له: يا رسول الله، إلا أصنع لك منبراً

تقوم عليه يوم الجمعة فتسمع الناس خطبتك، ويكون أهون عليك إذا قمت، وإذا قعدت كما رأيت يصنع بالشام؟ قال: «وكيف المنبر؟». قال: يا رسول الله، أنا أصنعه لك. فقال: «نعم».

فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من شجر الأثل - وقيل: من شجر الطرفاء، وكان هذا الشجر موجوداً بكثرة خارج المدينة - وعمل المنبر، وعمل له درجتين غير المقعدة، فتحول رسول الله ﷺ عن الجذع الذي كان يستند إليه إذا خطب الناس يوم الجمعة إلى المنبر. فلما عدل إليه جعل الجذع يحن؛ حتى سمع صوته كالعشار؛ تحزناً على مفارقة رسول الله ﷺ، فارتاع الناس من صوته. يقول الراوي: فأتاه النبي فاحتضنه، فسكن حنينه، فقال ﷺ: «لو لم أفعل ذلك لما سكن من حنينه إلى يوم القيامة». يقول الشاعر:

وحنّ إليه الجذع شوقاً ورقةً ورجّع صوتاً كالعشارٍ مردداً
فبادره ضمّاً فقراً لوقتته لكل امرئٍ من دهره ما تعودا
فأمر النبي ﷺ أن يحفر له تحت المنبر، ويدفن.

يقول عياض: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر. ونقل ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي قال: ما أعطى الله نبياً ما أعطي محمد بن عبد الله. فقيل له: أعطى عيسى إحياء الموتى. قال: أعطى محمد حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكثر من إحياء الموتى.

أحداث العام التاسع

دخلت السنة التاسعة، وبدخولها تمت كلمة الله في شبه جزيرة العرب كلها، وتوالت على النبي الكريم كثير من الوفود من اليمن وحضرموت، ومن عمان واليامة وغيرها من الأقطار العربية يقدمون الولاء والطاعة إلى النبي محمد ﷺ، ويعلمون إسلامهم، ويعطونه العهود والمواثيق ألا يخونوا ولا ينحرفوا، ولا يتعاونوا مع أعداء الإسلام.

وظلت الوفود طيلة ما بقي من السنة التاسعة تتوافد على النبي محمد مترامية على الإسلام، مقرّة بالولاء والطاعة، يدخلون في دين الله أفواجا حتى سميت سنة الوفود.

وفيه أرسل النبي جباته إلى القبائل لجباية الزكاة، فاستقبلتهم أكثر القبائل بالترحاب، ودفعت لهم زكاة أموالها بنفوس طيبة راضية.

وفيه كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها النبي محمد ﷺ. وتبوك موضع بين الشام والمدينة تبعد عن المدينة أربع عشرة مرحلة، وعن الشام إحدى عشرة مرحلة. وكان قد بلغه أن ملك الروم قد هيا جيشاً كبيراً لغزو العرب في شبه الجزيرة، وأعد العدة للقضاء على محمد ﷺ وأتباعه الذين راحوا يهددون المناطق المتاخمة لحدود الحجاز. فلما بلغ النبي ﷺ الخبر لم يتردد في مواجهة تلك الحشود التي أعدتها الروم، وأرسل النبي إلى القبائل العربية في مختلف المناطق يعلمهم بما عزم عليه، ويدعوهم إلى التهيؤ لإعداد أكبر جيش يستطيع القضاء على كل أمل يراود الغزاة.

ولم يكن أمام المؤمنين - وهم أهل الدعوة وحماها - إلا الامتثال للأمر، والتلبية للدعوة، لا يقعدهم عن داعي الجهاد داعياً أياً كانت الأسباب، ومهما كانت الظروف. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾^(١).

واستقبل المسلمون هذه الدعوة بقلوب عامرة بالإيمان، ونفوس مطمئنة بما وعد الله به المجاهدين، تاركين نساءهم وأبناءهم؛ ليقطعوا الصحاري والفيافي إلى جيش يفوقهم في العدد والعتاد في تلك السنة المجدبة التي سماها المؤرخون سنة العسرة - بالنظر إلى ما أصاب الناس فيها من القحط والجفاف - وفي فصل الصيف اللاهب، والناس ينتظرون موسماً جديداً من ثمار المدينة وخيراتها. ولم يتخلف عنه إلا بعض المنافقين الذين خالفوا، وقالوا: لا تنفروا في هذا الفصل، وانتظروا حتى ينتهي فصل الحر. فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٢).

يقول ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ من المدينة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، ومعه ثلاثون ألفاً من المهاجرين والأنصار وغيرهم، مجهزون على المستوى المناسب؛ لأنه سيقابل به أكبر دولة يوم ذاك.

واستخلف على المدينة وعلى أهله وحريمه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. يقول المفيد في الإرشاد: ولما سار النبي بالجيش، وخلف علياً، ثقل على المنافقين الذين تخلفوا عنه وبعض الأعراب الذين حول المدينة ممن غزاهم النبي ﷺ بقاء علي في المدينة، وعرفوا أنهم قد خابت آمالهم، فراحوا يرجفون

(١) التوبة: ١٢٠.

(٢) التوبة: ٨١.

بعلي، ويقولون: إن محمداً لم يستخلفه في المدينة إلا استثقلاً له، وتحفظاً منه، فخلفه مع النساء والصبيان؛ لأنهم صمموا على أن يعثوا في المدينة خلال غيبة الرسول عنها، ووجود فيها علي سيحول بينهم وبين ما عزموا عليه.

ولما شاعت مقالته في المدينة، وبلغت علياً، لبس درعه، وتقلد سيفه، ولحق بالنبي محمد ﷺ، فأدرکه وهو نازل بالجرف، فوقف بين يديه حزينا؛ لعدم اشتراكه في الجهاد - وهو أبو الزند، والسيف الفتاكين - وقال: «بأي أنت وأمي يا رسول الله، لقد زعم المنافقون أنك إنما خلفتني مع النساء والصبيان؛ لأنك استثقتني، وتحففت مني». فتبسم النبي ﷺ، وقال: «كذبوا، ارجع يا علي؛ فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك؛ فأنت خليفتي في قومي وأهلي، ودار هجرتي. أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي؟».

فرجع علي إلى المدينة بناء على أمر النبي محمد ﷺ، وقبل أن يصل النبي بجيشه إلى تبوك كانت أخباره قد بلغت الروم، كما بلغتهم من قبل انتصاراته التي دارت بينه وبين قريش وغيرها من القبائل العربية، وتصوروا المخاطر التي يجرها الصدام مع هذا الجيش الذي يعتقد أنه إن قُتل أو قُتِل، فله الجنة. فاستبد بهم الخوف، وداخلهم الرعب، فأثروا الانسحاب من مواقعهم من حدود الحجاز إلى بلادهم، ودخلوا في حصونهم.

فلما انتهى المسلمون إلى تبوك، رأوا أن القوم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم، ولم يجدوا سكان المناطق، فنزلوها، وجعل النبي يبعث إليهم رسله يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، فالتزموا بالجزية، وعاهدوه ألا يتعاونوا مع أحد عليه، ولا يتخذوا من بلادهم مركزاً للعدوان على أراضي الحجاز. واطمأن النبي ﷺ بعد معاهدة تلك القبائل، ولم يبقَ عنده إلا صاحب دومة الجندل،

فأرسل إليهم خالد بن الوليد مع خمسمائة من الفرسان، فأسر رئيسهم الأكيدر، وقتل أخاه، وغنم جميع ما في دومة الجندل، وساق الأسرى، وحمل الغنائم إلى رسول الله ﷺ.

ورجع النبي إلى المدينة بعد أن أقام بتبوك عشرين يوماً لم يقاتل أحداً، وحقق المسلمون انتصاراً قد يكون في معناه أنفع للمسلمين من انتصاراتهم في بدر وحنين وغيرهما؛ ذلك أن خطر تلك الدولة الكبرى المتاخمة لحدود الحجاز، والتي ترتبط بعض قبائلها بقبائل الحجاز كان من أشد الأخطار.

وفيه كانت سرية علي بن أبي طالب إلى طيِّء. يقول ابن إسحاق: قدم وفد من طيِّء على رسول الله ﷺ، وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل - سمي كذلك؛ لمعرفته بأنسب الخيل، وكان شاعراً بليغاً جواداً - فعرض عليهم النبي الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وأقبل زيد على النبي يحدثه، فأحسن الحديث فقال ﷺ: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يقال فيه إلا زيداً».

وسماه زيد الخير، وأجازهم، وأقطعهم محلين من أرضه، وكتب له في ذلك كتاباً. وخرج زيد من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه؛ كي يدعوهم إلى الإسلام، فأصابته الحمى ومات، فعمدت امرأته إلى الوثائق التي كتبت بين رسول الله ﷺ وبين زوجها، وأحرقتها بالنار، فبلغ خبر عملها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بعلي وأرسله في سرية لبلاد طيِّء في خمسين ومئة رجل من الأنصار، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، وترك الأوثان؛ فإن استجابوا آمنهم، وإلا غزاهم، وحقق أمر الله فيهم، وهدم صنماً كانوا يقدسونه، يدعى الفليس.

فخرج بمن معه - في ربيع الثاني من السنة التاسعة للهجرة - حتى قارب بعض الأحياء العربية الموالية لطيِّء، ومع تبشير الفجر مضى بمن معه إلى أحياء طيِّء،

فعرض عليهم الإسلام فأبوا إلا عبادة الأصنام، فشن عليهم هجوماً مفاجئاً، فرّق شملهم، وقتل جماعة منهم، وأسر بعضهم، واستولى على بعض مواشيهم، وهدم الصنم الذي كانوا يلوذون به، وأحرقه بالنار، وأخرج من خزائنه ثلاثة أسياف معروفة عند العرب، ومشهورة، وهي: «رسوب» و«المخذّم» و«اليباني»، وثلاثة دروع، وفرّ زعيمهم عدي بن حاتم الطائي إلى الشام، ورجع الإمام علي بالسبي والغنائم إلى المدينة، وكانت سفانة بنت حاتم الطائي معهم، وليس لحاتم بنت إلا هي.

فأنزل السبي في حظيرة إلى جانب المسجد أعدت لهذه الغاية، ومرّ النبي محمد بالأسرى - وهم في تلك الحظيرة - فقامت إليه سفانة - وكانت ذات عقل ووقار - فقالت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد؛ فإن رأيت أن تحلّي عنا، ولا تشمت بنا أحياء العرب؛ فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويحفظ الجوار، ويفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقرّي الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال ﷺ: «هذه صفة المؤمنين، حقاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلّوا عنها؛ فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق». وأعطاهما من النفقة ما يسد حاجتهما، وسيرها إلى أهلها، فلما رأت عطاءه قالت: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله ببرك مواضعه، ولا جعل لك عند لئيم حاجة، ولا سلب نعمة من كريم إلا جعلك سبباً لردّها عليه. فقال النبي: «آمين». وفيه جاء النبي ﷺ وفد من بني حنيفة، وكان معهم رجل منافق حاد الذكاء، بارع في المراوغة، يدعى مسيلمة، فلما دخلوا على النبي ﷺ خلفوا مسيلمة في رحلهم، فلما أسلموا أمر لهم النبي بالعطاء، فقالوا: لقد خلفنا صاحباً لنا في

رحالنا. فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «إنه ليس بشركم مكاناً». يعني بذلك أنه حفظ لكم أمتعتكم.

فلما رجعوا إلى اليمامة، أخذته العزة بنفسه، وغره الغرور، فارتدّ، وتنبأ وكذب، وادعى أنه شريك مع النبي في الرسالة؛ لأن رسول الله أكرمه وأعطاه دون أن يمثل بين يديه. وتشبث بهذه الكلمة، وقال: إن محمداً لم يقل لكم بأني لست بشركم مكاناً إلا لأني شريك له في الأمر. وسمى نفسه الرحمن، فكان يسمى رحمن اليمامة. وانطلق مسيلمة في ادعائه للنبوّة، يحل الخمر والزنى، ويضع عن قومه الصلاة ترغيباً للناس في تصديقه، فتبعه بنو حنيفة على ذلك. ولكي يزيد الناس إيهاماً في دعواه، بعث بكتاب إلى رسول الله يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، السلام عليك؛ فإني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فكتب إليه النبي محمد ﷺ بعد البسملة: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين». ثم جعل يسجع لقومه، ويتكلم بكلمات يدعي أنه يضاهاها القرآن الكريم. وكان من أمثلة كلامه: لقد أنعم الله على الحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا.

وجاء في (النهاية): جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود، وقال: مررت ببعض مساجد بني حنيفة وهم يقرؤون قراءة ما أنزلها الله على محمد. قال: وما يقولون؟ قال: يقولون: والطاحنات طحننا، والعاجنات عجننا، والخابزات خبزنا، والثاردات ثردنا، واللاقمات لقمنا. وبعد وفاة رسول الله ﷺ اشتدّ أمره حتى غلب على اليمامة، فبعث إليه أبو بكر من قتله بسبب دعواه الكاذبة.

وفيه كانت وفاة إبراهيم بن رسول الله ﷺ. من المعروف أنه في أواخر السنة التاسعة من الهجرة النبوية - وحينما كان الرسول تغمر قلبه الفرحة بانتصاراته على الشرك والوثنية، وقد أخرج قومه من ظلمات الجهل إلى نور الهداية، وجمعهم تحت لواء الإسلام إخوة تشد بعضهم إلى بعض روابط أوثق من رابطة العرق والدم، وأصبحوا يتطلعون إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية بعد أن اطمأنوا على مصير الإسلام فيها، هذا الجو هو الذي كان النبي يعيش فيه، لكن في الأشهر الأخيرة من السنة التاسعة للهجرة - وقد دخل ولده إبراهيم في النصف الأول من عامه الثاني، وملامح النبي تزهر على قسماته، وتزداد وضوحاً على مرور الأيام، والنبي يحنو عليه ويداعبه، ويرتاح إلى حركاته ونموه السريع، حيث إنه ما إن دخل في الشهر السابع عشر - على أكثر الروايات - حتى دب فيه الداء واشتد عليه، وأصبح يهدد حياته، وقامت على تمريره أمه مارية وأختها سيرين. لكن مع كل هذا ازدادت وطأة الداء عليه، حتى دخل في دور الاحتضار.

وبلغ خبره النبي ﷺ، فأسرع إليه فرآه يجود بنفسه في حجر أمه، فأخذه منها ووضعها في حجره، وارتسمت علائم الحزن في وجهه لا يملك إلا أن يقول: «إنا يا إبراهيم، لا نغني عنك من الله شيئاً». وذرفت عيناه، وهو يرى صغيره الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع حشجة احتضاره مختلطة بعويل الأم الثكلى، والحالة المفجوعة، وانحنى على جثمان فقيدته فقبله، والدمع يفيض من عينيه، وقال: «يا إبراهيم، لولا أنه أمر لا بد منه، وإن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك حزناً أشد من هذا، ولكن تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

فغسله الفضل بن العباس، وصلى عليه رسول الله، وسار وراءه للبييع،

وأضجعه في قبره، وسوى عليه التراب.

وفيه بُني المسجد الضرار. ففي (المجمع): قال المفسرون: إن جماعة من بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء، وسألوا النبي محمد ﷺ أن يأتيهم ويصلي فيه، فأتاهم وصلى فيه، وأصبح المسجد مركزاً للاجتماع والنظر فيما يعود على المسلمين بالخير. فحسدتهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، وقالوا: بني مسجداً، فنصلي فيه، ولا نحضر جماعة محمد الذين أخلصوا في إسلامهم.

وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء ليضروا به، ويفرقوا المؤمنين عنه. فلما أتموا بناء ذلك المسجد جاؤوا إلى النبي ﷺ - وكان يتجهز إلى غزوة تبوك - وقالوا: يا رسول الله، لقد بنينا مسجداً لذوي العلة والحاجة، والليلة الشاتية، والليلة الممطرة، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه لنا، وتدعوا لنا بالبركة. فقال النبي: «إني على جناح سفر، فإذا رجعنا نصلي فيه إن شاء الله».

ويقال: إن الذي أمر ببناء المسجد الضرار هو أحد المنافقين، ويدعى أبا عامر الراهب، وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق؛ ذلك أنه قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، فلما دخل النبي المدينة حسده، وحزب عليه الأحزاب، ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف، لحق بالشام وتنصر.

وهو أبو الشهيد حنظلة غسيل الملائكة الذي قُتل مع النبي محمد ﷺ يوم أحد، وكان جنباً فغسلته الملائكة.

فأرسل أبو عامر المحارب لله ورسوله إلى جماعته المنافقين في المدينة من بني غنم بن عوف أن يبنوا مسجداً، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ليضروا به، ويفرقوا المؤمنين عنه، ويتنظروا أبي عامر الفاسق الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش

من الروم؛ ليخرجوا النبي محمداً من المدينة، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم. فكان المنافقون يتوقعون أن يأتيهم أبو عامر بجنود الروم، ولكنه هلك قبل أن يبلغ ملك الروم.

فلما رجع النبي محمد ﷺ من تبوك، وأراد أن يصلي فيه نزلت عليه هذه الآيات من سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَّاراً وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ * أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ولما نزل الوحي على النبي محمد ﷺ وقص عليه حديث هذا المسجد، أمر النبي ﷺ بهدمه وإحراقه، وأمرهم أن يتخذوا محله مكاناً للأوساخ والنفائات. وفيه بعث النبي علياً قاضياً على اليمن. لقد شاء الله أن تتطهر شبه الجزيرة من رجس الوثنية، فينتشر الإسلام في شتى الربوع، وتصبح له دولة مترامية الأطراف، شاسعة الرقعة؛ مما يقتضي معها تنظيم شؤونها وإدارتها بما يتوافق وأحكام الشريعة؛ ولذلك عين رئيس الدولة - وهو الرسول الأعظم ﷺ - الولاية والقضاة، وفرق العمال على الصدقات، وعهد إليهم بالمهمات، وأعطاهم الصلاحيات التي تمكنهم من ضبط أمور الناس، وتسيير شؤونهم، وإشاعة العدل في ربوعهم.

ولم تكن عناية النبي بشؤون الإدارة أكثر من عنايته بالقضاء، وذلك لما للقضاء من أهمية في حياة الشعوب والأمم؛ إذ لا حضارة أو مدنية، ولا ازدهار أو تقدم، ولا حقوق للإنسان أو تحقيق عدالة إلا في ظل قانون سيد مطلق متوافق مع عقلية أبناء المجتمع، ونمط عيشهم. وأول الناس تطبيقاً للقانون، وتحقيق سيادته على الجميع بالسواء دون محاباة أو تقصير هو القاضي صاحب السلطة القضائية، وحامل لواء العدل، فهو يملك سلطة لا تعلوها سلطة، حتى إنها تصل إلى حدّ الحكم بالحياة أو الموت. ومن كانت له هذه السلطة القوية، وجب أن يكون أهلاً لها، وإلا فقد ساء كل شيء؛ لأنه ويل للأمة، إذا نخر السوس عظام القضاء فيها. ومن هنا كان اهتمام النبي ﷺ بالقضاء؛ لأنه عرف أهميته في حياة الشعوب والأمم.

ولقد كان من عادات العرب أن يتولى القضاء أسنّ الرجال، وأكثرهم حكمة وتجربة، وأشدّهم معرفة بعادات الناس وأنماط عيشهم. ولكن على الرغم من تلك العادة التي لم ينقضها الرسول ﷺ لسلامتها وصحتها اختار رسول الله للقضاء على اليمن ابن عمه علي بن أبي طالب، وهو في سن مبكرة لم يتجاوز الثلاثين بكثير من عمره.

ويروي علي إمام الهدى كيف أنه تهبب الموقف، ورسول الله ﷺ يعينه في هذا المنصب، فحدث عن ذلك فقال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم أسنّ مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ فوضع النبي يده على صدري وقال: اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه. ثم قال: يا علي، إذا جاءك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول، فإنك إن فعلت تبين لك الحق. قال: فوالله، ما اختلف عليّ قضاء بعد ذلك».

وفي رواية عن علي عليه السلام قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن - وأنا حدث السن - فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث، ولا علم لي بالقضاء، فقال صلى الله عليه وآله: إن الله سيثبت لسانك، ويهدي قلبك. قال: فوالله ما شككت في قضاء بين اثنين».

وكانت حياته حافلة في هذا المضمار، وخاصة مع عمر بن الخطاب الذي قال: لولا علي لهلك عمر. فقد كان يعود إليه في كل معضلة تستعصي، فيجد عنده الحل العادل لها. ويكفي دلالة على مصداقية قضاء علي قول النبي محمد صلى الله عليه وآله: «أقضاكم علي. لا يقض أحدكم وعلي في المسجد».

ولم تكن تولية علي قضاء اليمن إلا من وحي الفكر النبوي الثاقب الذي يركز دوماً على الوحي الذي يجيئه من عند الله، فقد عرف فيه ملكات وقدرات كبيرة حباه الله بها، وعنده تجارب وخبرات كثيرة اكتسبها في كنف النبوة.

وإلى جانب هذه الصفات كان علي قد اطلع على عادات أهل اليمن، ووقف على أحوالهم من خلال المهام العديدة التي ندبه إليها رسول الله في تلك البلاد، فقد بعثه إلى هناك في أول مهمة إسلامية سنة ثمان للهجرة على إثر فتح مكة، ثم عاد وبعثه إلى بني همدان - وكان قد أرسل إليهم خالد بن الوليد، فمكث نحواً من ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه - فأرسل إليهم علي بن أبي طالب عليه السلام فأسلموا كلهم على يديه ببركته، فكتب إلى النبي محمد يعلمه بإسلامهم، فسرّ الرسول للبشرى السعيدة، وسجد شكراً لله، ثم قال - ثلاث مرات -: «السلام على همدان».

وهذا الحادث من أعظم حوادث تاريخ صدر الإسلام، وأعظمها في نتيجته؛ لأن قبيلة همدان من القبائل الكثيرة العدد في اليمن، وإسلامها في يوم واحد على

يد الإمام علي له من الشأن أعظم الأثر. وفيه يقول الإمام علي ؑ:

جزى الله همدان الجنان فإنهم سهام العدا في كل يوم خصام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم ولين إذا لاقوا وحسن كلام
إلى أن يقول:

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام
وبعد ذلك بعثه إلى بني مذحج، وأوصاه أن يدعوهم إلى الإسلام وقال له:
«فإن أجابوا فأؤمرهم بالصلاة؛ فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت
عليه الشمس وغربت».

فلما انتهى إليهم عرض عليهم الإسلام فرفضوا الاستجابة، وبادروه بالعداء،
فحكّم فيهم السيف، فقتل منهم عشرين، فلما رأوا أنه لا قبل لهم بقتاله دخلوا في
دين الله مختارين، فتبعهم أبناء قومهم، وصاروا جميعاً بفضل الله وسيف علي
مسلمين.

وفيه نزلت سورة براءة على النبي محمد ﷺ، ذلك أنه لما جاء شهر ذي الحجة
من السنة التاسعة من الهجرة، ونزلت الآيات الأول من سورة براءة على النبي
محمد ﷺ - وهي التي تعرف بسورة التوبة - وقع اختيار الرسول الأعظم ﷺ
على أبي بكر ليحج بالناس، والمشركون لا يزالون يشاركون المسلمين في أداء
الفريضة فيجتمع في الموسم من يؤمن بالله، ومن يؤمن بالجبث والطاغوت. ومضى
أبو بكر ومن معه من المسلمين ليشرف على الحج، ويتلو عليهم تلك الآيات النازلة
من سورة براءة، وسار حتى وصل إلى ذي الحليفة - وهو الميقات المعروف بمسجد
الشجرة في يومنا هذا - وفيما هو يسير بمن معه وإذا بالوحي ينزل على النبي
محمد ﷺ، ويأمره أن يرسل علياً مكان أبي بكر، وقال له: «لا يؤدي عنك إلا

أنت أو رجل منك».

فأرسل النبي علياً، وأمره أن يأخذ الآيات من أبي بكر، ويذهب بها إلى مكة ليقرأها على الناس بمنى يوم النحر. ودفع إليه ناقته القصوى، فلحقه علي وأدركه بالروحاء - وقيل: بذي الحليفة - وأخذ الآيات منه.

قيل: لما سمع أبو بكر رغاء ناقته رسول الله فرغ، وظنه رسول الله، فإذا هو علي فقال: أمير، أم مأمور يا أبا الحسن؟ قال: «مأمور من رسول الله لأخذ الآيات من سورة براءة وأقرأها على الناس بمنى، وأخيرك بين أن تذهب معي، أو ترجع إلى المدينة».

فدفع إليه الآيات، ورجع إلى المدينة، ودخل على النبي وهو خائف أن يكون قد نزل فيه ما يغضب النبي، فقال: يا رسول الله، أنزل في شيء؟ قال النبي: «لا، ولكن نزل علي جبرئيل يقول: يا محمد، لا يبلغ عنك إلا أنت أو رجل منك، وعلي مني، ولا يؤدي عني إلا علي».

ومضى علي إلى مكة، فلما كان يوم النحر وقف بمنى ونادى في الناس بأعلى صوته أن يجتمعوا، فلما اجتمعوا طلب إليهم الإصغاء والانتباء، وراح يتلو عليهم الآيات التي يحفل بها صدر سورة التوبة من القرآن الكريم، وفيها بيان لأحكام الله بحق المشركين من قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾^(١) إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) ثم نادى في الناس: «لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت

(١) التوبة: ١ - ٢.

(٢) التوبة: ٣٦.

عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته».

وفيه كانت وفاة أم كلثوم، وهي أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ زوجة عثمان ابن عفان من غير ولد، وذلك في شهر شعبان سنة تسعة للهجرة، وكان رسول الله قد زوجته بها في العام الثالث من الهجرة بعد وفاة أختها رقية في الثاني من الهجرة، ودفنت بالبقيع إلى جانب ما بقي من رفاة أختها زينب ورقية، ووقف المصطفى على قبر ابنته دامع العين يقول: «رحم الله أم كلثوم».

أحداث العام العاشر

فيه كان قدوم وفد نصارى نجران على النبي محمد في المدينة. لقد كان أهل الجزيرة العربية وثنيين قبل مجيء الإسلام، ولكن هذا لا يعني انعدام الأديان القديمة فيها، فقد كان هناك يهود في المدينة وخيبر وفدك، ونصارى في الطائف ونجران ومواقع أخرى. وكان نجاح منطق النبي محمد ﷺ في دحر الوثنية طبيعياً، كما كان تغلبه بالقوة على اليهود الذين أبوا إلا أن يعيشوا في الأرض فساداً أمراً طبيعياً كذلك، وهو ما ساعده في القضاء عليهم. أما النصارى، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حملة الرسالة السماوية، وأتباع المسيح عيسى بن مريم، وما على محمد إلا أن يثبت لهم أن شريعته جاءت ناسخة للشريعة المسيحية، وأنه خاتم الأنبياء جميعاً. ولا يحصل مثل هذا في الغالب إلا بعد نقاش طويل، ونقاش علمي، فأرسل لهم النبي محمد ﷺ كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام؛ فإن أبوا فالجزية، وإن أبوا فالحرب. فاتفقوا على أن يبعثوا وفداً منهم إلى المدينة لمقابلة النبي محمد ﷺ يتباحثون معه في شؤون دينهم وهذا الدين الجديد.

وصل الوفد، ودار الحوار الذي شهدته التاريخ، وسجل صفحات خالدة في الرقي الفكري والتسامح الإنساني. وقد بدا ذلك الحوار عندما سأل السيد من وفد نجران النبي محمد ﷺ عن نبي الله موسى: من أبوه؟ فقال: «النبي عمران». فقال السيد: ويوسف، من أبوه؟ فقال: «النبي يعقوب». فقال: وأنت من أبوك؟ قال: «عبد الله بن عبد المطلب». قال: فعيسى من أبوه؟ قال: «هو روح الله وكلمته». قال: فهل يكون روح بلا جسد؟ فقال ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١).

فغضب السيد عندما سمع أن عيسى خلق من تراب، فراح النبي محمد يتلو على المسامع آيات من سورة مريم تدل على حقيقة خلق المسيح، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا^(٢)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا^(٣)﴾، وطال النقاش، ودام الحوار، وكل من في وفد نجران يسأل ما يجيش في صدره، ونبي الله يقدم لهم البراهين الدالة، والشواهد الثابتة، والآيات الموحية المعبرة، حتى استطاع الرسول ببيانه المعجز، وبالبيانات التي جاءت عنه في الإنجيل أن يقنعهم بصورة مبدئية بصدق نبوته. إلا أنهم - مع كل ذلك - ظلوا يشككون، ولا تطمئن نفوسهم إلى الواقع، فراح النبي ﷺ يطلب منهم المباهلة.

والمباهلة عبارة عن الملاعنة، يقصد الطرفان منها إثبات الحقيقة، فيسألون الله إنزال العذاب على الكاذب منهم. وجاء هذا الأمر بصورة وحي نزل به الروح الأمين: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ^(٤)﴾. فأعلن النبي للوفد ذلك، وتلا عليهم دعوة الله للمباهلة، فبهت القوم لهذه الدعوة؛ إذ لم تكن في حسابهم.

فوافق وفد نصارى نجران على هذا الاقتراح، وأعدوا للأمر عدته، وكان

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) مريم: ١٦.

(٣) مريم: ٢١.

(٤) آل عمران: ٦١.

الموعد يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، وجاءت ساعة المباهلة - أو ساعة الإنذار - بلعنة الله على الكاذبين. فأمر النبي من يذهب إلى المكان الذي عُيِّن للاجتماع عند مقبرة البقيع في المدينة المنورة، ويقوم في تنظيفه، وإزالة ما فيه من حجر وكدر، وكان هناك شجرتان متقاربتان قد التفت أغصانها وتشابكت، فبعث النبي بكساء كبير أسود رقيق؛ لينشر على الشجرتين، ويتدلى من الجوانب فيكون على شكل المخيم.

وجاءت الساعة المرتقبة واللحظة المنتظرة... نعم هي لحظة واحدة لكنها قد تنفجر فيها براكين الأرض، وترسل السماء شهب النار... لحظة واحدة من الممكن أن يهلك فيها الكبير، ويفنى منها الصغير، حيث تزلزل الأرض زلزالها.

فاجتمع الناس ليشهدوا الحدث الأكبر، وانطلقت الأبصار إلى الجهة التي فيها رسول الله ترقب الثغر الباسم، والجبين المشرق، والوجه الأغر، وإذا بالتكبير وقد ارتفع: الله اكبر. يا الله! هو ذا رسول الله يخرج ووجهه يشع بالنور. يا لعظمة الحق وجلال الإيمان، هو ذا يحتضن الحسين، ويمسك بيمنه الحسن، وخلفه بضعته الزهراء مغشاة بملاءة من النور، وعلي يمشي خلفها باهر الجلال، يرتدي برده من مهابة الله.

والمباهلة هي القول الفصل في نهاية الجدل، وقد اختارها الله لنبيه محمد ﷺ، واختار له الأشخاص الذين يؤمنون على دعائه، فأدخلهم تحت الكساء، ويقف أمامه وهو يقول لهم: «إذا دعوت فآمنوا».

وجاء زعماء النصارى بأهبي الحلي والحلل، وعندما رأوا تلك الأنوار المشرقة ارتدّ الوفد، وانكمش على نفسه، ورجعوا إلى أسقفهم وقالوا: ما ترى؟ قال: والله، إني لأرى وجوهاً لو سئل الله بها أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، أفلا ترون إلى كل شيء قد تغير؛ فالشمس تغير لونها، وتجمعت في الأفق سحب داكنة، وهبت رياح

سوداء حمراء، وأخذ الدخان يتصاعد من الجبال؟

انظروا إلى الطير وهي تقيء حواصلها، وإلى الشجر كيف تساقط أوراقها، وإلى هذه الأرض كيف ترجف تحت أقدامنا. والله لقد عرفتم - يا معشر النصارى - أن محمد بن عبد الله نبي مرسل، ولقد جاءكم بالأمر الفصل. والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولبث صغيرهم. وَيَحْكُمُ لا تباهلوه فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

فلما امتنع وفد نصارى نجران عن المباهلة، عرض النبي عليهم الإسلام، فأبوا، وآثروا البقاء على دين آبائهم، فصالحهم النبي على الجزية. ويذكر أن النبي قال لأصحابه بعد ذلك: «والذي نفسي بيده، إن الهلاك تدلى على أهل نجران، فلو لاعتنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولأضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله - حتى الطير على رؤوس الشجر - ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا».

وفيه كانت حجة الوداع، كما تسمى أيضاً حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة التمام، وحجة الكمال:

فحجة الوداع؛ لأن الرسول ﷺ ودّع فيها المسلمين عندما قال لهم: «لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

وحجة البلاغ؛ لأن الرسول قد بلغ الناس فيها ما أمره الله من أمور دينهم الذي ارتضاه لهم، وعرفهم أحكام الإسلام، وبيّن للناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً؛ وذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١) وبذلك يكون قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة بصورة

(١) المائدة: ٦٧.

كاملة، وأوصاهم أن يبلغ الشاهد الغائب.

وحجة الإسلام؛ لاجتماع المسلمين فيه في يوم واحد، وعلى صعيد واحد،
ولهدف واحد؛ امتثالاً لأمر الله.

وحجة التمام وحجة الكمال؛ لأن الله أكمل فيها للناس دينه، وأتم عليهم نعمته،
فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(١). ولم يحج منذ
هاجر من مكة إلى المدينة إلى تلك السنة، ولم يحج غيرها حتى توفاه الله.

وجاء في (روضة الواعظين) عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لما كان العام العاشر
من الهجرة - وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد بلغ جميع الشرائع ما خلا الحج والولاية -
أتاه الأمين جبرئيل فقال له: يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: إني لم
أقبض نبياً من أنبيائي ورسلي إلا بعد إكمال الدين، وتكثير حجتي، وقد بقي عليك
من ذلك فريضتان مما يحتاج إليه أن تبلغها قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية.
فإني لم أخل أرضي من حجة، ولن أخليها أبداً، وقد دنا أجلك، وانتهت مدتك،
وإن الله يأمرك أن تبلغ قومك الحج، تحجّ ويحجّ معك كل من استطاع إليه سبيلاً،
وتعلمهم من حجّهم مثلما علمتهم من صلاتهم وصيامهم، وتوقفهم من ذلك على
أمثال الذي أوقفهم عليه من جميع ما بلغتهم من الشرائع، وتقيم علياً وصياً
وخليفة لك من بعدك.

فنادى منادي المصطفى: أيها الناس، إن رسول الله يريد الحج، وأن يعلمكم من
ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم، ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه،
ولم تكن المناسك والشعائر حتى تلك السنة قد توضح معالمها بالشكل السوي؛

ولذلك كان لابد أن يشهد الحج رسول الله حتى يبين للناس الطريق التي يسرون عليها في حجهم، والسنة التي يعتقدون بها في إقامة مناسكهم وعباداتهم).

ولم يكن من قبل قد حجَّ الحج الأكبر، وإن كان قد اعتمر أكثر من مرة؛ لذلك رأى بثاقب بصيرته، وبهداية ربه أن يحج بالناس، وما كان الناس يعرفون ما صح عليه عزم رسول الله ودعوته إياهم للحج، حتى انتشرت تلك الدعوة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية، فأقبل الناس على المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، وقاعدة حكمها ألوفاً مؤلفة، جاؤوها من كل حذب وصوب من المدائن والبوادي، ومن الجبال والصحاري، ومن كل بقعة من أراضي هذه الدولة المترامية الأطراف، والتي أنارها الله بنور الإسلام، وبهدي رسوله الكريم؛ ليحجوا بحج رسول الله ﷺ، ويأتوا به.

وَضُرِبَت الخيام حول المدينة لعشرات الألوف من الناس، فاجتمع معه - على ما جاء في بعض الروايات - مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً أو يزيدون، جاؤوا يلبون دعوة نبيهم، وقد جمعت بينهم أخوة الإسلام بعد أن كانوا إلى سنوات خلت أعداء متنافرين.

وحلَّ اليوم الخامس والعشرون من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة من الهجرة فخرج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً بيت الله الحرام، واستعمل على المدينة أبا دجانة الأنصاري، وأخذ معه نساءه جميعاً، وبضعته فاطمة الزهراء - وكانت كل واحدة منهن في محفة خاصة بها - وسار معه أهل بيته، وعامة المهاجرين والأنصار، وكتب للإمام علي بن أبي طالب - وكان في اليمن قاضياً - أن يتوجه إلى الحج، فيلاقيه هناك. وسار رسول الله ﷺ في ذلك الجمع الزاخر من المسلمين، وقد ملأت قلوبهم الغبطة، وبدا على وجوههم الإشراق ما داموا يتوجهون إلى بيت الله الحرام، ويؤدون برفقة الرسول الكريم فريضة الحج الأكبر حتى بلغ

الحجيج ذا الحليفة - محرم أهل المدينة - فنزل المصطفى هناك، وأقام ليلته، فلما طلع الفجر صلى بهم الصبح، وأحرم، وأحرم معه المسلمون، وبعد الإحرام رفع صوته بالتلبية، فصاح الناس جميعاً كالبحر المتماوج بصوت واحد يرددون الكلمات نفسها التي تؤدّي معنى الرسالة التي دعاهم إليها محمد بن عبد الله، وحارب من أجلها: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

وانطلقت مسيرة السلام في دروب الصحراء سعياً إلى بيت الله الحرام، وتابعت السير حتى بلغوا مشارف مكة، حيث التقاهم هناك الإمام علي بن أبي طالب، فسّر به رسول الله ﷺ وابتهج بلقائه، وسأله: «بم أهلت؟». فقال: «يا رسول الله، إنك لم تكتب لي بإهلالك، ولا أنا عرفته، فعقدت نيتي بنيتك، فقلت حين أحرمت: اللهم إهلاً لا كإهلال نبيك. وسقت معي من البدن أربعاً وثلاثين». فقال النبي: «الله أكبر، قد سقت معي ستاً وستين بدنة، فأنت شريكي في حجي ومناسكي وهديي، فأقم على إحرامك، وعد إلى جيشك». وأثنى على همته، ودعا له بالتوفيق.

ثم واصل المسيرة حتى دخل مكة نهار ذلك اليوم، ولسان الرسول يلهج بذكر الله، ووجهته بيت الله. فلما أدى نسكه، وقضى فرضه، وألقى خطابه التعليمي الجامع الذي علم الناس فيه مناسكهم قفل راجعاً إلى المدينة المنورة.

قصة الغدير

إذن لقد خرج النبي من مكة متّجهاً إلى المدينة - بعد أداء فريضة الحج - ومعه تلك الوفود التي لم تشهد لها مكة نظيراً في تاريخها الطويل يوم ذاك. فلما انتهى إلى

مكان قريب من الجحفة بناحية رابغ - على ثلاث مراحل من مكة على طريق المدينة، وهي ميقات أهل مصر والشام، وتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين - نزل عليه الأمين جبرئيل بأخر آيات القرآن الكريم من سورة (المائدة)، ومن ضمنها آية التبليغ - وهي آخر سورة مدنية نزلت على محمد كما جاء عن كثير من الروايات - يوم الخميس بعد خمس ساعات مضت من نهار يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة السنة العاشرة من الهجرة، وقال له: «يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي». فخطبه جل وعلا بالرسالة؛ لكونها أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بحكم الله النازل، ولم يأت به بالعصمة، فضايق بذلك صدر المصطفى، وتخوف أن يرتد قومه عن دينهم، أو أن يكذبوه، فراجع ربه، فأوحى إليه: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي الحكم الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي، ﴿وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. وهي آية تفيد التهديد بظاھرھا، وتفيد إعلامه وإعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهمية، وضمن له أنه يعصمه من الناس، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١)، فلم يمهل التأجيل؛ لأن الأجل قد قرب، وهذه الفرصة هي أحسن الفرص، وموقفها هو أعظم المواقف؛ حيث اجتمع معه أكثر من مئة وأربعة وعشرين ألفاً، وما زالت قلوبهم عامرة بشعائر مستحضرة.

وهنا نعى الرسول نفسه إليهم؛ لأنهم سيفترقون بعد هذا الموقف للعودة إلى ديارهم، فغدير خم مفترق الطرقات، ولربما لا تتاح فرصة للقاء مرة أخرى بهذا العدد الكبير. فعند ذلك لم يربدأ من تنفيذ ما أمره به الله سبحانه، ولا سيما أنه قد

ضمن له أن سيعصمه من الناس - فنزل النبي عن راحلته في ذلك المكان في الصحراء على غير ماء وكلاء، وأمر بردّ من تقدّم منهم، وحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان المعروف بغدير خم.

فلما أخذ القوم منازلهم، أمر أن يكسح له بين شجرتين، ونادى بالصلاة جامعة، فلما اجتمعوا أمر بلائاً فأذن للصلاة، وتقدم النبي وصلى بالجموع صلاة الظهر - وكان يوماً هاجراً - حتى إن الرجل منهم ليضع رداءه على رأسه، وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء. فلما انصرف من صلاته قام خطيباً - وكان قد عمل له منبراً من حدوج الإبل - فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعليّ لا ألقاكم بعد عامي هذا. لقد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمر ثم دعي فأجاب، ويوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً. فقال: «اللهم، إني قد بلغت. أيها الناس أستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، وأن الجنة والنار حق، والموت والبعث والحساب حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: اللهم نعم.

فقال: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، فاتقوا الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. إلا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، إلا وإن كل دم في الجاهلية، وكل ربا - كان - موضوع تحت قدمي، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون. أيها الناس، إن الناس في الإسلام سواء، المسلم أخو المسلم شاء أو

أبى، لا يغشّه ولا يخونه ولا يغتابه، ولا يحل له دمه، ولا شيء له من ماله إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه. كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إلا قد بلغت اللهم اشهد. أيها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُجْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾^(١). إلا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، و﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾^(٢) ثلاثة متوالية: ذي القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وشهر رجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(٣)، فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، إلا قد بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس إن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، ولا يدخلن أحداً بيوتكم إلا بإذنكم، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف فإنهن عندكم عوان - أي أسارى - لا يملكن لأنفسهن شيئاً، ولقد أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكتاب الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس، أوصيكم بما ملكت أيانكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون إلا إني قد بلغت.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم بعد اليوم، ولكن يطاع فيما

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) التوبة: ٣٦.

سوى ذلك من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وإني - محمد - رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق، وحسابهم على الله. أيها الناس، إني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

أيها الناس، أستم تعلمون أي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجهم وأمهاتهم؟». قالوا: نعم. قال: «أستم تعلمون أي أولى بكل مؤمن ومؤمنة من نفسه؟». قالوا: نعم. قال: «إن الأمين جبرئيل قد هبط عليّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن السلام ربي - وهو السلام - أن أقوم في هذا المشهد، وأعلم كل أبيض وأحمر وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي، والإمام بعدي الذي محله مني محلّ هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي. فسألت الأمين جبرئيل أن يستعفي لي ربي من تبليغ ذلك إليكم؛ لعلمي بقلة المتقين، وكثرة المنافقين المؤذنين الذين وصفهم الله في كتابه الكريم أنهم ﴿يَقُولُونَ بِاللَّسْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١)، وقد كثر أذاهم لي حتى سموني أذناً؛ وذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(٢)، ولو شئت أن اسمي القائلين بأسائهم لسميت، ولو شئت أن أدلّ عليهم لفعلت، ولكن في سترهم قد تكرمت، فلم يرض الله إلا بتبليغي فيه ما نزل إلي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٣) في علي ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ

(١) الفتح: ١١.

(٢) التوبة: ٦١.

(٣) المائدة: ٦٧.

وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿١﴾.

أيها الناس، اعلموا - وليبلغ الشاهد الغائب، والوالد الولد - أن الله قد نصب لكم علياً إماماً وولياً، مفترضة طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعين بإحسان، وعلى الحاضر والبادي، وعلى العربي والعجمي، وعلى الحر والعبد، وعلى الصغير والكبير، وعلى الأبيض والأسود، والذكر والأنثى، وعلى كل موحد ماضٍ حكمه، جائز قوله، نافذ أمره، ملعون من خالفه، مرحوم من أطاعه وصدّقه، قد غفر الله لمن سمع وأطاعه.

معاشر الناس، إنه آخر مقام أقومه فيكم، فاسمعوا وأطيعوا؛ فإن الله هو مولاكم وإلهكم، ثم من بعده مولاكم ووليكم نبيكم محمد بن عبد الله، ثم من بعدي مولاكم ووليكم وإمامكم علي بن أبي طالب بأمر ربكم، ثم الأئمة من ذريته إلى يوم القيامة. فضّلوه؛ فقد فضّله الله، واقبلوه فقد نصّبه الله، فمن لم يأتهم به وبمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٢﴾.

لا حلال إلا ما أحلّه الله ورسوله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله ورسوله، علمني ربي، وأنا قضيت بما علمني ربي في كتابه. حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٣﴾.

معاشر الناس، إن علياً والطيبين من ولده الثقل الأصغر، والقرآن الكريم الثقل

(١) المائة: ٦٧.

(٢) التوبة: ١٧.

(٣) آل عمران: ٨٥.

الأكبر، وكل واحد مبین عن صاحبه، موافق له، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما. إلا قد بلغته إلا قد أسمعت، إلا قد أوضحت، إن الله قال - وأنا قلت عن الله سبحانه -: ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا، ولا تحل إمرة المؤمنين لأحد غيره».

ثم ضرب بيده على عضد علي، وأخذه إليه، وقال: «هذا أخي ووصيي، وخليفتي على أمتي، وعلى تفسير كتاب الله، والداعي إليه، والعامل بما يرضيه». ثم رفعه إليه حتى بان بياض إبطيهما، ونادى: «أيها الناس، إن الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن ومؤمنة، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه بأمر ربي. فضّلوه؛ فقد فضله الله، واقلّوه فقد نصّبه الله. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من خالفه، وأدر الحق معه حيثما دار». قالها ثلاثاً، ثم قال: «أيها الناس، إن ذرية كلّ نبي من صلبه، وذريتي من صلب علي، وهو أخي ووصيي، وخليفتي على أمتي، ومستودع علمي بأمر ربي ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾»^(١).

أيها الناس، إن الله أمرني أن آخذ البيعة عليكم، والإقرار من ألسنتكم بقبول ما جئت به عن الله عز وجل في علي أمير المؤمنين، والأئمة الميامين من بعده الذين هم منّي من صلبه على ما أعلمتكم، فقولوا جميعاً: سامعون مطيعون لما بلغته عن أمر الله، وإمامة علي وولده الأئمة من صلبه.

أيها الناس قولوا الذي قلت لكم، وسلّموا على علي بإمرة المؤمنين، قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

أيها الناس، إنني قد بلغت ما أمرت بتبليغه، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

وقد بَلَّغْتَ ما بَلَّغْتَ؛ حجة على كل حاضر وغائب، على من شهد وعلى من لم يولد، فليبلغ الحاضر منكم الغائب، والوالد الولد إلى يوم القيامة، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

ثم ألبسه عمامته، وأمر أن يفرد له خيمة، وعقد له موكباً للتهنئة، وأمر جميع من حضر بأن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً للسلام عليه وتهنئته بإمرة المؤمنين، بما فيهم زوجاته أمهات المؤمنين، وسائر نساء المسلمين ممن معه. فلم يبق أحد ممن حضر ذلك اليوم من النساء والرجال إلا جاء مهنتاً لعلي بن أبي طالب بالخلافة، ومباركاً له بالولاية، يدخلون عليه أفواجاً أفواجاً، يهتئون بالمقام السامي، ويسلمون عليه بإمرة المؤمنين، وفي مقدمتهم الشيخان أبو بكر وعمر، فقال أبو بكر السلام: عليك يا أمير المؤمنين. وقال الشيخ عمر: بخ بخ لك يا علي، أصبحت وأمست مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

يقول عمرو بن العاص في قصيدته لمعاوية بن أبي سفيان:

وكم قد سمعنا من المصطفى	وصايا مخصصة في علي
وفي يوم خم رقى منبراً	يبلغ والركب لم يرحل
وفي كُفِّه كُفُّه معلناً	ينادي بأمر العزيز العلي
ألست بكم منكم في النفوس	بأولى فقالوا بلى فافعل
فأنحله إمرة المؤمنين	من الله مستخلف المنحل
وقال فمن كنت مولى له	فهذا له اليوم نعم الولي
فوال مواليه يا ذا الجلال	وعاد معادي أخي المرسل
ولا تنقضوا العهد من عترتي	فقاطعهم بي لم يوصل

فبخيخ شيخاك لما ارتأوا عرا عقد حيدر لم تحلل

يقول ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم.

وأمر رسول الله بلالاً أن يؤذن، ويقول في أذانه: أشهد أن علياً ولي الله، وتذاك الناس على رسول الله للبيعة، ولعلي بالولاية والإمرة، حتى صليت العشاء والمغرب في وقت واحد، والناس تواصل البيعة لرسول الله ﷺ والمعانقة لابن عمه أمير المؤمنين، والنبي يقول - كلما تابع قوم البيعة -: «الحمد لله الذي فضّلنا على العالمين». ورفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إنك أنت أنزلت الإمامة لعلي وليك؛ بتفضيلك إياه بما حكمت لعبادك من دينهم، وأنعمت عليهم بنعمتك، ورضيت لهم الإسلام، فقلت تعالى اسمك: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١) اللهم فاشهد أني قد بلغت».

فكانت ولاية علي آخر فريضة أنزلها الله سبحانه وتعالى، ثم لم ينزل بعدها فريضة. وعندما تمت البيعة من الحاضرين - وقبل أن يتفرق الناس - نزل الأمين جبرئيل على النبي يقول: «إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: قل لأمتك: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

فقال رسول الله: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالتي، والولاية لأخي وابن عمي، وخليفتي في أمتي علي بن أبي طالب». فهلل الجميع وكبر؛ لاغتباط الرسول العظيم بأداء الرسالة كاملة غير منقوصة، وحمدوا الله على توفيقهم لما فيه مرضاة الله ومرضاة رسوله.

فلما عرف حسان بن ثابت شاعر النبي فرح رسول الله ﷺ واستبشاره بذلك

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) المائدة: ٣.

اليوم، قال: أتأذن لي يا رسول الله أن أقول في هذا المقام مقالاً تسمعني يا رسول الله؟ فقال النبي: «قل على بركة الله، لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك». فقال: يا مشيخة، اتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية، وانبرى يقول رائعته التي سجل فيها الحادث بأحرف من نور:

يناديهم يوم الغدير نبينهم	بخم وأسمع بالنبى مناديا
فقد جاء جبرائيل عن أمر ربه	بأنك معصوم فلا تك وانيا
وبلغهم ما أنزل الله ربهم	إليك فلا تخشى هناك الأعاديا
فقام به إذ ذاك رافع كفه	بكف علي معلن الصوت عاليا
فقال ومن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك تعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا	فلن تجدن فينا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإني	رضيتك من بعدي إماما وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم والٍ وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا
فيا رب انصر ناصريه لنصرهم	إمام هدى كالبدر يجلو الدياتيا

ومن غدير خم انطلق الراكب عائداً إلى المدينة المنورة بعد أن أرى الرسول الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، ووضع إمامة علي وولايته أمانة في أعناق المسلمين يتناقلونها جيلاً بعد جيل، ويتواصون بالمحافظة عليها، والعمل بها دهرًا بعد دهر؛ لأنها الأمانة التي أوكلها الله ورسوله إليهم، فيجتمع البشر على الدين الذي أراده الله ديناً للناس كافة، وأكمله لهم حتى تكون بكامله قد تمت نعمته الكبرى على الناس كل الناس.

قصة الفهري

في (نور الأبصار) عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام أنه قال: «لما نصب رسول الله علياً بالولاية في غدیر خم - بعد عودته من حجة الوداع - شاع ذلك وذاع، وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري، فركب ناقته وجاء إلى النبي، فقال: يا محمد، أمرتنا عن الله عز وجل أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله فقلنا ذلك، وأمرتنا أن نصلي في اليوم واللييلة خمس صلوات فصلينا، وأمرتنا بركة أموالنا فزكينا، وأمرتنا بصوم شهر رمضان فصمنا، وأمرتنا أن نحج البيت فقبلنا ذلك منك، ثم لم ترض بهذا حتى أخذت بضبع ابن عمك علي، وفضلته علينا، وقلت: من كنت مولاه، فعلي مولاه، فهل كان هذا الشيء منك أم من الله؟ فاحمرت عينا رسول الله، وقال: والذي لا إله إلا هو، إن هذا الشيء من الله وليس مني - قالها ثلاثاً - فولى الحارث بن النعمان مغضباً يريد راحلته، وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فو الله ما كاد يصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر من السماء وقع على هامته وخرج من دبره، ومات لوقته وساعته. ونزل جبرئيل على النبي محمد صلى الله عليه وآله بهذه الآية من سورة المعارج: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾^(١).

أحداث العام الحادي عشر

يطلّ العام الحادي عشر للهجرة، ويكاد رسول الله أن ينتهي من وضع الأسس الثابتة للشريعة الإسلامية التي كتب الله لها الخلود والبقاء باعتبارها خاتمة الشرايع. وعاشت يثرب أكثر من عشر سنين في أسعد الأيام وأجلّها وأطهرها؛ فقد احتضنتها يد الوحي طيلة هذه الأيام التي احتضنت هي فيها رسالة السماء، ودافعت عنها، ودفعت في سبيلها أهبّ الأثمان؛ لكي تعيش الرسالة، وتسود وتخلد. وانضمّت مكة هي الأخرى إلى أختها يثرب في احتضان الرسالة الخاتمة، وبانضمام مكة إلى أختها يثرب - في احتضان الرسالة - سقط آخر وثن وطاغوت في الجزيرة العربية كلها، وجلا آخر شيطان من أرض الجزيرة لتنمو فيها شجرة الإيمان ترويه يد الوحي المقدس.

ووطّد محمد الأمن، وثبّت أركان العقيدة، وأوضح معالم الرسالة مجملها وتفصيلاتها حيث أعلن المشرّع الأعلى سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) وبإعلان السماء نبأ إكمال التشريع وإتمام النعمة وارتضاء الإسلام منهجاً خالداً للأرض باتت محافل الأرض تتوقع نبأ جديداً يحمل الأسس في طياته.. نبأ انتهاء السفارة - سفارة محمد في الأرض - لأن دور النبي - حسب تصريح القرآن - أوشك أن ينتهي؛ لتبقى تعاليمه التي أنزلها عليه، ولتبقى مدرسته التي أسسها تعمل عملها، وتؤدي مهمتها وفعاليتها في خلق الإنسان الرسالي الكريم.

(١) المائدة: ٣.

وقد تأكد هذا من قرائن شتى، كان بضمنها خطبة الرسول ﷺ الجامعة التي ألقاها بعد عودته من حجة الوداع، حيث جمع الألواف من أبناء الأمة الإسلامية، وخطبهم خطبة جامعة ضمنها كل ما حوته الرسالة المقدسة من أسرار ومعالم، وقوانين وأحكام، وطالبهم مطالبة أكيدة بالالتزام بها، ثم أكد إمامة علي ليقوم بمهمة التنفيذ لهذه الرسالة على الصعيد الاجتماعي والسياسي. وهذه البادرة الجديدة من الرسول أكّدت لمحافل الأرض أن القائد المنقذ لا بد مفارق، وأنه لا بد للنفس الكبيرة من أن تعود إلى بارئها راضية مطمئنة، وقد حققت أعظم تحوّل في تاريخ البشرية.. لا بد لها أن تفيض إلى من عرفته بعمق، ودعت إليه بإخلاص، وضحت في سبيل إعلاء كلمته بجد وثبات. لا بد من يوم خط بالقلم، وقد «خط الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة».

علامات كثيرة ظهرت في حجة الوداع، وكانت توحى بأن سيد المرسلين، وخاتم النبيين قد قرب انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولئن بدت تلك العلامات في أفق حياة المصطفى واضحة أثناء تلك الحجة، فإن كل شيء بعدها بات يؤكدها؛ فهذه الرسالة الكبرى التي كلف بها قد بُلّغت، والأمانة العظيمة التي عهد الله بها إليه قد أدّيت، والوحي قد اكتمل، والنعمة على عباد الله قد تمت، ولم تبق شاردة ولا واردة إلا ويكون لها المصدر والدليل فيما ترك من إرث في الأرض؛ هو قرآن كريم به يهتدون، وسنة نبوية شريفة بها يتمسكون، وعتره طاهرة بها يقتدون، حتى لم يخل شيء، ولم يبق أمر إلا وأبان منهجه ومرماه في مقامه بين المسلمين، وتفقيه أصحابه المجتبيين.

وكانت تلك الأيام هادئة بالنسبة إليه، ولكن على الرغم من ذلك كله فإن شيئاً واحداً ظل في بال النبي محمد لا يفارق مخيلته، وهو ضرورة توطيد دعائم الدولة

الإسلامية على حدود الروم، حتى لا يكون لإمبراطورية رومية مجال تنفذ منه إلى داخل الدولة الإسلامية، وتعمل على إضعاف قوتها، وتهديد كيانها.

تجهيز جيش أسامة

ولم يطل المقام بالرسول العظيم كثيراً بالمدينة - بعد رجوعه من حجة الوداع - حتى أمر بتجهيز جيش كبير إلى الشام لغزو الروم - وهو آخر بعث بعثه رسول الله، ولعله من أكبر الجيوش التي عرفتها المدينة من قبل - بدليل أنه قد حشد فيه وجوه المهاجرين الأولين، وكبار الصحابة المقربين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وغيرهم كما نصت عليه السير.

وفي الغداة دعا بمولاه أسامة بن زيد بن حارثة - وكان في مطلع شبابه لا يتجاوز العشرين من عمره - وجعله أميراً على الجيش الذي أمر بتجهيزه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقان والداروم إلى الأردن من أراضي فلسطين - وهو الموضع الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة في واقعة مؤتة - ولكن لم يمض أكثر من يوم واحد على تأمير أسامة بن زيد قائداً على جيش المسلمين حتى ظهرت بوادر المرض على رسول الله ﷺ، وداهمته حمى شديدة كان أكثرها إيلاماً الصداق القوي في رأسه؛ مما اضطره لملازمة فراشه. إلا إنه احتمل أوجاعه، وصابر على كربه، حتى يخرج في اليوم الثاني ليعقد اللواء بيده لأسامة بن زيد، ويأمره بالمسير، ويحث الناس على الخروج معه، ويعود للفراش منهكاً خائر القوى.

فخرج أسامة في يومه ذلك، وعسكر بالجرف - على فرسخ من المدينة - حتى يكمل الجيش تجهيزه، ويتم استعداداته للمسير إلى أرض فلسطين. وأمر الرسول مناديه ينادي: «نفذوا جيش أسامة، لا يتأخر أحد ممن أمرت عليه أسامة بن زيد».

ولكن يبدو أن تأميره على هذا الجيش، وفيه المهاجرون الأولون، وكبار الصحابة قد أثار حفيظة البعض - وكانوا يعرفون أن البطولة ليست وفقاً على عدد السنين - فخلوا جيش أسامة من السير، وعرفلوا هذا الزحف بانتظار ما سيحدث للنبي محمد ﷺ، وأغلب الظن أنهم كانوا يتوقعون موته، حتى قال قائلهم: يستعمل رسول الله هذا الغلام على المهاجرين الأولين وكبار الصحابة، فهلاً يولي عليهم غيره؟

فلما بلغت هذه المقالة سمع رسول الله ﷺ غضب لها غضباً شديداً، دفعه لأن يقوم من فراشه، فيخرج إلى المسجد - وهو عاصب الرأس من الصداع - فيعتلي المنبر، ويخطب الناس خطبة فيها عتاب وتحذير، ثم يقول: «أيها الناس، ما هذه المقالة التي بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة. والله لأن طعنتم في إمارة أسامة، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل. وأيم الله إنه كان خليفاً بالإمارة - كما كان أبوه خليفاً بها من قبل - وإنه لأحب الناس إليّ؛ فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم». ونزل عن المنبر، وهو يقول: «نفذوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة».

وعاد سريعاً إلى فراشه؛ لشدة تأثره، وأزدياد الألم عليه، حتى مرت فترة من النهار لا يرغب فيها أن يحدث أحداً بشيء كما جاء في كتاب (الملل والنحل). وانقضت عدة أيام والحمى ما تزال عالقة في جسده، فيقضي نهاره موجعاً، وليله قلقاً ساهراً.

الاستغفار لأهل البقيع

وفي زحمة هذه المعاناة جذبته شعور قوي إلى بقيع الغرقد حيث مقابر المسلمين،

فدعا بالإمام علي عليه السلام، وقال له: «إني أمرت بالاستغفار لأهل البقيع، فانطلق معي يا علي، إن جبرئيل كان يعرض علي القرآن في كل سنة مرة واحدة، وقد عرضه علي هذا العام مرتين، ولا أراه إلا لحضور أجلي».

وخرج المصطفى والمرضى إلى البقيع، وهناك وقف النبي محمد عليه السلام بين القبور يخاطبهم: «السلام عليكم يا أهل المقابر، هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أب إلى منزله ويده على كتف علي.

زيادة المرض برسول الله ﷺ

وأضى رسول الله بعد تلك الليلة أياماً عصبية لا يقوى فيها على جمع الناس من حوله، بل كان جل ما يقوم به هو أن يؤمهم في الصلاة، ثم يعود لملازمة فراشه، ولا هم يؤرقه إلا إنفاذ جيش أسامة، وقد آذته مخالفة امره، وأعياء التأثر كثيراً، فكان المرض يزداد به كل يوم شدة.

فراى ضرورة التحدث إلى الناس، حتى يعذر إليهم، فأمر أن يؤتى له بهاء، فصب عليه، وقام ولبس ثيابه، وعصب رأسه، وخرج إلى المسجد يعتمد على علي والفضل بن العباس، حتى دخل المسجد وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر نفسه فنعاها، ثم قال: «معاشر الناس، أي نبي كنت لكم؟». قالوا: خير نبي. قال: «ألم أجاهد بين أظهركم؟ ألم تكسر رباعيتي؟ ألم تسل الدماء على وجهي ولحيتي؟ ألم أكابد الشدة من جهال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟». قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، لقد كنت على البلاء صابراً، وللنعماء شاكراً،

وبالمعروف أمراً، وعن المنكر ناهياً؛ فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. فقال: «أيها الناس، لا نبي بعدي، ولا سنة بعد سنتي، فمن ادعى ذلك فدعواه في النار... أيها الناس أجيئوا الحق، ولا تفرقوا وأسلموا؛ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

أيها الناس، إن ربي أقسم وحتم ألا يجاوزه ظلم ظالم، ولا يعفو عن قصاص مظلوم، لقد حان مني حقوق بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها، ومن كان له عندي دين ما فليخبرني به، فليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل الصالح؛ فلا يدع مدع، ولا يتمن متمن، والذي بعثني بالحق نبياً لا ينجي إلا العمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت. أيها الناس أنا فرطكم، وأنتم واردون علي الحوض، وإني سائلكم عن الثقلين: الأكبر والأصغر، فانظروا كيف تخلفوني فيهما؛ فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. وعندكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فلا تتقدموا عليهم فتمرقوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم؛ فهم أعلم منكم».

ونزل عن المنبر، وصلى بالناس صلاة خفيفة، وعاد إلى فراشه معتمداً على علي والفضل بن العباس، واشتد به المرض، وزادت به الحمى والصداع، فكان يغشى عليه ساعة ويفيق أخرى.

يقول ابن سعد في (الطبقات الكبرى): وفيها هو في هذه الشدة - وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب - إذ قال: «إتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً». فقام أحدهم ليأتي بدواة وقرطاس، فقال عمر بن الخطاب: اجلس إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. وفي

رواية أنه قال: إنه يهجر:

أوصى النبي وقال قائلهم قد ظل يهجر سيد البشر
فاختلف الحضور وتنازعوا، فقال لهم النبي: «قوموا، فما ينبغي أن يكون بين
يدي النبي خلاف». فقالوا: يا رسول الله، نأتيك بدواة وبياض؟ قال: «أما بعد
الذي قلتُم فلا، دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، ولكني أوصيكم بأهل
بيتي خيراً». وأعرض بوجهه عن القوم.

وتشتد عليه الحمى، ويقوى عليه الألم، فكان يعالج سكرات الموت بصمت،
ويقاسي من الأوجاع بصبر، فتأخذه سنة من النوم، ويفيق وهو يقول: «طرق
المدينة هذه الليلة شر عظيم». فقالوا: ما هو يا رسول الله؟ فقال: «إن الذين أمرتهم
بالخروج في جيش أسامة رجع منهم قوم مخالفين لأمري، إن الله بريء منهم، وأنا
منهم بريء. ويُحکم أنفذوا جيش أسامة». يقولها ثلاثاً.

وصايا الرسول لأهل بيته

روي أنه لما اشتد المرض برسول الله ﷺ، قال: «ادعوا لي أخي، وابن عمي
علي بن أبي طالب». فدعي له، فلما حضر قال: «ادنُ مني». فدنا منه، فأدخله رسول
الله تحت ثيابه، وناجاه طويلاً، فلما قام، قال له بعض من حضر: ما الذي قال لك
رسول الله ﷺ؟ قال: «علمني ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف
باب، وأوصاني بما أنا فاعله».

ثم أقبل عليه يوصيه بما أهمه، ومن وصاياهم أنه قال له: «يا علي، إن الأمين
جبرئيل كان يعرض القرآن علي في كل سنة مرة واحدة، وقد عرضه علي هذا العام
مرتين، ولا أراه إلا لحضور أجلي. فإذا أنا مت فضع رأسي في حجرك، فإذا فاضت

نفسى، فتناولها بيدك، وامسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة، وغسلني، وكفني في طمري هذين أو في بياض مصر ولا تغال في كفني. وحنطني بحنوط جاء به أخي جبرئيل من الجنة، ثم اجعلني في سريري في بيتي هذا على شفير قبري، واخرج عني ساعة، فإن الله عز وجل قد أخبرني أن أول من يصلي عليّ الجبار جل وعلا في ملكوته، ثم جبرئيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم عزرائيل، ثم الملائكة المقربون، ثم حملة العرش، ثم سكان أهل السماء؛ سماء فسماء، يسلمون عليّ تسليماً، ويومئون إيماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

ثم ادخل عليّ أنت والعباس بن عبد المطلب، وقفنا صفّاً، وكبراً خمساً، ثم أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب عشرة عشرة، ولا تؤذوني بصوت نادب ولا نادية، ثم ائذن للناس بالصلاة عليّ، يصفون صفّاً، ويكبرون عليّ خمساً، ليس لهم إمام؛ فإنه لا يؤم على رسول الله، أحد فأنا إمام الناس حياً وميتاً.

ثم اغمي عليه، فدخلت عليه ابنته الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فيشق عليها أن تراه على تلك الحال، ولا تستطيع أن تقوم بعمل يخفف عنه آلامه، فتكبّ على أبيها، وهي تبكي، وتقول: «واكرباه لكربك يا أبتاه، نفسي لنفسك الفداء». فيفتح النبي عينيه، ويضمها إلى صدره، ويبكي لبكائها، ثم يدخلها تحت رداءه، ويناجيها طويلاً، وترفع رأسها وعيناها تهملان دموعاً، واللوعة تأخذ منها مأخذها، فألمه أن يراها تبكي بحرقة ولوعة، فعاد يذنيها إليه مرة ثانية، ويسارّها حديثاً آخر، فترفع رأسها وهي تبسم، ويمتلئ الحاضرون عجباً لهذا الحديث حيث تختلط دموع بابتسامة، وجزع بسرور، ويسأل من شغله هذا الحديث من المسلمين عن

سبب بكائها ثم فرحها فتقول: «لقد نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم سألت الله أن يجعلني أول أهل بيته لحوقاً به فابتسمت وفرحت».

ثم قالت: «يا رسول الله، إذا كان الفراق، فأين الملتقى؟». قال: «يوم القيامة». قالت: «وأين؟» قال: «عند الحساب». قالت: «فإن لم ألقك هناك». قال: «عند الشفاعة لمحيبك». قالت: «فإن لم ألقك هناك؟». قال: «عند الصراط؛ جبرئيل عن يميني، وميكائيل عن شمالي، وبعلك علي بن أبي طالب أمامي، ويده لواء الحمد، والملائكة من حولي ينادون: ربنا سلّم أمة محمد من النار، ويسر عليهم الحساب». قالت: «وأين أُمِّي خديجة؟» قال: «في قصر من لؤلؤة بيضاء، يرى باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه». ثم أغمى عليه، فانكبت عليه تبكي وتقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

ففتح عينيه، وقال: «يا بنية هذا قول عمك أبي طالب، لا تقوليه ولكن قولي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١)...».

ثم قال لها: «يا بنية، ادعي لي ولديّ حسناً وحسيناً». فدعتها له، فلما دخلا عليه رأياه ممتداً على فراشه، وقد أغمى عليه من شدة المرض، فوقعا عليه يناديان: «جداه يا رسول الله، أنفسنا لنفسك الفداء، وروحنا لروحك الوقاء». فأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن ينحيهما عنه، فأفاق من غشوته، فقال: «مه يا علي، لا تنح عني ابني، دعني أشمهما ويشساني، وأتزود منها ويتزودا مني؛ فهذا فراق لا تلاقي بعده

إلى يوم القيامة».

وبكى وقال: «أما إنهما سيظلمان بعدي، ويقتلان ظلماً وعدواناً». والتفت إليهما وقال: «أما أنت يا أبا محمد، فتقتل مسموماً مضطهداً، وأما أنت يا أبا عبد الله فتقتل عطشاناً غريباً؛ فلعنة الله على قاتليكما». فقال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، إن يكن فينا هذا الأمر فبشرنا، وإن كنت تعلم أنا نغلب عليه فأوص بنا خيراً. قال: «أنتم المستضعفون بعدي، المضطهدون بعد وفاتي».

فنهضوا وهم يبكون، وقد أيسوا من النبي ﷺ، فلما خرجوا من عنده قال: «ردوا عليّ علياً وعمي العباس». فلما حضرا قال النبي لعمة العباس: «يا عم تقبل وصيتي، وتنجز وعدي وتقوم بأمر أهل بيتي من بعدي؟» فقال: يا رسول الله، إن عمك شيخ كبير ذو عيال كثيرة، وأنت تباهي الريح سخاء وكرماً، وعلماً وحلماً لا ينهض به عمك. فالتفت إلى علي وقال: «يا علي، تقبل وصيتي، وتنجز وعدي، وتقوم بأمر أهل بيتي من بعدي؟». فقال علي: «نعم، فداك أبي وأمي يا رسول الله». فضمه النبي إلى صدره، ونزع خاتمه، وقال: «ضعه في يدك». ودعا بسيفه ودرعه، ولامة حربته، وبغلته وعصابته، ودفع كل ذلك إليه، وأمره أن يمضي بها إلى منزله. فقال العباس: أدنا أجلك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: فما تأمرنا به؟ قال: «يا عباس، خالف من خالف علياً، ولا تكن له ظهيراً، وإذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راضٍ فاسلك طريقاً يسلكه علي بن أبي طالب، وارض به إماماً، وعاد من عاداه، ووال من والاه».

محمد يلقي ربه

فما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان: «الأمين جبرئيل ينزل على رسول الله ﷺ في مرضه كل يوم، ويقول له: السلام عليك يا رسول الله، ربك يقرئك السلام، يقول لك: كيف تجددك؟ وهو أعلم بك، ولكنه أراد أن يزيدك كرامة وشفافاً على ما أعطاك، وأراد أن تكون عيادة المريض سنة في أمتك. فإن كان في حال خفيف يقول: أجدني شاكرًا، وإن كان موجدًا يستغفر الله». يقول عليه السلام: «بينما أنا معه - وكان يغشى عليه ساعة ويفيق أخرى - وإذا بالباب يطرق، فقلت: من في الباب؟ قال رجل غريب، يريد الدخول على رسول الله، فهل تأذنون للغرباء؟ فقلت له: إن الرسول مشغول عنك بنفسه. فقال: لا بد من الدخول عليه. فسمع النبي الكلام - وكان قد أفاق من غشوته - فقال: يا علي، أما تعرف من هذا؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هذا هادم اللذات، هذا مفرق الجماعات، دعه يدخل يا علي. فدخل كريح هفافة وجلس عند رأس النبي، وقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليك السلام، ما حاجتك؟ قال أنا رسول الله إليك. قال: أي الرسل أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلني الله إليك، وهو يقرئك السلام، ويخبرك بين البقاء أو اللقاء، ولا ينقص من حظك شيء. فقال عليه السلام أمهلني حتى يأتي حبيبي جبرئيل، فأستشيره في أمري.

فخرج ملك الموت من عنده، فاستقبله جبرئيل في الهواء، فقال: يا ملك الموت، أقبضت روح محمد؟ قال: استمهلني حتى تنزل عليه، فيستشيرك في أمره. فقال جبرئيل: يا ملك الموت، أما ترى أبواب السماء مفتحة لروح محمد؟ أما ترى الحور العين قد تزينت لروح محمد؟ أما ترى الملائكة صفوفًا صفوفًا لاستقبال روح محمد؟ فنزل جبرئيل، ودخل على النبي عليه السلام، وقال: السلام عليك يا رسول الله، إن الله يقرئك السلام، وهو مشتاق إليك. فقال عليه السلام: يا جبرئيل إن ملك الموت

استأذني في قبض روحي، فاستمهلتته حتى تهبط عليّ فأستشيرك في أمري. فقال جبرئيل: يا محمد، إن ملك الموت ما استأذن على أحد قبلك، ولا يستأذن على أحد بعدك. فقال النبي: ما تقول يا أخي جبرئيل؟ فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾^(١)، لقاء ربك خير لك. فقال النبي: لقاء ربي خير لي، لا تبرح يا أخي جبرئيل حتى يأتي ملك الموت. وإذا بملك الموت قد نزل، وقال: السلام عليك يا محمد، فقال النبي: وعليك السلام يا ملك الموت، امض لما أمرت به.

فكان جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، ورأسه في حجر علي، وملك الموت قابض لروحه، وجبرئيل يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٣). فقال النبي: عند الشدائد لا تحذلني يا أخي جبرئيل. فقال جبرئيل: يا ملك الموت، لا تعجل على روح محمد، حتى أعرج إلى ربي وأهبط. فقال ملك الموت: قد صارت نفس محمد في موضع لا أقدر على تأخيرها. فقال جبرئيل: يا محمد، هذا آخر هبوطي إلى الدنيا، إنما كنت أنت حاجتي فيها، فالآن أصعد إلى السماء ولا أنزل أبداً.

وفاضت نفس محمد المقدسة ورأسه على صدر علي، ويده تحت حنكه الشريف، ففاضت نفسه فيها، فمسح علي بها وجهه وهو يبكي. ثم وجهه إلى القبلة، وأغمض عينيه، وصعدت الروح الطاهرة إلى بارئها؛ لتستقبل حياة الخلد في جنة الله الواسعة.

(١) الضحى: ٤ - ٥.

(٢) الزمر: ٣٠.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

ويبلغ النبأ بضعته الطاهرة الزهراء، فتهبّ مدهولة من شدة الصدمة العنيفة التي فجعتها، فتضج بالبكاء والعيول، وهي تردّد: «واأبتاه، وا محمداه». وتعيش فاطمة المأساة بكل أبعادها، فقد رحل عنها دفء المودة والحنان.. رحل عنها الحبيب محمد، ولحق بالرفيق الأعلى، وتركها من بعده يتيمة حزينة، لا تجد إلى العزاء سبيلاً، قد أذهلها المصاب الفادح، وما أفاقت إلا وقد تمت البيعة لأبي بكر، فجمعت كيائها، وتحاملت تسعى إلى قبر الحبيب، وما تقوى قدماها على حملها، حتى إذا بلغت - وقد أخذ الأسى مأخذه منها - وقعت على القبر تبكي، فأخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء، ثم راحت تشمّها، وهي تقول متفجعة:

ماذا على من شمّ تربة أحمد	ألا يشم مدى الزمان غواليا
قل للمغيّب تحت أطباق الثرى	إن كنت تسمع صرختي وندائيا
صبت عليّ مصائب لو أنها	صبت على الأيام صرن لياليا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي	ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
فإذا بكيت قمريّة في ليلها	شجنأ على غصن بكيت صباحيا

تجهيز الرسول ودفنه

مات محمد بن عبد الله يوم الاثنين - كما هو المشهور بين الرواة - ليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة النبوية، وقد بلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً، وقضى منها ثماني سنوات مع جده عبد المطلب، وسبع عشرة سنة في بيت عمه أبي طالب، وخمساً وعشرين سنة في بيت خديجة بنت خويلد زوجته الأولى، وبقي بعد عمه وزوجته ثلاث سنين - وهي التي سماها بأعوام الحزن - وهاجر إلى

المدينة، وأقام بها عشر سنين، وكانت وفاته في أوائل العام الحادي عشر. فما أعظمه من يوم على الأمة الإسلامية! لقد فقدوا فيه أعظم نعمة عرفتها الإنسانية، فقدوا الفضل الكبير، والروح العالية؛ فأعظم بيومه يوماً، وأعظم به فقيداً، فالرزء به جلل، والمصاب به فادح، لقد اختار النبي الرفيق الأعلى على الخلود في هذه الدنيا التي امتلأت بالفتن والجور والطغيان.

وفي هذا اليوم نفسه - وقبل أن يغسل - اتجه أصحابه لإقامة خليفة يعهد بشؤون المسلمين، وإقضاء وصي رسول الله عن مركزه القيادي ودوره الطبيعي في الأمة الإسلامية، ونبذوا العهد الذي عاهدوا الله ورسوله يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، في حينه أن أهل الرسول قد انشغلوا بتجهيزه للرحلة الطويلة، فاجتمع حول جسده الطاهر ابن عمه علي بن أبي طالب، وعمه العباس، وابنه الفضل، وغيرهم من بني هاشم الذين فدوه بكل ما يملكون من مهج وأموال يوم تألبت عليه قوى الشر من قريش والعرب في مكة المكرمة لتمنعه من أداء واجبه القدسي، ونشر دين الله، فقام علي بغسله، والعباس يصب الماء عليه، والفضل بن العباس وأسامة بن زيد يناولانه الماء من وراء الستر، والنبي يقبل نفسه على المغتسل. وكان علي يشم ريحاً طيبة تعبق منه فيقول - كلما صب عليه الماء -: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً».

وبعد أن غسّله وحنطه، وكفنه ووضعته على سريره، وقع الخلاف في مكان دفنه، فقال المهاجرون: ننقله إلى مكة؛ لأنها مسقط رأسه. وقال آخرون ننقله إلى بيت المقدس مدفن الأنبياء. وقال الأنصار: في المدينة دار هجرته.

فقال أمير المؤمنين: «إن الله سبحانه وتعالى لم يقبض روح نبي في مكان إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه، وأني لدافن رسول الله في حجرته التي قبض فيها؛ لما روي

عنه ﷺ: «الأنبياء يدفنون حيث يموتون». فسلم الناس بذلك ورضوا، فحفر له لحداً في بيته، ووضع السرير على شفير القبر، وخرجوا عنه ساعة.

ثم عاد علي وعمه العباس، وصليا عليه، وكبرا خمساً، كما أمر ﷺ، ثم نادى علي من في المسجد من بني هاشم والمهاجرين والأنصار ممن لم يحضر السقيفة وقال لهم: «إن رسول الله إمامنا حياً وميتاً، فأدخلوا للصلاة عليه فوجاً فوجاً».

فيدخلون ويقفون بإزاء جثمان الرسول الأعظم، ويتلو عليهم علي هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١). ويردد من حضر الآية نفسها، ثم يأمر علي ببقية المسلمين بالدخول على رسول الله جماعة جماعة يرددون الآية نفسها، وكانت تلاوة هذه الآية على الرسول هي بمثابة الصلاة عليه. ثم تولى علي وأهل البيت مواراته في قبره الشريف، وقد فات الكثير الصلاة عليه؛ لاشتغالهم في أمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

وبعد دفنه ازدادت أتراح فاطمة الزهراء، وأخذت الأسى مأخذه من نفسها - ولا سيما عندما رأت أن من كان أبوها يكافح ويناضل من أجل مستقبلهم قد ارتدوا على أدمعهم إلى جاهليتهم الأولى، ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم، كما جاء في رواية البخاري وغيره، فراحت تنشد الأبيات المحزنة لتتعزى بها:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها فاختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا
أبدت رجال لنا فحوى صدورهم لما مضيت وحالت بينك التراب
تهضمتنا رجال واستخف بنا لما فقدت فكل الإرث مغتصب
وكنت بدرأ منيراً يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتب

قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا فمذ فقدت فكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا إذ لا سواك لنا تجلى به الكرب
إننا رزينا بما لم يرز ذو شجن من البرية لا عجم ولا عرب
فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت منا العيون بتهمال لها سكب

أخلاق الرسول ﷺ

لقد خص الله نبيه محمداً ﷺ بكريم الطباع ومحاسن الأخلاق؛ من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤتته غيره، ثم ما أثنى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١). والخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة. وحقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب، ويسمى أدباً. قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

سئل عبد الله بن المبارك عن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وعن أبي الدرداء قال: قال النبي محمد ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المرء يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليغضن الفاحش البذيء».

وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق؛ ليلبغ به درجة صاحب الصلاة والصيام».

وقيل: إنما سمى الله خلق نبيه عظيماً؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، ويدل عليه قوله ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق».

قال مسروق بن الأجدع: «دخلت على أم المؤمنين عائشة، فقلت لها: حدثيني بأخلاق رسول الله ﷺ، فقالت: أألسن رجلاً عربياً تقرأ القرآن؟ قلت: بلى».

قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ وصفه القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وفي التهذيب عن إسحاق بن جعفر عن الإمام علي عليه السلام قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بُعِثْتُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِهَا»^(٢).
وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله: «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»^(٣).

فكان رسول الله يعمل في بيته، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه، ويعجن العجين، ويكنس البيت، ويحمل بضاعته من السوق، ويجلس على الأرض مع العبيد، وينام على الحصير، ويناول السائل حاجته بيده. وإذا دخل مجلساً يجلس حيث ما انتهى به المجلس، فيجيء الغريب، فلا يدري أيهم النبي، حتى يسأل. وكان ﷺ يقول لأصحابه: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ مَجْلِسًا، فَلِيَجْلِسْ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ».

وفي رواية أخرى، وكان ينام على الأرض، ويخفف النعل، ويرقع الثوب بيده، ويحلب الشاة، ويعقل البعير، ويطحن مع الخادم، ويعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويأكل ما يجد، ويلبس ما يجد، ويركب ما أمكنه من فرس أو بعير أو بغلة أو حمار، ويردف خلفه، وربما ركبه عارياً بلا سرج، ويمشي، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين. وكان لا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه. وكان أكثر الناس تبسماً، وربما ضحك من غير قهقهة، ولم يكن شيء أبغض إليه من الكذب، إلى غير ذلك من الفضائل وكريم السمائل.

(١) القلم: ٤.

(٢) الأماي (الشيخ الطوسي): ٥٩٦ / ١٢٣٤. وفيه بحذف إسحاق بن جعفر.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٤١ / ١٠٨. وفيه باختلاف.

دخل عليه رجل في حاجة، فرأى عظمة النور الذي في وجهه، فأرعد، فقال:
«هون عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القد».

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنابة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يركب يوم خيبر ويوم قريظة ويوم النضير على حمار مخطوم بحبل من ليف، تحته إكاف من ليف.

وفي (الإرشاد): كان رسول الله ﷺ يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ولا يمنع الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويسلم على من استقبله من غني وفقير، وكبير وصغير، ويقول: «التسليم على الصغير؛ لتكون سنة من بعدي».

وكان إذا افتقد الرجل من أصحابه سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

هذا هو رسول الله الذي قرن اسمه باسم الله في الصلاة، وعلى المنابر والمآذن، ودانت بأقواله آلاف الملايين في مشارق الأرض ومغاربها. لقد قرن الله ذكر الرسول بذكره، فلا يذكر إلا ويذكر معه؛ فليس خطيب، ولا متشهد، ولا مصلاً، ولا مؤذن، ولا مقيم إلا ينادي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». وقد أخذ الله على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به. وقال حسان بن ثابت:

وَضُمَ إِلَهُ اسْمِ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قِيلَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذَّنَ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّه فذو العرش محمود وهذا محمد

فضل الصلاة على النبي محمد ﷺ

قال القرطبي في تفسيره: أمر الله عامّة عباده بالصلاة على نبيه محمد دون أنبيائه؛ تشریفاً له في حياته وبعد مماته. ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.

ويقول الزمخشري: فإن قلت: الصلاة على رسول الله واجبة أم مندوب إليها؟ قلت بل واجبة. وقد اختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره؛ لما جاء في الحديث قال ﷺ: «من ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليّ، فدخل النار فأبعده الله». ويروى أنه قيل له: يا رسول الله، أرايت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(١) فقال ﷺ: «هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به، إن الله وكلّ بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكته جواباً لدينك الملكين: آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكته جواباً لدينك الملكين: آمين».

صفة الصلاة عليه

يقول محمد جواد مغنية في كتابه (أهل البيت): قالت الشيعة الإمامية: تجب الصلاة على محمد وآله في التشهد، وتبطل الصلاة بتركها، واستدلوا بالآية ٥٦ من سورة (الأحزاب)، معطوفاً عليها الحديث الذي رواه البخاري في كتاب

(١) الأحزاب: ٥٦.

الدعوات باب الصلاة على النبي، وهذا نصه: قيل لرسول الله ﷺ: كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وقال أبو حنيفة ومالك: لا تجب ولكنها تستحب، وقال الشافعي: تجب الصلاة على محمد، وشدّد الشافعي، فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة، وقال: الصلاة على محمد وآله جزء من الصلاة المفروضة على جميع عباده، فلا تصح بدونها صلاة أحد من المسلمين، بل لا بدّ لكل من عبد الله بفرائضه أن يعبد في أثنائها بالصلاة عليه كما يعبد بالشهادتين. وهذه منزلة تعنو لها وجوه الأمة، وتخضع أمامها الأبصار. ومما نسب إليه قوله:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي محمد ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم.

وروى الدار قطني عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم».

روى مالك عن أبي مسعود الأنصاري قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١)، قال بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال:

«قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وفي (الدر المنثور) قال: لما نزلت هذه الآية جاء رجل إلى النبي محمد ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وفي كتاب (ثواب الأعمال) عن أبي الحسن قيل له: ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمنين على نبيه محمد ﷺ؟ فقال: «صلاة الله على نبيه رحمة ورضوان من الله له، وصلاة الملائكة تزكية واستغفار له، وصلاة المؤمنين دعاء وتعظيم منهم له».

قال سهل بن عبد الله: الصلاة على محمد من أفضل العبادات؛ لأن الله تولّاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليست كذلك، فمن أراد أن يسأل الله فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يحتتم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما. وعن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: الدعاء يحجب دون السماء حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ، فإذا جاءت الصلاة على النبي ﷺ رفع الدعاء.

ثواب الصلاة عليه

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، فصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني».

وعنه ﷺ قال: «من صلى عليّ في كتاب لم تنزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب».

وأخرج البخاري مرفوعاً أنه قال: «من صلى عليّ عند قبري وكلّ الله به ملكاً يبلغني، وكفي أمر دنياه وآخرته، وكنت له شفيحاً أو شهيداً يوم القيامة».

وعن القاضي أبي بكر قال: لما نزلت الآية: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) أمر رسول الله أصحابه أن يسلموا عليه، وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا عليه عند حضور قبره، وعند ذكره.

وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه قال: إن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر يُرى في وجهه، فقلت له: يا رسول الله، إنا لنرى البشر في وجهك. فقال: «إنه أتاني جبرئيل، فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما يرضيك يا محمد أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً؟».

وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد يسلم عليّ إذا مت إلا جاءني سلامه مع جبرئيل، يقول: يا محمد، هذا فلان ابن فلان، يقرأ عليك السلام، فأقول: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته».

وفي رواية: «إن الله وكلّ بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلّها فلا يصلي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال: يا رسول الله، إن فلان ابن فلان صلى عليك».

وعنه ﷺ أنه قال: «من زارني بعد وفاتي، وسلّم عليّ رددت عليه السلام عشراً، وزاره عشرة من الملائكة كلّهم يسلمون عليه».

وعنه أيضاً أنه قال: «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده، ويسلم عليه إلا استأنس به ورد عليه السلام».

ويدل على هذا ما جرى عليه عمل الناس قديماً، وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، فلولا أنه يسمع ذلك، ويتنفع به لم يكن فيه فائدة، وكان عبثاً. يقول الشيخ شعيب في (الروض الفائق):

من زار قبر محمد	نال الشفاعة في غد
بإله ذكره	وحدثه يا منشدي
واجعل صلواتك دائماً	جهداً عليه تهتدي
فهو الرسول المصطفى	ذو الجود والكف الندي
وهو المشفق في الوري	من هول يوم الموعد
والحوض مخصوص به	في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا	ما لاح نجم الفرقد

أمهات الرسول ﷺ

«أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سليم».

حديث شريف.

يقول الشاعر:

يا دار منتجع الرسا لة بيت مختلف الملائك
يابن الترائك والأرا ئك والفواطم والعواتك
افتخر رسول الله ﷺ بجذاته قاصداً به التنبيه على شرف هؤلاء النسوة،
وفضلهن على غيرهن، فقال ﷺ: «أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من
سليم». والعاتكة في كلام العرب: الطاهرة، فأراد ﷺ بذلك توضيح طهارة
النسب النبوي الشريف من دنس الآباء ودناءتهم، وعهر الأمهات وفسادهن، فلا
يكون في أجداده وجذاته سفاح وزناء.

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(١)،
قال: «أصلاب النبيين، نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير
سفاح من لدن آدم».

وقد اختلف الناس في عدد العواتك والفواطم من جداته ﷺ، فمنهم مقل،
ومنهم أكثر، فقال بعض: عدد الفواطم عشر، وأقلهن ثلاث:

١ - فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب عليه السلام.

٢ - فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، أم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

٣ - فاطمة بنت زيد بن الأصم، أم خديجة بنت خويلد زوج الرسول العظيم ﷺ.

والعواتك أربع عشرة، وأقلهن ثلاث:

١- عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان، أم عبد مناف.

٢ - عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم بن عبد مناف.

٣- عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان، أم وهب بن عبد

مناف بن زهرة والد آمنة أم النبي الأكرم ﷺ.

فالأولى عممة الثانية، والثانية عممة الثالثة، وبنو سليم يفخرون بهذه الولادة، كما

كان النبي محمد ﷺ يفخر بهن فيقول: «أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سليم». وفي ذلك يقول الشاعر:

يا منبع الأسرار يا	سر المهيمن في الممالك
يا قطب دائرة الوجو	د وعين منبعه كذلك
والعين والسين التي	منها تلقنت الملائك
ما لاح صبح للهدى	إلا وأسفر عن جمالك
يابن الأطائب والنجا	ئب والفواطم والعواتك
أنت المؤمن والرجا	أنت الأمان من المهالك
أنت الصراط المستقيـ	م قسيم جنات الأرائك
النار مفزعها إليـ	ك وأنت مالك أمر مالك

يقول الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه - يمدح الرسول الأكرم ﷺ، كما جاء

في (نهج البلاغة) -: «عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، ونسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمره لا تنال. بعثه الله عز وجل على فترة من الرسل رحمة للعالمين، فبلغ رسالته، وجاهد في الله حق جهاده، فهو أفضل الخلق، وأشرف الرسل، وخير الأنبياء. أمته خير الأمم، وملته أشرف الملل، صاحب الخلق العظيم، والعقل الكامل الجسيم، والنسب الأشرف، والعلم الأنفع، والعقل الأرفع».

يقول فيه حسان بن ثابت:

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وعلمي أنه لم يخلق

ويقول البوصيري:

خلقت مبراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
وأجمل منك لم تر قط عيني وأعظم منك لم تلد النساء

النبي أفضل الأنبياء

اجتمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض؛ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^(١)، ففي هذه الآية تفضيل لبعض الرسل على بعض، وفيها بيان علو مقامهم، ودلالة على التفضيل الواقع بين الأنبياء، ففيهم من هو أفضل، وفيهم من هو مفضل عليه، وللجميع فضل. فالرسالة في نفسها هي فضيلة مشتركة بين الجميع، والاختلاف في المقامات؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾، وفي الدرجات، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

فاشتركوا في الصحبة، وتباينوا في الفضائل؛ بما منحهم الله من المواهب والوسائل. فالاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات، وتفاضل في الدرجات مع اتحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد. أما النبوة في نفسها، والتي هي خصلة واحدة، فلا تفاضل فيها، إنما التفاضل في أمور أخرى زائدة عليها كالخصوصيات والكرامات والمعجزات.

وقد اختلف المفسرون في المراد من الجملتين: قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ و﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾؛ فقيل: المراد من ﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾: نبي الله موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

وقيل: المراد به: رسول الله صلى الله عليه وآله لما كلمه الله تعالى ليلة المعراج، فقال تعالى:

(١) البقرة: ٢٥٣.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، المراد: نبينا محمدًا ﷺ؛ لأن الله رفع درجته على الناس أجمعين، وفضّله على الأنبياء والمرسلين، وبعثه إلى عامّة الخلق أجمعين؛ وذلك لوجوه، منها إرساله إلى الناس كافة، بينما غيره من الأنبياء يرسل إلى قومه فقط، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢). يعني بذلك محمدًا ﷺ، فرفع درجته بتفضيله على جميع الرسل، وبعثه إلى الخلق كافة، وجعله رحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، فلما كان رحمة للعالمين، لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

وجعله خاتم الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤)، فإذا كان خاتم النبيين، وجب أن يكون أفضل النبيين؛ لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

وقرن ذكره بذكره، فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٥)، فلقد قرن الله ذكر الرسول بذكره، فلا يذكر إلا يذكر معه، فلا خطيب، ولا متشهد ولا صاحب صلاة، ولا أذان، ولا إقامة إلا وهو يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». يقول حسان:

وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمَوْذَنَ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّهَ فِذْوَ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

(١) النجم: ١٠.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

(٥) الشرح: ٤.

و قرن طاعته بطاعته، فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١).
 و قرن بيعته ببيعته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٢).
 و قرن عزته بعزته فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾^(٣).
 و قرن رضاه برضاه، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(٤).
 و قرن إجابته بإجابته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(٥).

و قرن محبته بمحبته، فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٦).
 فيلزم أن يكون محمد ﷺ أفضل الأنبياء، وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع؛ فأمته خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧)، وإنما نالت أمة محمد هذه الفضيلة بمتابعة محمد ﷺ.

و مما يدل على أفضلية رسولنا محمد ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى كلما نادى نبياً في القرآن الكريم ناداه باسمه، فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا

(١) النساء: ٨٠.

(٢) الفتح: ١٠.

(٣) المنافقون: ٨.

(٤) التوبة: ٦٢.

(٥) الأنفال: ٢٤.

(٦) آل عمران: ٣١.

(٧) آل عمران: ١١٠.

(٨) الأعراف: ١٩.

(٩) القصص: ٣٠.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْكِتَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٣). أما نبينا فناداه ربه بأفضل الألقاب إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ وذلك يفيد الفضل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(٤)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٦).

فنبينا محمد ﷺ أفضل الأنبياء، وأشرف الأنبياء، ومعجزته أفضل من معجزات سائر الأنبياء، فمعجزته القرآن، وهي من جنس الأصوات والحروف، وهي أعراض غير باقية، ومعجزات سائر الأنبياء من جنس الأمور الباقية، فجعل الله معجزة محمد باقية إلى آخر الدهر، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية. فرسولنا أفضل من سائر الأنبياء، ودينه الإسلام ناسخ لجميع الأديان؛ لأن الناسخ أفضل من المنسوخ.

في (الأمالي) عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: خلق الله جل وعلا مئة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله، ولا أفر». وعنه ﷺ أنه قال: «أنا سيد ولد آدم، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول من يأخذ حلقة باب الجنة فيفتح

(١) الصفات: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ٥٥.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) التحريم: ٩.

(٥) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٦) المائدة: ٦٧.

لي فأدخلها ومعها فقراء المؤمنين».

وروى البيهقي (في فضائل الصحابة) قال: كان النبي جالساً في بيت عائشة، فظهر علي بن أبي طالب، فقال النبي ﷺ: «هذا سيد العرب». فقالت عائشة: ألسنت أنت سيد العرب؟ فقال: «أنا سيد العالمين، وهو سيد العرب»^(١).

روى مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي - ولا فخر - : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت أنا إلى كل أبيض وأسود وأحمر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة، ولم يجد الماء فليتيمم وليصل حيث كان. وأحللت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر؛ فإن العدو يربح مني على مسيرة شهر. وأعطيت الشفاعة فأدخرتها لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله». فوجه الاستدلال صريح في أن الله فضله بهذه الفضائل على غيره.

(١) كذا الحديث، مع أن له عائشة ما لرسول الله ﷺ، فهو عائشة سيد العرب والعجم.

من معجزات الرسول ﷺ

عن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ، فبينما رسول الله في مسجده يخطب الناس على منبره يوم الجمعة؛ إذ دخل علينا أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادعُ الله أن يقينا الغيب. وأنشد يقول:

أتيتك والعذراء يدمي لبانها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة من الجوع ضعفا قائماً وهو لا يخلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والعلهز الغسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل
قال: فرفع النبي يديه إلى السماء وقال: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً
غرقاً، عاجلاً غير أجل، نافعاً غير ضارّ، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحيي به
الأرض بعد موتها».

يقول الراوي: فو الذي نفسي بيده ما رد النبي يديه من الدعاء حتى أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء، وإن الرجل منا ليهمه الرجوع إلى أهله حتى أتينا منازلنا، واستمر المطر من الجمعة إلى الجمعة.

فجاء أهل البطانة يصيحون: يا رسول الله، الغرق الغرق، تهدمت البيوت، وهلكت الماشية فادعُ الله لنا. فقام النبي يجر رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على

الأكام ومنابت الشجر».

يقول: «فوالله ما استتم كلامه حتى انجاب السحاب عن المدينة، وأحدق بها كالإكليل، فتبسم رسول الله حتى بدت نواجده، وقال «الله درّ أبي طالب، لو كان حياً لقرّت عيناه، فمن ينشدنا قوله؟». فقام الإمام علي بن أبي طالب وقال: «يا رسول الله، كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى العمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
تطوف به الهلاك من آل هاشم	فهم عنده في نعمة وفواضلِ؟»
فقام رجل من كنانة، وأنشد يقول:	
لك الحمد والحمد ممن شكر	سقيننا بوجه النبي المطر
دعا الله خالقه دعوة	إليه وأشخص منه البصر
فلم يك إلّا كقلب الرداء	وأسرع حتى رأينا الدرر
دقاق العزالي عم البقاع	أغاث به الله علينا مضر
وكان كما قاله عمّه	أبو طالب أبيض ذو غرر
به الله يسقي صيوب الغمام	وهذا العيان كذاك الخبر
فمن يشكر الله يلق المزيّد	ومن يكفر الله يلق الغير

وعن أنس بن مالك قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، فاستصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وكان لا يدخل عليه أحد الحائط إلا شد عليه يريد قتله، حتى هلك زرعهم، وعطش نخلهم، فجاء إلى رسول الله يشكو حاله إليه. فقال لأصحابه: «قوموا بنا إليه».

فذهبوا جميعاً حتى أتوا الحائط، فقال للأنصاري: «افتح الباب». فاشفق الأنصاري على النبي وقال: «إني أخاف عليك صولته. فقال النبي: «لا عليك، افتح

الباب». فلما فتح الباب، وأحس البعير بفتح الباب، أقبل هائجاً كالكلب المسعور، فلما أبصر النبي ذرفت عيناه، وأقبل يعدو حتى برك بين يدي النبي، يمرغ وجهه عند أقدامه، فأخذ رسول الله بناصيته، وأعادته إلى عمله مطيعاً سامعاً، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل، تسجد لك، نحن أحق أن نسجد لك؟ فقال: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد دون الله، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد دون الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

وذكر محمد بن إسحاق عن قتادة بن النعمان قال: أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فجاء إلى رسول الله وهو يبكي، وقال: يا رسول الله، إني حديث عرس، وتكره زوجتي أن تراني على هذه الحالة. فأخذها النبي بيده، وأعادها إلى محلها، ومسح عليها، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت.

ولما وفد ولده عاصم على الخليفة عمر بن العزيز بن عبد الملك، سأله: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذي سألت على الخدّ عينه فردت بكف المصطفى أحسن الردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسنها عيناً ويا حسن ماخذ

جوامع كلام رسول الله ﷺ

«لقد أعطيت جوامع الكلم».

حديث شريف

إليك بعض ما جاء من كلام الرسول الأعظم ﷺ الذي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) من حكم وآداب، ونصائح وإرشادات دينية ودينيوية، فإن أفضل الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها. فمن جوامع كلمه ﷺ:

حرف الألف

«أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى».

«آفة العلم النسيان».

«إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة».

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

«الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

«أكثر أهل النار المتكبرون».

«أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو

(١) النجم: ٣ - ٤.

ولد صالح يدعو له».

«إمطة الأذى من الطريق صدقة».

«أنزلوا الناس منازلهم».

«أدبوا أولادكم على حب علي».

«إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

«إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن

نفسه».

«إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقلل إنا لله وإنا إليه راجعون».

«إذا أفطر أحدكم فليفطر على التمر؛ فإنه بركة، فإن لم يجد التمر فليفطر على

الماء؛ فإنه طهور».

«إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها،

دخلت الجنة».

«إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: أمر ابن آدم

بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت في النار».

«أرواح المؤمنين جنود مجندة فما تآلف منها ائتلف وما تخالف منها اختلف».

«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».

«أفضل الجهاد كلمة حق بين يدي سلطان جائر».

حرف الباء

«البحر طهور ماؤه، حل ميتته».

«بروا آباءكم تبرّكم أبناءكم».
«البخيل من ذُكرتُ عنده ولم يصلِّ عليّ».
«بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

حرف التاء

«تخيروا لنطفكم؛ فإن العرق دساس».
«اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».
«التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر».

حرف الجيم

«الجنة تحت أقدام الأمهات».
«جبلت القلوب على حب من أحسن إليها».
«الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق».

حرف الحاء

«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».
«الحكمة ضالة المؤمن».
«حسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار».
«حب للناس ما تحب لنفسك».
«حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء».

حرف الخاء

- «خير الناس أنفعهم للناس».
- «خير الغناء غنى النفس، وخير الزاد التقوى».
- «خيركم من لم يترك آخرته لديناه».
- «خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره».
- «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».
- «خير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع».

حرف الدال

- «داووا مرضاكم بالصدقة».

حرف الراء

- «رأس الحكمة مخافة الله».
- «رحم الله من قال خيراً فغنم، أو صمت فسلم».

حرف السين

- «استعينوا على حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود».
- «استعف عن السؤال ما استطعت».
- «سرك أسيرك فإذا أفشيتته صرت أسيره».

حرف الشين

- «شر المكاسب الربا، وشر المآكل أكل مال اليتيم».
- «شر الناس من باع آخرته بدنياه، وشر منه من باع آخرته بدنياه غيره».
- «شر الندامة ندامة يوم القيامة».
- «اشرب الماء مَصّاً ولا تشربه عبّاً».

حرف الصاد

- «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».
- «الصبر ستر من الكروب، وعون من الخطوب».
- «صدقة السر تطفى غضب الرب».

حرف الطاء

- «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».
- «اطلبوا العلم ولو في الصين».
- «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

حرف العين

- «عش ما شئت؛ فإنك ميت، وأحبب من شئت؛ فإنك مفارقه، واعمل ما شئت؛ فإنك مجزي عليه».
- «أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام».
- «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»^(١).

(١) هذا الحديث شريف مروى في بعض مصادرنا عن الإمام الحسن عليه السلام، وفي بعضها عن

حرف القاف

«قليل يكفيك خير من كثير يرزيك».
«قلماً يوجد في آخر الزمان درهم حلال، أو أخ يوثق به».
«قيدوا العلم بالكتابة».

حرف الكاف

«كن عالماً أو متعلماً، ولا تكن الثالث فتهلك».
«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

حرف اللام

«لا فقر أشد من الجهل».
«لولا الأمل ما أرضعت أم ولدها، ولا غرس غارس شجراً».
«لا يلدغ المؤمن جحر مرتين».
«لو تكاشفتن ما تدافنتن».

حرف الميم

«من تواضع لله رفعه الله».

الصادق عليه السلام.

(١) يقول الشاعر:

فكلُّكم راعٌ ونحن رعيّة وكلّ يلاقي ربه فيحاسبه

- «من أحب أن يكون أعز الناس، فليثق الله».
- «ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه».
- «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يثلمه».
- «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً».
- «من أعان ظالماً على ظلمه، سلطه الله عليه».
- «من أفتى بغير علم فقد ضلّ، وأضلّ».
- «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار».
- «ما للمرء من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو وهب فأمضى».
- «من قُتل دون ماله مات شهيداً».
- «من غشّ فليس منا».

حرف النون

- «نعم المطية الدنيا، فارتحلوها تبلغكم الآخرة».
- «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب».
- «نهيئكم عن القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

حرف الهاء

- «الهدية تورث المحبة، وتزيل الأحقاد».

حرف الياء

«يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل»^(١).

«يد الله مع الجماعة».

«اليد العليا خير من اليد السفلى».

(١) يقول الشاعر

لا يبصر النور إلا من له بصرٌ ولا الفضيلة إلا من له قدمٌ

ما بعد النبي محمد ﷺ

عاشت يثرب أكثر من عشر سنين في أسعد أيام وأجلها وأطهرها، فقد رعتها يد الوحي طيلة هذه الأيام التي رعت هي فيها رسالة السماء، ودافعت عنها، ودفعت في سبيلها أبهظ الأثمان؛ لكي تعيش الرسالة وتسود وتخلد. وانضمت مكة هي الأخرى إلى أختها يثرب في رعاية الرسالة الخاتمة. وبانضمام مكة إلى أختها يثرب في رعاية الرسالة سقط آخر وثن وطاغوت في الجزيرة العربية كلها، وأجلي آخر شيطان من أرض الجزيرة لتنمو فيها شجرة الإيمان، تروىها يد الوحي المقدس.

ووطد محمد ﷺ الأمن، وثبت أركان العقيدة، وأوضح معالم الرسالة مجملها وتفصيلاتها، حيث أعلن المشرع الأعلى سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).
وبإعلان السماء نبأ إكمال التشريع، وإتمام وارتضاء الإسلام منهجاً خالداً للأرض، باتت محافل الأرض تتوقع نبأ جديداً يحمل الأسى في طياته.. نبأ انتهاء السفارة.. سفارة محمد ﷺ في الأرض؛ لأن دوره هذا - حسب تصريح القران الكريم - قد أوشك أن ينتهي؛ لتبقى تعاليمه التي غرسها، ولتبقى مدرسته التي أسسها تعمل عملها، وتؤدي مهمتها وفاعليتها في خلق الإنسان الرسالي الكريم. وقد تأكد هذا من قرائن شتى كان بضمنها خطبة الرسول ﷺ الجامعة التي

ألقاها بعد عودته من حجة الوداع، وضمّنها كل ما حوته الرسالة المقدسة من أسرار ومعالم، وقوانين وأحكام، وطالبهم مطالبة أكيدة بالالتزام بها، ثم أكد إمامة علي ليقوم بمهمة التنفيذ لهذه الرسالة على الصعيد الاجتماعي والسياسي.

وهذه المبادرة الجديدة من الرسول اكدت لمحافل الأرض أن القائد المنقذ لا بد مفارق، وباتت الأذان تتسمع النبا، وراحت القلوب تنبض نبضات كلها رعب ومخاوف، وما أن انصرم أكثر من شهر واحد من السنة الحادية عشرة من الهجرة إلّا وألمت بالقائد محمد حمى شديدة رافقته أربعة وعشرين يوماً، وبدأت صحة الرسول تنهار يوماً بعد يوم، وما هي إلّا لحظات تنصرم حتى تعلن الأرض نبأ وفاة محمد... نبأ انقطاع الوحي عن الأرض، بل افتقاد المنقذ والمحرر للإنسانية.

نعم، لقد ودّعت الأمة قائدها محمداً ﷺ، فانقطع الوحي عن زيارتها، ولم يبق لديها إلّا أن تلتزم بحبل الله الوثيق: كتاب الله العزيز، وعتره فقيدها الغالي محمد ﷺ؛ لأن أهل البيت هم ترجمان الوحي، والصورة الحية للرسالة الإسلامية. ولكن هذه الأمة فوجئت بإعصار من المحن كاد أن يجل بها قارعة لولا رحمة الله سبحانه بها.

وقد كان في طليعة هذه المحن الكثار التي هزت كيان الأمة إقصاء وصي رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عن مركزه القيادي، ودوره الطبيعي في الأمة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما عوملت بضعة المصطفى هي الأخرى معاملة قاسية، فبدلاً من أن تكفكف السلطة الجديدة دموع فاطمة، وتضمّد جراحها بعد ما ألمّ بها من ألم وكآبة بعد فقدانها لركنها الوثيق أبيها محمد ﷺ، فبدلاً من ذلك فإن السلطة الجديدة وقفت من فاطمة موقفاً مخزياً ترك في جبين الأمة لطحّة سوداء إلى يوم القيامة؛ لأن فاطمة التي أراد لها الرسول أن تكون

مدرسة ومانراً تشعّ على العالم الهداية والنور، أصبحت تعيش تحت وطأة التعسف والهوان بعد أبيها.

لقد توالى الأحداث على فاطمة الزهراء بعد وفاة أبيها رسول الله. ويحدّثك التاريخ بالعجب العجاب: فيروي لك قصة (الردة) التي شملت الغالبية العظمى من المسلمين حين راحوا يصرفون الخلافة عن صاحبها الشرعي الذي أكد الرسول الأعظم ﷺ على خلافته وولايته شؤون المسلمين بعده، ذلك هو علي بن أبي طالب عليه السلام. ويروي لك منازعة فاطمة في حقها من فدك، ويجري عليه حكم التأميم الجائر، فتشهد لها بحديث الفرد: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

ويقص عليك قيادة علي بعمامته إلى الجامع؛ ليباع أبا بكر. ويتحدث لك عن إضرار النار في دار فاطمة حتى يخرج علي للبيعة، فيقال لمن أمر بالإحراق: إن في الدار فاطمة. فيقول: وإن؟ مما حدا بشاعر النيل حافظ إبراهيم أن يتغنى بها في عمريته التي هي من عيون شعره في ديوانه المطبوع، ويعتبرها مفخرة من مفاخر السلف يشيد بها الخلف:

وقولة لعلي قالها عمرٌ أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرق دارك لا أبقي عليك بها إن لم تباع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص بقائلها يوماً لفارس عدنان وحاميتها

وينبئك بكل شيء من هذا القبيل، وأنت واجم ذاهل اللب لا تدري أحلم ما تسمعه أم حقيقة؟ ألم يقل رسول الله في علي: «هذا وصي وخليفتي فيكم»، وإن علياً منّي بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي؟

ألم يسمعوا قوله في فاطمة: «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني

فقد آذى الله؟

أفلم تنزل فيها وولديها آيات وآيات؛ فمن آية التطهير، إلى المباهلة، إلى آيات الأبرار، إلى آية المودة في القربى إلى آية الصدقة، أو يكون لهم حق الاجتهاد في مقابل هذه الكثرة من النصوص المتواترة؟

تفيض روح محمد ﷺ، فترى فاطمة السماء غير السماء، والأرض غير الأرض، والأناس غير الأناس. وتزيد أتراح فاطمة، ويأخذ الأسي مأخذه من نفسها، فتمضي إلى قبر أبيها تنشد عنده الأبيات المحزنة؛ لتعزى بها عند قبر أبيها:

قد كان بعدك أنباء وهنثثة لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إننا فقدناك فقد الأرض وابلهما واختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا
وكل أهل له قربي ومنزلة عند الإله على الأذنين مقترب
أبدت رجال لنا فحوى صدورهم لما قضيت وحالت دونك التراب
تهضمتنا رجال واستخف بنا لما فقدت فكل الإرث مغتصب
وكنت بدرأ منيراً يستضاء به عليك تنزل من ذي الغرة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا فغبت عنا فكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما مضيت وحالت دونك التراب
لقد رزينا بما لم يرز ذو شجن من البرية لا عجم ولا عرب
فسوف نبكك ما عشنا وما بقيت منا العيون بيهتان له سكب

لقد كان بالإمكان أن تخف لوعة فاطمة على أبيها، لكن الذي حل محل أبيها في الحكم والتوجيه لم يحل محل أبيها بالعطف، بل حل بالعنف، ولم يحل بالتؤدة، بل حل كما أراد هو لا كما أراد أبوها.

ولعمري إنها فترة جداً قصيرة بين وفاة النبي ووفاة بضعته، لا تتجاوز على -

أكثر التقادير - التسعين يوماً، ولكنها كانت فترة ثقيلة على الزهراء جداً رفعت فيها لواء المعارضة، ولم تكن معارضتها عبثاً أو اندفاعاً وراء عاطفة، وإنما شهدت الحق يُسحق بالأقدام، فراحت تبذل جهدها لمناصرته وإعلائه على الملأ؛ ولذلك هبت فاطمة تطالب بالإرث لا لتحصل على الإرث، بل لتتخذ مجتمعاً لا يزال يهجع في الذل، ويرضى بالاستكانة.

إعلان المعارضة

برزت فاطمة الزهراء تمثل دورها، فكانت كشعاع الشمس الدافئ ولكنه حارق، وكانت كحد السيف رهيف ولكنه قاطع. أي فرق بين البطولة التي تجلّي بها علي أمير المؤمنين في دفاعه عن الرسالة، وبين البطولة التي تجلّت بها فاطمة - أم أبيها - في دفاعها عن الحق أمام الخليفة في ساحة المسجد؟

لقد حدّث الرواة أنه لما بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فداكاً وضعت خمارها على رأسها، وغادرت بيتها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تحرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ، حتى دخلت على أبي بكر في المسجد - وقد حشد المهاجرين والأنصار وغيرهم - فضربت بينها وبينهم ملاءة، فجلست ثم أنت أنه أجهش لها القوم بالبكاء والنحيب، وارتج المسجد بمن فيه، ثم أمهلت طويلاً، حتى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم بدأت تلقي حججها بأسلوب ملؤه حكمة وروية.

خطاب في باحة المسجد

افتتحت الكلام بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد، وصلت على أبيها

رسول الله ﷺ، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفادت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزائها، وثنى بالندب على أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في الفكر معقولها، الممتنع عن الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفتها، ومن الأوهام كيفيتها، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امثلها، كوّنوا بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تشبيهاً لحكمته، وتنبهياً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنته.

وأشهد أن أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتبه، واصطفاه قبل أن ابتعثه؛ إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله بتأويل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير رحمته، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنازل الله بأبي محمداً ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلّى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العمية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق

المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبضة رافة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد ﷺ من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على نبيه، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

ثم التفتت إلى أهل المسجد وقالت: «وأنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحمله دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم الله فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدٍ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيئاته الجالية، وجمله الشافية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، ومناة في العدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازن تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعتق. وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

حَقَّ تَقَاتِيهِ وَلَا تَمُوتَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ﴿٢﴾.

ثم قالت: «أيها الناس، اعلّموا أي فاطمة، وأبي محمد، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣). فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقدة الكفر والشقاق، وفهتتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله بأبي محمد ﷺ بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني بيهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (٤)، أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في هواتها، فلا ينكفى حتى يظأ صماخها بأخمصه، ويحمد لهبها بسيفه،

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) التوبة: ١٢٨.

(٤) المائدة: ٦٤.

مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله ﷺ، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم على رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنيبه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إيلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، فلم تجهدون في وقد جهرتني بأبي حتى تشتعل، وتوسعون جرح قلبي به ولما يندمل؟ ابتداراً زعمتم خوف الفتنة: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١)، فهيها منكم وكيف بكم؟ وأنى تؤفكون؟

وهذا كتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه باهرة، وأعلامه زاهرة، وزواجه لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣). ثم لم تلبثوا إلا ريشما تسكن نغرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون من جمرتها،

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) آل عمران: ٨٥.

وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله في السراء والضراء، ونصبر منكم على مثل حز المدى، ووخز السنان في الحشا، وكيف لا وأنتم الآن تزعمون أن لا أرث لي من أبي؟ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١)؟ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته.

أيها المسلمون، أغلب على إرثي؟ يابن أبي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٢)، أفعلی عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؛ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾^(٣)؟ وقال فيما اقتص من خبر يحيى ابن زكريا، إذ يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾^(٤)، وقال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٥)، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾^(٦)، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٧).

أزعم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا؟ أفخصكم الله بأية أخرج أبي منها، أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونها

(١) المائة: ٥٠.

(٢) مريم: ٢٧.

(٣) النمل: ١٦.

(٤) مريم: ٥ و٦.

(٥) الأحزاب: ٦.

(٦) النساء: ١١.

(٧) البقرة: ١٨٠.

مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك ونشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تدمون: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١) ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٢).

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار وقالت: «يا معشر الفتية، وأعضاء الملة، وحصنة الإسلام، ما هذه الغميمة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون: مات محمد؟ فخطب جليل استوسع وهيه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأديلت الحرمة عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفئيتكم، وفي ممساكم ومصبحكم، يهتف في أفئيتكم، هتافاً وصراخاً، وتلاوة وأحاناً. ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣).

إيهاً بني قيلة، أهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومبتدئ ومجمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا

(١) الأنعام: ٦٧.

(٢) الزمر: ٤٠.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتكم الكد والتعب، ناطحتم الأمم، وكافحتم البهيم، فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأثرون، حتى إذا آذرت بنا رحي الإسلام، ودرّ حلب الليالي والأيام، وخضعت نعة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين. فأنى حدثم بعد البيان، وأسرتهم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان؟ ﴿بؤساً لقوم﴾ نَكثُوا أَيَانَهُمْ وَهُمْ أُوَّاءُ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُوُّكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

ألا وقد أرى أن قد اخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتهم من الضيق بالسعة، فمجتهم ما وعيتهم، ودسعتهم الذي تسوغتم، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ كَمِيدٌ﴾ ﴿٢﴾.

ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والعدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، وبثة الصدر، ونفثة الغيظ، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها، دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، مسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بـ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٣﴾. فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ

(١) التوبة: ١٣.

(٢) إبراهيم: ٨.

(٣) الهمزة: ٦ - ٨.

يَنْقَلِبُونَ ﴿١﴾، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ ﴿٢﴾،
﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٣﴾.

أي شيء نغر بفاطمة الزهراء إلى ساحة المسجد؟ هل هو عبث، أو اندفاع وراء عاطفة؟ كلا، لكنها شهدت الحق يُسحق بالأقدام، فراحت تبذل جهدها لمناصرتة، وإعلائه على الملأ. لقد واجهت الصديقة الزهراء حادثتين بعد فقد أبيها محمد ﷺ كانا بمثابة العاصفة الهوجاء التي ألمت بالأمة الإسلامية بعد قائدتها محمد ﷺ.

نقض الوصيتين

أولاهما: وصية الخلافة، أي إقصاء الإمام أمير المؤمنين عن مركزه القيادي في الأمة الإسلامية؛ لأن إقصاء علي عن دوره الطبيعي في الأمة لم يكن مجرد تغير إنسان، وإنما كان بمثابة خروج عن الخط الذي رسمته السماء لأهل الأرض.

تأميم قرية فدك من قبل الحكومة القائمة

ثانيها: وصية الإرث. فما إن ودّعت الأمة الإسلامية قائدها الحبيب محمد ﷺ حتى أعلنت الحكومة الجديدة على لسان زعيمها أبي بكر نبأ تأميم فدك، وإعادتها إلى ملكية الحكومة بعد أن كانت لفاطمة الزهراء في وقت قد صدر فيها حكم إلهي على لسان محمد بن عبد الله الذي وهبها الزهراء تطبيقاً لقوله تعالى:

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) فصلت: ٥.

(٣) هود: ١٢٢.

﴿وَأْتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(١). فوصية أبيها الموصي قد نقضت، وفدك نحلة أبيها إليها قد قطعت عنها، فراحت متلفعة بوشاحها الأسود نحو باحة المسجد.

ولم يكن تصرف فاطمة بالإقدام والمطالبة في باحة المسجد على ملام من المسلمين عن اقتناع أن حقوقها بالإرث ستعود إليها. فلا علي ولا فاطمة كانا مقتنعين بنجاحهما باسترجاع فدك، وفاطمة كانت تعلم تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، ولم تكن فاطمة تطلب أرضاً فيها نخيل، إنها كانت تطالب بإرث آخر فيه عزّة النفس.. فيه أصالة الحق.. فيه عنفوان الرسالة.. فيه امتداد أبيها. هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد، فهل كانت المطالبة بفدك غير المطالبة بالخلافة للإمام علي؟ وهل اقتطاع فدك من يد فاطمة غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة؟

لذلك هبت فاطمة تطالب بالإرث، لا لتحصل على الإرث، بل لترهف حساً جماعياً لا يزال يرضى بالذلّ، ويرضى بالاستكانة، فما هي الرسالة؟ أخذوها للاستعمال ولم يأخذوها للاكتمال، أخذوها أداة ولم يأخذوها صفوة أناة. فألم فاطمة لم يكن مصدره موت أبيها أكثر مما كان مصدره أن رسالة أبيها ما إن عاشت حتى دخلت في حشجة، وأن الذين يغتصبون خلافة ليس كثيراً عليهم أن يغتصبوا قطعة أرض. هذه هي حقيقة البيت الذي يطالب بفدك.. يطالب بها لا ليزيد لنفسه ثروة، بل ليزيد متانة الإسلام، ويزيد من أعمال البر وتفريق الحسنات على كل هؤلاء الذين يعيشون في الجزيرة على مجاعة الفكر، ومجاعة الروح. هذا هو إعلان المعارضة، لم تكن مسألة فدك، إنها مسألة الخلافة التي تمسّ الدستور الإسلامي بالصميم.

وحين تحفّق المطالبة تعود فاطمة إلى منزلها كئيبة، تجد علياً في انتظارها، يتوقع رجوعها إليه، ويتطلع طلوعها عليه، فلما استقرت بها الدار جعلت تتحدث لعلي بحرقة أظهرت فيها غضبها وسخطها على الحكم القائم، وقالت: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الضنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل. هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي، وبلغه ابني، لقد أجهد في كلامي، وألفيته ألدّ في خصامي، حتى حبستني قبلة الأنصار نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، ولا ناصر ولا شافع. خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت جدك، افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كفت قائلاً، ولا أغنيت عائلاً، ليتني - ولا خيار لي - متُّ قبل ذلتي، وتوفيت قبل منيتي.

عذيري الله منك عادياً وفيك حامياً، ويلاه في كل شارق، ويلاه في كل غارب، ويلاه مات المعتمد، ووهن العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربي، اللهم أنت أشد منهم قوة وحولاً، وأشد بأساً وأشد تنكيلاً».

فتألم علي لحديثها، وراح يستعمل كل ما في وسعة للتخفيف عن غضبها وألمها، فقال لها: «لا ويل عليك يا ابنة سيد المرسلين، بل الويل لشانئك، نهني عن وجدك، يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة. فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدن البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد الله لك أفضل مما زوي عنك. فاحتسبي الله واصبري». فقالت: «حسبي الله». وأمسكت.

فلئن سكت فم المعارضة عن إعلان ما يجيش في ضمير فاطمة، فقد نطق منها لسان الدموع، ولسان الدموع أقرح للقلب وأدمى للعين.

إن المآسي المتتالية، والصدمات العنيفة التي واجهت الزهراء - وهي لا تزال في

مقتبل شبابها - تركتها مهيضة الجناح، طريحة الفراش، تشكو ألماً من ضلعها المكسور، وتذكر حقها المغصوب، وبيتها المحروق، وتذكر إقصاء زوجها عن منصبه الشرعي - الخلافة - الذي هو به أحق، ولا تنسى قيادتهم إياه بعمامته إلى الجامع وهي تندب خلفه. تتذكر كل ذلك، فتنعكس أمام عينيها صورة مظلمة، فتبكي وتتحسر من أعماق قلبها الذي صار يشناق لقاء والدها العظيم.

وتزداد صحة فاطمة سوءاً يوماً بعد يوم، فتوصي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن يدفنها ليلاً، وألاً يعلم أحداً بذلك، ولا يسمح لمن آذاها وأسخطها بالصلاة عليها وتشيعها.

وفي ظلمة الليل البهيم حيث العيون نائمة، والأصوات هادئة، خرج موكب ملائكي من بيت علي يحمل وديعة رسول الله إلى مثواها الأخير. لك الله يا أم الحسين، يا ابنة النبي، يا زوجة علي، يا سيدة نساء العالمين.

سلبيات إقصاء الخلافة عن علي عليه السلام

لو قدر للخلافة بعد وفاة النبي محمد ﷺ أن تأخذ طريقها المستنير الذي عينه رسول الله ﷺ، لما حلت تلك الأحداث المؤسفة في الإسلام، ولما حدث التناحر المرير بين المسلمين... ذلك التناحر الذي لا يعلم بانقضائه إلا الله. لقد كانت شهوة الحكم، وحب الرياسة قد استولت على طباع القوم، فأجمع رأيهم على صرف الخلافة عن أهلها، وكان المهياً لها الإمام علي عليه السلام.

يقول طه حسين في (الفتنة الكبرى): وكان كل شيء يرشح علياً للخلافة: قرابته من النبي ﷺ، وسابقته في الإسلام، ومكانته بين المسلمين، وحسن بلائه

في سبيل الله، وسيرته التي لم تعرف العوج، وشدته في الدين، وفقهه بالكتاب والسنة، واستقامة رأيه. ولكن ما إن فاضت روح محمد ﷺ، واشتغل علي بإعداد الجثمان لوضعه في مثواه الأخير - ومعه نفر من أهل البيت المفجوعين - حتى اجتمع نفر من الأصحاب في سقيفة بني ساعدة، وأبرموا فيها العهد، وخرج القوم ظافرين بمبايعة أبي بكر بالحكم، والنبي مسجى في فراش الموت، لم يغييه عن عيون القوم مثواه بعد.

وانطلقت العترة بعد موارة النبي ﷺ، ومعها خيار الصحابة وأعلام الدين، وهم يشجبون استئثارهم بالأمر، ويذكرونهم الدار الآخرة، ويجذرونهم مغبة الأمر، وما تنتجها هذه المباغيات والفلتات من المضاعفات السيئة التي يتغير بها مجرى الحياة الكريمة في الإسلام، فكان الرد عليهم: لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد.

وهو منطق رخيص لا يساعده الدليل في جميع أحواله، لماذا لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت الوحي، ومعدن العلم، ومهبط الملائكة؟ وما هو القصور في العترة الطاهرة عن تحمل المسؤولية وقيادة الأمة، وهي من دون شك لو تولت زمام الحكم بعد النبي ﷺ لو فرت للمسلمين جميع ما يحتاجون إليه، ولحققت لهم في هذه الحياة العدل الاجتماعي، والعدل السياسي، وأوجدت الفرص المتكافئة لجميع المواطنين؟

إنه ليس هناك من عامل سوى الحسد والأنانية التي أترعت بها نفوس القوم، فأقصوا العترة الطاهرة عن الخلافة، وقد فسحوا بذلك المجال للأسر المعادية للإسلام والباغية عليه أن تغزو المنصب الديني الأعلى، وأن تنزو على منابر المسلمين، وتتحكم في رقابهم، وفي مصيرهم باللسان والسيف والقلم.

لقد أنتجت عملية فصل الخلافة عن أهل البيت أن يؤول أمر المسلمين إلى معاوية بن أبي سفيان، وإلى ابنه يزيد، وإلى مروان والوليد، وأن يكون الولاة على الأقاليم والأمصار الإسلامية أمثال سمرة بن جندب، وبسر بن أرطاة، وزباد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وأمثالهم وأشباههم من البغاة والجلادين الذين تنكروا للإسلام، وسحقوا جميع مقدساته ونواميسه. وقد أثبتوا - من خلال ملاحظة نشاطهم السياسي والإداري - أنهم يحاولون تصفية الحساب مع المسلمين، باستعبادهم، وإخضاعهم للذل والعبودية، وإشاعة المنكر والفسوق والإثم في بلادهم. هذا بالإضافة إلى ما صبّوه على العترة الطاهرة من القتل والصلب والتشريد، وسبي ودائع النبوة، وكرائم الوحي، فلم تُرَع فيهم حرمة النبي ﷺ، ولا ذمام الإسلام الذي ألزم بوّدهم واحترامهم.

كل هذه الفجائع والمآسي كانت ناجمة من دون شك عن فصل الخلافة عن أهل البيت، وعزل أهل البيت عن القيادة العامة هو الذي حدا بمعاوية أن يعهد إلى لجان الوضع التي أغراها بأمواله وسلطانه أن تروي في بعض الصحابة كل ألوان التقديس والثناء، وتجعلهم في مستوى النبوة وفوق مستوى المسلمين، وأنهم لا يؤاخذون على ما يقولون، ولا يحاسبون على ما يفعلون وإن كان ذلك خلاف الحق.

يقول المحدث ابن عرفة المعروف بنفطويه: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية؛ تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم. وقد كتب معاوية إلى جميع عماله مذكرة جاء فيها: إن الحديث قد كثر في عثمان، وفشا في مصر وفي كل ناحية، فإذا جاءكم كتابي فادعوهم إلى الرواية في أبي بكر وعمر، فإن فضلها وسوابقها أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة

أهل هذا البيت، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله. ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا واثتوا بمناقض له في الصحابة. فقرأت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكثرت لجان الوضع، وانتشر الكذب على النبي محمد ﷺ، وكان ذلك من أعظم الوسائل التي اعتمد عليها معاوية بن أبي سفيان لتدعيم حكمه، فقد أوجبت تخدير الجماهير، وقتل حركة الثورة في النفوس.

معالم مدينة الرسول

لو قدر للآثار الجليلية التي شهدتها المدينة المنورة منذ الفجر الإسلامي إلى اليوم أن تحتويها أيدي العناية، وتتعاقب في المحافظة عليها لتكون منها على هذه الأرض الخالدة، لأصبحت متحفاً ناطقاً بأعمال الأجيال، ومخلفات القادة والزعماء والأبطال من المسلمين الذين امتلأت بذكرهم كتب التاريخ الطويل، وقد دخلوا سجل الخلود.

نعم، لو قدر ذلك لكانت تلك المآثر رموزاً للبقاء المتجدد، والحياة غير المنصرمة. غير أن مآثرهم لم يُبقِ منها الزمن إلا النزر اليسير. وإن في جميع أنحاء المدينة كثير من الآثار المدرسة في القصور والآطام، والمزارع، والأودية والآبار، والعيون، والقلاع والآجام، والمعابد والمسكن، والقرى والمساجد، والمعالم المختلفة، حتى إنه ليطول بنا الشرح لو عمدنا إلى استعراضها وذكرها، ولكننا نكتفي هنا بأن نستقصي ما هو قائم ظاهر، وما هو بيّن واضح من مشاهد ومناظر ومساجد، وهي الآثار التي من المستحب زيارتها، والوقوف بجانبها استذكراً للبطولة التي أبدتها أصحابها، واستمتاعاً بروحانيتها، وتبركاً بقدسيّتها، ولا سيما المساجد التي بناها رسول الله ﷺ، وصلى فيها، ودعا فيها، أو وقف فيها مجاهداً، أو داعياً؛ لأن مثل هذه المساجد لها مكانة مرموقة في توضيح وتحديد الوقائع التاريخية التي حدثت في عهد النبي ﷺ، كما أنها تساعد في فهم كثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.

ومن أهم وأعظم هذه المعالم: المسجد النبوي الشريف، ومسجد قباء، ومسجد

الجمعة، وغيرها من المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ وأصحابه. ومن هنا فإني رأيت أن أتناول بعض هذه المساجد بالبحث والدراسة تحت عنوان المساجد الأثرية في المدينة، لأتحدث عن أسماؤها وسبب تسميتها ومواقعها، وما يتعلق بها من الوقائع التاريخية؛ سواء منها المساجد التي بناها النبي محمد ﷺ وصلى فيها، أو المساجد التي صلى النبي في مواضعها، واتخذها الصحابة - بعد ذلك - مساجداً؛ حفظاً لهذه المواقع التي صلى فيها النبي وأصحابه، أو المساجد التي بناها الصحابة ثم صلى النبي ﷺ فيها، وقد اهتم الأمراء والأعيان بهذه المساجد الأثرية عمارة وتجديداً وترميمياً وتوسعة.

المساجد الأثرية في المدينة

وفي أول هذه المساجد المباركة المقام العظيم للقائد الإسلامي الأعظم سيد ولد آدم محمد بن عبد الله الخاتم، وهو المسجد المعروف بالمسجد النبوي الشريف، حيث ضريحه الطاهر في الحجرة المباركة، وقبرا الشيخين أبي بكر وعمر. وهناك محلات أخرى للزيارة، مثل بقيع الغرقد، حيث ثوى أربعة أئمة من أهل البيت عليهم السلام، وكذلك كبار الصحابة الأجلاء، وزوجات الرسول الكريم، وبناته، وقبور المؤمنين. إلى ما هناك من مقامات الشهداء؛ كقبر أسد الله وأسد رسوله الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام وشهداء بدر وأحد، وواقعة الحرة. بالإضافة إلى المساجد الأخرى التي لها مكانتها وتاريخها: كمسجد الفتح، ومسجد القبلتين، وهي البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

مسجد النبي ﷺ

لما أذن الله لنبيه محمد ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، دخلها راكباً ناقته، وقد

أرعى لها الزمام، ويقول لمن يرغب في توجيهها: «خلّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة». حتى وصلت دار بني مالك بن النجار، فبركت في مرصد كان لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو، وكانا فلاحين يتيمين في حجر سعد بن زرارة - وقيل: معاذ بن عفراء، وهو المكان الذي يجفف فيه التمر - فابتاعه النبي محمد ﷺ منها بعشرة دنانير من ماله الخاص.

فلما اطمأن الرسول ﷺ إلى امتلاك المسلمين مكاناً عاماً اتجه إلى القيام بعمل معلن عن نهج الإسلام في البناء والتوحيد، فدعا المسلمين بالبدء في إقامة مسجد؛ حتى يتسنى لهم أن يعبدوا الله ويذكروه في أوقات الصلوات، ويجمعوا فيه للقيام بالأعمال التربوية والتثقيفية والسياسية والعسكرية. وكان رسول الله ﷺ أول من ضرب المعول لحفر الأساس، واندفع المسلمون إلى العمل فيه، فكان أول المدارس الإسلامية التي تخرج منها ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١).

فلم يكن هذا المسجد الشريف على عهد رسول الله ﷺ للعبادة فقط، بل كان تلقى فيه كل أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الشاملة للأُمور التربوية، والتعاليم الدينية والعلمية.

ويسير العمل فترة قصيرة من الزمن يستوي بعدها المسجد قائماً بناءً متواضعاً بسيطاً، لا تعقيد في بنيانه، ولا زخرفة ولا نقش في جدرانه، ولا يتجاوز سبعين ذراعاً طولاً، ولا يقل عن ستين ذراعاً في عرضه. وكان تحيط به جدران لا يزيد ارتفاعها عن قامة الرجل إلا قليلاً. وكان له أبواب ثلاثة:

الباب الأول: من جهة الجنوب حيث كانت القبلة وقت بناء المسجد إلى بيت

المقدس - جهة الشمال - ولما حوّلت القبلة في السنة الثانية من الهجرة إلى الكعبة المكرمة، سدّ الباب الجنوبي، وفتح آخر من الشمال.

والباب الثاني: من جهة الغرب، ويسمى باب الرحمة.

والباب الثالث: من جهة الشرق، ويسمى باب جبرئيل، وهو الباب الخاص بدخول النبي ﷺ، لا يدخل منه أحد سواه.

وجعل في أحد جوانبه ظلة من الجريد على قوائم النخل سميت «الصفة»، وقد خصصها الرسول الكريم لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يمتلكون مسكناً، فلقّبوا بـ «أهل الصفة».

وهاهنا تكمن ناحية من نواحي السمو في فكر الرسول الأعظم الذي بنى جامعاً للمسلمين، وفي الوقت نفسه يفكر بالفقراء، فيجعل لهم فيه مكاناً يأوون إليه.

وفي نهاية الجدار الشرقي خارج المسجد بنى داراً لزوجته سوداء بنت زمعة، وبعد أن أراد الزواج من عائشة بنى لها داراً.

وهكذا كان ﷺ كلما تزوج بأخرى بنى لها داراً. وبنى لعلي داراً، وأشرع بابه إلى المسجد، وكذلك بنى حمزة بن عبد المطلب وبعض الصحابة لهم منازل حول المسجد، وكلّ مشرع له باباً إلى المسجد. فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد يأمره عن الله عز وجل بسدّ كل من له باب إلى المسجد إلا باب النبي وباب علي.

فكان أن أوجد هذا الأمر ضجة عند البعض، وظنوا أن هذا الاستثناء نشأ من سبب عاطفي عند النبي ﷺ، فخطبهم رسول الله ﷺ، وقال: «والله ما أنا سدّدت أبوابكم، ولا فتحت باب علي، ولكن الله سدّ أبوابكم، وفتح باب علي. وإنما أنا عبد مأمور، ما أمرت به فعلت». فكان يدخل المسجد وهو جنب ليس له

طريق غيره.

فأول اهتمامات رسول الله ﷺ في المدينة كان بناء هذا المسجد الذي نعرفه اليوم بمسجد رسول الله ﷺ؛ إذ ما زال هذا المسجد منذ أن وضع الرسول الكريم أساسه قائماً، وسوف يبقى قائماً بإذن الله ومشيتته ما بقي الدهر. ويضم هذا المسجد مصلى رسول الله ومنبره، والروضة الشريفة، والإسطوانات التي لها مناسبات تاريخية، وفيه قبره الشريف الذي لم يختلف في محله اثنان، بل هو لدى الجميع معروف مشهور، كالنور على الطور في الموضع الذي يزار فيه الآن بمسجده الأعظم، في حجرته الطاهرة. فإن وفقك الله، وتفضل عليك بالوصول إلى تلك البقعة المباركة الطاهرة، فلا تتشاغل إلا بما فيه صلاح دينك ودينك، وأكثر من الصلاة على رسول الله، فقد جاء في الحديث الشريف: «من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، ومحا عنه عشر سيئات، وكتب له عشر حسنات».

ومن خلال التوسعات التي تمت على مر التاريخ الإسلامي ضم إليه الحجرة الشريفة التي دفن فيها النبي وصحابه، كما شملت هذه التوسعات بقية حجرات أمّهات المؤمنين، والبضعة الزهراء، وبيوت الصحابة المجاورة للمسجد. وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشدّ الرحال إلا إليها: الحرم المكي، والحرم القدسي، والحرم النبوي، وهي التي جاء فيها الحديث الشريف: «الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي بيت المقدس بخمسة صلاة».

يقول حسان:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تغفو الرسوم وتهمد
ولا تمحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضح آثار وباقي معالم وربع له فيه مصلى ومسجد بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد

الحجرة الطاهرة

تقع الحجرة الطاهرة في النهاية القبليّة للجانب الشرقي في خارج المسجد النبوي الشريف، فقد بناها هناك رسول الله ﷺ في العام الأول من الهجرة بعد بناء مسجده الشريف - عند زواجه من عائشة - بالبن، وسقفها بجذوع النخل، مطررة بالطين، ولا حجر فيها. وجعل بابها مشروعا إلى المسجد. ولما اختاره الله إلى جواره دُفن فيها، وعمره ثلاث وستون سنة؛ منها ست سنوات مع أمه آمنة، وستتان مع جده عبد المطلب، وسبع عشرة سنة في كفالة عمه أبي طالب، وخمس وعشرون سنة في بيته مع زوجته خديجة، وثلاث سنين بقي في مكة بعد وفاة عمه وزوجته، وعشر سنوات في المدينة. وفي العام الحادي عشر من الهجرة اختاره الله إلى جواره ودُفن في الحجرة الطاهرة.

صفة قبر الرسول وأبي بكر وعمر

يقول نافع بن أبي نعيم - كما في (تاريخ الحرمين) لعباس كرازه -: إن قبر النبي محمد بن عبد الله، وقبر أبي بكر وقبر عمر في الحجرة الطاهرة من المسجد النبوي الشريف.

وعن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: رأيت القبور بعد سقوط جدار الحجرة الشريفة، فرأيت قبر النبي ﷺ من جهة القبلة من ناحية الغرب، وقبر أبي بكر في الحجرة نفسها، في الشمال الشرقي عند رجلي النبي بمسافة ذراع عن قبر المصطفى. ويقع قبر عمر بن الخطاب في الحجرة نفسها في الشمال الشرقي عند رجلي أبي بكر

بمسافة ذراع عن قبر سلفه.

وفي (الطبقات) عن طريق الواقدي قال: أوصى أبو بكر عائشة في مرضه أن يُدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، فلما توفي دُفن كما أراد في الحجرة الطاهرة وعمره ثلاث وستون سنة، واسمه عبد الله بن أبي قحافة، ولقبه عتيق، ولد في مكة بعد عام الفيل بستين، وتولى الخلافة في اليوم الذي مات فيه رسول الله بسقيفة بني ساعدة، وتوفي لثمانٍ بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة بعد وفاة الرسول بعامين، ودُفن مع النبي في حجرته الطاهرة بجوار قبر رسول الله. وكانت مدة خلافته سنتين.

وبعد تولى الخلافة عمر بن الخطاب بوصية من أبي بكر - في اليوم الذي مات فيه - وكانت مدة خلافته عشر سنين. ولد به في مكة بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وقتل في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة، طعنه عبدٌ للمغيرة بن شعبة - واسمه فيروز، أبو لؤلؤة المجوسي، وقيل: نصراني - بسكين ذات حدين، فشق بطنه، وقضى عليه، ودفن بجوار سلفه في الحجرة الطاهرة من المسجد النبوي الشريف. وصلى عليه صهيب الرومي، وله من العمر ثلاث وستون سنة. يقول ابن عساکر: وهذه صفتها: قبر النبي محمد ﷺ، قبر أبي بكر، قبر عمر بن الخطاب.

حادثة تتعلق بالحجرة الطاهرة

في كتاب (المدينة المنورة في التاريخ) لعبد السلام هاشم أن هناك حدثاً هاماً وقع حول الحجرة الطاهرة، تجلّت فيه معجزة من معجزات النبوة، وذلك في عام ٧٥٧ هـ، وأمير المدينة يومئذٍ عطية بن المنصور. فقد رأى السلطان نور الدين محمود بن زنكي في منامه شخص رسول الله ﷺ يستغيث به، مشيراً إلى رجلين

أشقري اللون يقول: «أنجدي، أنقذي من هذين».

فاستيقظ مدعوراً، ودعا بوزيره، وقص عليه رؤياه، وأمره بتجهيز الرواحل، وأخذ معه مالا كثيراً، وبعض الرجال، وخرج مع وزيره يقصدان المدينة المنورة، حتى وصلوها بعد خمسة عشر يوماً، وبعد أدائهم واجب الزيارة، أمر السلطان أمير المدينة أن يكتب له أسماء أهل المدينة، ثم طلب إحضارهم وجعل يمنح من المال كلاً بحسبه، ويتفحص وجوههم بدقة، حتى لم يبقَ منهم أحد. فسأل: هل بقي منهم أحد؟ فأخبروه بوجود رجلين مغربيين، وأنها كانا صالحين يكثران من الصدقة على المحتاجين من الناس، وأن الناس تحبها وتثني عليهما؛ لصلاحيهما. فأمر بإحضارهما، فلما نظر إليهما، وجد أن الأوصاف التي أشار بها إليهما رسول الله ﷺ في المنام تنطبق عليهما تماماً، فأمر بحجزهما، وأمر بتفتيش منزلهما - وكان بقرب مسجد النبي ﷺ - فوجدوا عندهما في المنزل بعض الكتب، وخيمتين، وأموالاً كثيرة تثير الشبهة. ووجدوا حصيرة على الأرض، فرفعوها، فوجدوا تحتها سرداباً عميقاً، فنزلوا فيه يتعرفون وضعه، فوجدوه ينتهي إلى الحجرة الطاهرة بالمسجد النبوي الشريف؛ الأمر الذي ارتاع له الناس من فعل هذين المحسنين. فلما استجوبهما السلطان، اعترفا أنهما نصارى، وأن سلطان النصراني أغراهما بالمال، وأرسلهما بزي الحجاج المغاربة بقصد العثور على جثمان الرسول الكريم، ونقله إليه من موضعه. فأمر بقتلهما، وردم السرداب، وصب الرصاص حول الحجرة الطاهرة.

حجرة فاطمة الزهراء

يقع بيت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام خلف حجرة أبيها رسول الله ﷺ التي

فيها مرقده - إلى جهة الشمال - وهو البيت الذي بناه رسول الله ﷺ للإمام علي أمير المؤمنين بعد بناء مسجده الأعظم، وجعل بابه مشرعاً إلى المسجد. ولم يكن له باب غيره، فلما أمر الله نبيه محمداً ﷺ بسد الأبواب المشرعة إلى المسجد، أمره أن يترك باب علي مفتوحاً، فأوجد هذا الأمر ضجة عند البعض، وظنوا أن هذا الاستثناء نشأ من سبب عاطفي، فخطبهم رسول الله ﷺ، وقال: «والله ما أنا سدت أبوابكم، ولا فتحت باب علي، ولكن الله سد أبوابكم وفتح باب علي». فكان يدخل المسجد وليس له طريق غيره.

و بين هذا البيت وحجرة النبي ﷺ جدار واحد يفصل ويجمع؛ ليكون للصديقة في جوار ذلك البيت الكريم جدار تسند إليه رأسها الناعم، فتسمع من خلفه نبض قلب الأب الكبير يخفق حباً وكبراً وحناناً.

لم يكن الجدار الفاصل بين بيتها وبيت أبيها غير سلك تعبر عليه تلك الأشواق المحمومة التي تنهمر عطفاً وضياء من عين أبيها فتستنير بوهجها في نقل خطواتها على الطريق المشوك بكل مسؤولياتها تجاه فروض الحياة في هذا البيت الذي فضلت أن تنتقل إليه فاطمة مع زوجها تيمناً بالجوار، والتصاقاً بالجدار.

لقد تزوجت علياً بعد أن عرض عليها الزواج أبو بكر وعمر، ولكن النبي الكريم كان ينتظر بفاطمة القضاء حتى نزل القضاء. وارتبطت حياة فاطمة بحياة علي بالرباط الذي يجب أن يتقاسم عليه كل زوجين أحكام المصير نعيماً بنعيم، وبؤساً ببؤس. وتقدمت فاطمة إلى ساحة الحياة تحمل على منكبيها أعباء المشاركة. يقول ابن حجر: لقد نقلت الماء في القربة حتى أثرت في صدرها، وطحنت بالرحاء حتى تورمت يداها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى اسودت ملابسها.

هكذا رضيت بتحمل الأعباء مع جسمها النحيل؛ تحقيقاً لأهداف قبلت بها
نفسيتها الجبارة، كيف لا، وهي ليست إلا أم أبيها؟
فإذا وصلت إليها فَصَلَّ عندها ما شئت، وأكثر من الدعاء والاستغفار
والصلاة على أبيها محمد وآله الأطهار. وإن استطعت أن تزورها بالزيارة الخاصة
لها، فلك الأجر والثواب، وستجدها في (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي
المرهون فراجع.

قبر فاطمة الزهراء عليها السلام

اختلف العلماء في موضع قبر الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام؛ فمن قائل: إنها
دفنت في حجرتها خلف مرقد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله حيث دفنها الإمام علي عليه السلام
سراً في جوف الليل بوصية منها بعدم حضور من أذاها جنازتها، والصلاة عليها.
روى الصدوق في (العيون) قال: سئل الإمام الرضا عليه السلام عن قبر فاطمة، فقال:
«دفنت فاطمة في بيتها».

ومنهم من قال: لما قضت فاطمة نحبها، وصعدت روحها إلى بارئها، قام علي
في جهازها - في ظلمة الليل البهيم، حيث العيون نائمة، والأصوات هادئة -
وخرج الموكب الحزين مؤلفاً من عدة أشخاص يُعدّون على الأصابع، يحملون
وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مثواها الأخير بالقيع، ويوارون الزهراء، ثم ينصرفون
بسرعة؛ كيلا يطلع على مكان القبر أحد، ويقوم الإمام برش أربعين قبراً بالماء؛
حتى لا يبين قبرها من بين القبور.

يقول الشاعر متعجباً:

فلأي الأمور تدفن ليلاً بضعة المصطفى ويعفى ثراها

ومنهم من قال: إنها دفنت في روضة المسجد بين قبر النبي ومنبره التي جاء فيها الحديث الشريف: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، وتلعة من تلاعها». وبموتها يأفل أول نجم من نجوم أهل البيت، بعد أن أفلت شمسهم قبل شهرين ونصف. وعمرها يوم وفاتها ثمانى عشرة سنة. أقامت معها مع أبيها في مكة المكرمة عشر سنين، وهاجرت مع أبيها إلى المدينة، وتزوجت علياً، وعاشت معه ثمانى سنين، أنجبت له خلالها الحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم، ووليد العتبات محسناً. وماتت بعد وفاة أبيها بخمسة وسبعين يوماً.

وعلى هذه الرواية تكون وفاتها في الثالث عشر من شهر جمادى الأولى. وفي رواية: عاشت بعد أبيها تسعين يوماً، وعلى هذه الرواية تكون وفاتها في الليلة الثالثة من شهر جمادى الآخرة.

فمن أراد زيارتها، فعليه أن يزورها في هذه المواضع الثلاثة. ويقال: إن الإمام أمير المؤمنين كان يزور الصديقة فاطمة في كل ليلة، ويجلس على شفير قبرها يبكي وينشد، ويقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على ألا يدوم خليل

الروضة المقدسة

تقع الروضة الشريفة المباركة في المسجد النبوي الشريف بين القبر والمنبر، طولها اثنان وعشرون ذراعاً من الشرق إلى الغرب، يحدّها شرقاً جدار الحجرة الطاهرة، وغرباً المنبر، وخمسة عشر ذراعاً من الشمال إلى الجنوب عرضاً. وحدّها البعض من القبر إلى المنبر طولاً، ومن المنبر إلى الإسطوانة عرضاً، وهي البقعة المباركة التي ورد فيها الحديث النبوي الشريف: «بين قبري ومنبري روضة

من رياض الجنة، وتلعة من تلاعها».

يقول ابن الجوزي وغيره: إنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة، وأنها ليست كسائر الأرض تذهب وتفنى.

وقيل: إن البقعة نفسها روضة من رياض الجنة، أكرم الله بها نبيه محمدًا ﷺ، كما أن الحجر الأسود من أحجار الجنة جاء به الأمين جبرئيل إلى خليله إبراهيم حين أمره ببناء الكعبة المشرفة - عندما بلغ إبراهيم ﷺ في بناء الكعبة إلى موضع الحجر - حيث قال لابنه إسماعيل: «أذهب فالتمس لي حجراً أضعه هاهنا يكون علماً للناس يبتدئون به الطواف». فنزل الأمين جبرئيل بالحجر الأسود من الجنة - وكان ياقوتة بيضاء، فسودته خطايا بني آدم - ووضع جبرئيل في مكانه، وبني عليه إبراهيم.

يقول ابن عباس: ولولا مسّه من مسّه من أهل الشرك، ما مسه ذو عاهة إلا شفاه الله، وليكون بينه وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو أنه لما خص الخليل إبراهيم بالحجر الأسود من الجنة خص الله نبيه محمدًا ﷺ بالروضة منها. فإذا وصلت إليها، فصلّ فيها ماشئت، وقل: «اللهم إن هذه روضة من رياض جنتك، وشعبة من شعاب رحمتك التي ذكرها رسولك، وأبان عن فضلها وشرف التعبد لك فيها، قد بلغتنيها في سلامة من نفسي، فلك الحمد يا سيدي على عظيم نعمتك علي، فصلّ على محمد وآل محمد، واغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر يا أرحم الراحمين».

وزد على ذلك ما شئت من حمد وثناء، وتضرع ودعاء، واطلب حوائجك. فإن أردت الزيارة كاملة، فراجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

وفي فضل الروضة يقول الشاعر:

يا صاح إن وافيت طيبة والحرم حرم المدينة من به خير الأمم
صل بروضتها الشريفة واتجه لله في ذاك المقام المزدحم
هذي المدينة وهي أكرم موطن نزل الرسول بها فقبل بالكرم

إسطوانة أبي لبابة

إسطوانة أبي لبابة هي الإسطوانة المعروفة بـ«إسطوانة التوبة»، فإذا وصلت إليها فصل عندها ركعتين، وقل: «اللهم اغنني بالحلل عن الحرام، وبالطاعة عن المعاصي، وبالغنى عن الفقر، وبالجنة عن النار، يا عزيز يا غفار، وصلّى الله على محمد وآله الأطهار». واطلب من الله حاجتك، واستغفر لذنبك، فإنه محل للإجابة. أما الزيارة، فتجدها كاملة في (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ المرهون.

منبر النبي ﷺ

يقع منبر الرسول الكريم على يمين المحراب القديم الموالي للروضة الشريفة، فلا تنس أن تقف عنده، وتترك برؤيته، وتسلم على صاحبه النبي الأمي منقذ البشرية. ليتراءى لك ذلك الرسول العظيم، هادي الأمة، وهو على ذلك المنبر يخطب ويذكر، ويهدي ويبشّر، ويرشد ويحذّر، وينذر ويدبّر، وهو ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^(١)، فتدعو وتسلم، وتصلّي وتستغفر، وتدعو الله بما تشاء.

مقام جبرائيل

يقع مقام جبرائيل على يسار الداخل من باب جبرائيل من الجهة الشرقية

(١) النجم: ٣-٥.

الجنوبية من المسجد المعظم. وهو الباب الذي كان يدخل منه المصطفى، ولا يدخل منه سواه. فإذا بلغت، فَصَلِّ عنده ركعتين، وأكثر من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآله الأطهار، والملائكة المقربين الأبرار، وعلى الروح الأمين جبرئيل، قدوة الأنبياء، وهادي الأصفياء، وسادس أصحاب العباء، من اختاره الله لوحيه وسفارته، وعهده وأمانته، وإنزال كتبه وأوامره على أنبيائه ورسله، وجعله واسطة بين نفسه ونبيه.

اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وعلى جميع ملائكتك، وسكان سماواتك، وأن توفّقني لطاعتك، وترزقني جنتك، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

محراب مسجد النبي ﷺ

محراب - وجمعها محارِب - قال تعالى إشارة إلى نبي الله سليمان بن داود: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ﴾^(١).

والمحراب هو المكان المخصوص بإقامة الصلاة والعبادة من المسجد، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾^(٢).

وسمي محراب المسجد محراباً؛ لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى. وقيل: سمي بذلك؛ لكون حق الإنسان فيه حربياً، أي سلبياً من أشغال الدنيا، ومن نوازغ الخاطر.

والمحراب أصله من المسجد، ويهدي الداخلين إلى المسجد من المسلمين إلى

(١) سبأ: ١٣.

(٢) آل عمران: ٣٩.

معرفة القبلة، وهو موضع يختص به إمام المسجد عندما يؤمّ الناس في الصلاة. فلكل مسجد محرابٌ يتعرف به المصلي على القبلة. فهذا نبينا وقائدنا محمد بن عبد الله لما بنى المسجد الأعظم بالمدينة المنورة، جعل قبلته إلى بيت المقدس من جهة الشمال، وبعد أن أمر بالتحويل إلى جهة الكعبة المشرفة بعد ستة عشر شهراً قضائها يصلي إلى بيت المقدس، لزم أن يحول قبلة مسجده - أي محراب مسجده الأعظم - من بيت المقدس شمالاً إلى الكعبة المشرفة جنوباً.

وهنا نزل عليه الأمين جبرئيل، وأماط له ما بين مكة والمدينة من جبال وتلال وشجر، وقال: «يا رسول، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة». فوضع رسول الله ﷺ قبلته باتجاه الميزاب، وهو ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شيء. ولما انتهى النبي ﷺ من وضع القبلة أو ما جبرئيل بيده، فعاد كل شيء إلى مكانه من جبال وتلال وشجر بقدرة الله تعالى.

فكان رسول الله حليف ذلك المحراب ليله ونهاره، راکعاً ساجداً، مبتهلاً متضرعاً حتى تورمت قدماه. ولما قيل له: يا رسول الله، تفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». فإذا وصلت إليه، فصلّ عنده ركعات، وادعُ الله بما شئت، وتوسل إليه بما أردت، واسأله المغفرة؛ فإنه مكان يستجاب فيه الدعاء.

مسجد قباء

إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإضافتها إلى ذاته العلية تكريماً وتشريفاً لها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(١). ولما كانت المساجد بهذه

(١) الجن: ١٨.

المثابة، ولها المكانة العلية، والمنزلة الرفيعة، خصَّ الله عباده المؤمنين بعمارها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١).

لذا فقد عرف التاريخ الإسلامي اهتمام المسلمين بعمارة المساجد، لاسيما المساجد التي صلى فيها الرسول الأعظم ﷺ بالمدينة المنورة ودعا فيها، أو وقف مجاهداً وداعياً؛ لأن لها مكانة مرموقة في توضيح وتحديد الوقائع التاريخية التي حدثت في عهد النبي محمد ﷺ. واستمر المسلمون على مرّ التاريخ يهتمون بهذه المساجد عمارةً وتجديداً، وترميمياً وتوسعةً، حيث صدرت التوجيهات الرسمية في عصرنا الحاضر بضرورة الاهتمام والعناية بالمساجد عامة، والأثرية خاصة، والقيام على شؤونها بما يتناسب مع مكانتها التاريخية.

ومن أهم وأعظم هذه المعالم: المسجد النبوي الشريف، ومسجد قبا، وهو المسجد الذي نزلت فيه هذه الآية: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾^(٢). ومن هذا نعرف أن لمسجد قبا أهمية تاريخية في الإسلام؛ لأسباب عدة، منها أنه أول مسجد أسسه رسول الله ﷺ في المدينة المنورة عندما وصل إليها مهاجراً من مكة المكرمة، وصلى فيه بأصحابه جماعة مجاهراً، وهو شهير بموقعه المسمى به. كما أنه مذكور في القرآن الكريم، وأنه أول مسجد بُني في الإسلام، وأول مسجد أُسس على التقوى، وأن الصلاة فيه كعمرة، وأنه نقطة بداية التاريخ الهجري.

قال ياقوت الحموي: كان تأسيس مسجد قبا في أول يوم من حلول الرسول

(١) التوبة: ١٨.

(٢) التوبة: ١٠٨.

دار هجرته - وهو أول التاريخ للهجرة النبوية المباركة - ولعلم الله أن ذلك اليوم سيكون أول يوم من التاريخ، سماه أول يوم، فكان ذلك اليوم هو أول يوم التاريخ الذي يؤرّخ به الآن.

وسبب تسميته بمسجد قبا هو وقوعه في موضع قباء - في الجنوب الغربي من المدينة المنورة على بعد ميلين تقريباً، ويستغرق خمسين دقيقة بالمشي المعتدل - بالقرب من عين الأزرق التي أجراها معاوية بن أبي سفيان على يد عامله على المدينة مروان بن الحكم. وكان أزرق العينين، فسميت باسمه «عين الأزرق»، وهي معروفة إلى اليوم عند أهل المدينة بـ«عين الزرقاء».

قال الفيروزآبادي: وقباء مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وهي في الأصل بئر هناك عرفت القرية بها، لكنها الآن أصبحت حياً من أحياء المدينة المنورة.

يقول السمهودي: إن النبي محمد ﷺ لما جاء المدينة نزل بقباء في منزل كلثوم بن الهدم من بني عمرو بن عوف، وأخذ مريده، فأسسه مسجداً، وشاركهم في بنائه. وكان يأتي بالحجر وصهره إليه، وهو أول من وضع حجراً في قبلته، وجبرئيل يؤم به بيت المقدس حتى أسسه، وكان يصلي فيه.

ويقال: إن عمار بن ياسر هو الذي أشار على النبي ﷺ ببناء المسجد، فلما أسسه رسول الله ﷺ أكمله عمار.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة خلف ابن عمه علياً في مكة، وعهد إليه بأداء الودائع، وأوصاه بحمل الفواطم إليه، فأقام النبي في قباء ينتظر قدوم علي والفواطم، فاحتاج إلى مكان يصلي فيه بأصحابه مدة إقامته، فبنى مسجد قباء. ولم يزل هذا المسجد في ذاكرة النبي محمد ﷺ حتى بعد أن بنى مسجده الأعظم؛ فقد كان يأتي إليه، ويصلي فيه ركعات.

يقول ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يذهب إلى مسجد قباء في كل يوم سبت راكباً أو ماشياً، فيصلي فيه، وقال فيه كما جاء عن سهل بن حنيف قال رسول الله ﷺ: «من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلي فيه، كان له كأجر عمرة». ومن هنا فإنه يُسنُّ للإنسان أن يذهب إليه، ويصلي ما شاء، ويدعو الله فيه خير الدنيا والآخرة، ويستحسن أن يقرأ هذا الدعاء: «اللهم كما بلغتنا زيارة نبينا محمد بن عبدالله، ومآثره الشريفة، فلا تحرمنا فضل شفاعته، وارزقنا أتباعه، وأمتنا على محبته، واحشرنا في زمرة وتحت لوائه، واسقنا من حوضه يا كريم». ومن الخير أن تدعو بدعاء الفرج، وهو: «يا من تحل به عقد المكاره». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

وينبغي الدعاء بالتأييد والنصر للإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه): «اللهم كن لوليك الحجة بن الحسن المهدي صلوات الله عليه، في هذه الساعة، وفي كل ساعة ولياً وحافظاً، وقائداً وناصرًا، ودالاً ودليلاً وعيناً، حتى تسكنه أرضك طوعاً، وتمتعه فيها طويلاً برحمتك يا أرحم الراحمين».

وقال النووي: يستحب استحباباً مؤكداً أن يأتي مسجد قبا، وفي يوم السبت أولى، فيصلي فيه، ويقول بعد دعائه بما أحب: يا صريخ المستصرخين، يا غياث المستغيثين، يا مفرج كرب المكروبين، يا مجيب دعوة المضطرين، صلِّ على سيدنا محمد وآله، واكشف كربى وحزنى كما كشفت عن رسول الله ﷺ حزنه وكربه في هذا المقام، يا حنان يا منان، يا كثير المعروف والإحسان، يا دائم النعم، يا أرحم الراحمين.

مسجد الجمعة

يقع مسجد الجمعة في الجهة الشمالية على يمين المتوجه من مسجد قباء إلى المدينة

المنورة من شارع قباء، على بعد نحو كيلو متر، قرب بستان الجزع. ويقال له مسجد بني سالم؛ لوقوعه في حي بني سالم من الأنصار، ويقال له: مسجد الوادي، ومسجد الجمعة؛ لأن النبي ﷺ - كما جاء في الروايات - خرج من قرية قبا متجهاً إلى المدينة المنورة يوم الجمعة - حين ارتفع النهار، وبعد أن اطمأن قلبه بقدوم الفواطم، وسلامة ابن عمه علي - فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف من الأنصار، فصلاها في بطن وادي رانونا - أحد أودية المدينة الشهيرة - فبنى الصحابة مسجداً في موضع صلاته.

إذن لهذا سمي مسجد بني سالم أي لوقوعه في حي بني سالم، وكذلك سمي مسجد الوادي أي لوقوعه في بطن وادي رانونا أحد أودية المدينة، وكذلك سمي مسجد الجمعة؛ لأن النبي ﷺ صلى فيه صلاة الجمعة، وكانت أول جمعة في الإسلام صلاها رسول الله ﷺ في المدينة في هذا المسجد. فإذا وفقك الله إلى الوصول إليه، فصلِّ فيه ركعتين، وادعُ الله بما شئت، وأكثر من الصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد بلال بن رباح

بلال بن رباح - ولد كعبد لرجل من بني جمح - أسلم، والتحق بالرسول الأعظم ﷺ، وعمل مؤذناً لرسول الله ﷺ من العام الأول من الهجرة. وكان قد شهد مع النبي ﷺ مشاهدته كلها، يحمي ويحمي شعائر هذا الدين العظيم الذي أخرجه من الظلمات إلى النور ومن الرق إلى الحرية. مات في العام السابع عشر للهجرة بالشام مرابطاً في سبيل الله، كما أراد.

ويقع مسجد بلال على يسار الذهاب إلى قربان، ويبعد عن باب السلام ستمئة

متر وعشرة. فإذا وفقك الله في الوصول إليه فصلّ فيه ركعات، وادعو الله بما شئت، واستغفره، وأكثر من الصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد القبلتين

يقع مسجد القبلتين في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنورة قريباً من وادي العقيق - غربي جبل سلع - وهو على يمين القادم إلى المدينة المنورة من طريق خالد بن الوليد، ويبعد عن مسجد النبي ﷺ مسافة ساعة مشياً على الأقدام. وسمي مسجد القبلتين؛ لما روي أن النبي محمد ﷺ صلى إلى بيت المقدس فترة من الزمن بعد قدومه المدينة، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة الشريفة أثناء صلاته به.

وذكر ابن سعد أن رسول الله ﷺ زار أم بشير بن البراء بن معرور - في بني سلمة - فصنعت له طعاماً، وجاء وقت صلاة الظهر، فصلى رسول الله بأصحابه في مسجد القبلتين - وكان يسمى مسجد بني سلمة؛ لوقوعه في قرية بني سلمة، وهم بطن من الخزرج - فلما صلى النبي ركعتين، أمر أن يتوجه إلى الكعبة - وكان النبي ﷺ قد صلى إلى بيت المقدس بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً، وكان يجب أن يوجه إلى الكعبة، فنزل عليه الأمين جبرئيل، وهو قائم يصلي الظهر في هذا المسجد، وقد أنهى ركعتين، وأخذ بعضده، وحول وجهه إلى الكعبة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(١)، فاستدار رسول الله ﷺ نحو الكعبة، واستدار من معه من المسلمين، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، وصلوا الركعتين الباقيتين نحو الكعبة.

فكان أول صلواته ﷺ إلى بيت المقدس، وأخرها إلى الكعبة المكرمة، وذلك في العام الثاني من الهجرة، وصلى العصر في مسجده إلى الكعبة؛ فسمي المسجد مسجد القبلتين.

فإذا وفقك الله، ووصلت إليه، فصلِّ ركعات عنده، وأكثر فيه من الدعاء والاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد، وادعُ قائلاً: «خاب الوافدون على غيرك». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

مسجد بني قريظة

يقع مسجد بني قريظة بالمدينة المنورة شرقي مسجد الفضيل قريباً من الحرة الشرقية في الجهة الجنوبية من مشربة أم إبراهيم، وهو الآن بين مستشفى الزهراء والمستشفى الوطني. وسمي بهذا الاسم؛ لأن النبي محمد ﷺ كان يصلي في موضع هذا المسجد أثناء محاصرته لبني قريظة كما جاء في (مجمع الزوائد). فإذا وفقك الله للوصول إليه، فصلِّ ركعات فيه، وادعُ الله بما شئت، وأكثر من الصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد السقيا

يقع مسجد السقيا في منطقة السقيا على بُعد بضعة أمتار من الجهة القبلية من المسجد على يسار الذهاب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية، على طريق الحاج داخل سور محطة سكة حديد الحجازية. يفصل بينها الطريق العام في جهتها الجنوبية، وهو على يمين المتجه من العنبرية إلى مكة على الطريق القديم. وسميت بالسقيا؛ لوجود آبار كثيرة فيها. وقد مرَّ بها رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة بدر في السنة الأولى من الهجرة، واستقى من بئرها، وصلى فيها، ودعا الله لأهل طيبة

بالبركة. فبنى الصحابة في ذلك الموضع مسجداً سمي مسجد السقيا. فإذا وصلت إليه، فصلّ فيه ركعات، وادعو الله بما شئت، واستغفره، وأكثر من الصلاة على محمد وآله.

مسجد الفضيخ

يقع مسجد الفضيخ في الجهة الشرقية من مسجد قباء على بعد نحو كيلو متر واحد على شفير الوادي، على نشز من الأرض، على يمين القادم من مسجد قباء، عند تقاطع شارع قربان مع شارع العوالي. وسمي مسجد الفضيخ باسم بستان هناك يسمى الفضيخ؛ فسمي المسجد باسمه. وقيل: إن سبب تسميته بمسجد الفضيخ هو ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: لما حاصر النبي محمد ﷺ بني النضير، بنى قبته قريباً من موضع المسجد، وصلى فيها ست ليالٍ. وكان أبو أيوب الأنصاري ممن رافق النبي محمد ﷺ في غزوته، وكان مع نفر من الصحابة في مكان المسجد يعاقرون الخمرة قبل حرمتها، فنزلت آية تحريم الخمر على رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا أيوب، فأمر بإراقة الخمر، فعُرف بمسجد الفضيخ عندما بُني؛ إشارة إلى هذا الموقف الرائع للسمع والطاعة.

ويسمى مسجد بني النضير كذلك؛ لأن النبي محمد ﷺ صلى فيه مدة حصار بني النضير. ويسمى مسجد الشمس؛ لوقوعه في مكان مرتفع حيث تطلع عليه الشمس أول ما تشرق. ويقال في سبب تسميته مسجد الشمس: إن الشمس رُدّت فيه للإمام علي بن أبي طالب ؑ بعد غروبها. فقد جاء في الروايات أن النبي محمد ﷺ أدركته صلاة العصر - وهو بقرب مسجد الفضيخ - فدخل المسجد يؤدي فرضه - وكان قد بعث علياً في بعض مهماته - فلم يأت الإمام إلا وقد فرغ

الرسول من صلاته، فلم يكد الإمام يأخذ مكانه إلا وقد غشى الرسول الوحي، فوضع رأسه في حجر علي عليه السلام، فما سرى الوحي عن النبي إلا وقد غربت الشمس.

وكان الإمام لما عرف أن وقت صلاة العصر سينتهي صلاًها إيباءً، فلما استيقظ النبي ﷺ قال - وقد رأى الشمس قد غربت -: «صليت العصر يا علي؟». قال: «كرهت أن أضع رأسك من حجري، فصليت إيباءً». فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم إن علياً كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس ليصلي العصر». فعادت الشمس حتى بلغت نصف المسجد، فقام علي، وتوضأ، وصلى العصر. ولما فرغ من صلاته غربت الشمس بقدره الله تعالى، وقد سُمع لها صرير كصرير الرحي. يقول صاحب الهمزية:

ردت الشمس والشروق عليه لعلني حتى يتم الأداء
ثم ولت لها صرير وهذا لفراق له الوصال دواء
فسمي المسجد مسجد الشمس؛ لأن الشمس رُدَّت فيه لأمر المؤمنين علي بن
أبي طالب عليه السلام.

قال المجد: فهذا المكان أولى بتسميته بمسجد الشمس دون ما سواه.
وحديث ردّ الشمس لعلني حديث صحيح؛ ففي (الإمتاع) أنه جاء عن أسماء بنت عميس من خمسة طرق، وفي (نزل الأبرار) صرح بتصحيحه عامة من الأئمة الحفاظ كالتحاوي، والقاضي عياض في (الشفاء)، وحسنه شيخ الإسلام أبو زرعة، وأخرجه الطبراني بسند صحيح وغيرهم... وردوا على جميع من قال: إنه موضوع. ونظمه الحميري فقال:

خير البرية بعد أحمد من له مني الولا وإلى بنيه تطربي

ردت عليه الشمس لما فاته وقت الصلاة وقد دنت للمغرب
حتى تبلج نورها من وقتها للعصر ثم هوت هوي الكوكب
وعليه قد ردت بابل مرة أخرى وما ردت للخلق معرب
وقال أبو الفضل الميكالي:

من ذا له شمس النهار تراجعت بعد الأفول وقد تقضى المطلع
حتى إذا صلى الصلاة لوقتها أفلت ونجم عشا الأخيرة يطلع
في دون ذلك للأنام كفاية من فضله ولذي البصيرة مقنع
فإذا وفقك الله للوصول إلى هذا المسجد الشريف، فصل ركعات فيه، وأكثر
من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآله.

يقول الحميري:

علي عليه ردت الشمس مرة بطيبة يوم الوحي بعد مغيب
وردت له أخرى بابل بعدما عفت وتدلت عينها لغروب

مسجد البغلة

يقع مسجد البغلة بطرف الحرة الشرقية - في شرق البقيع - وهو على يمين
السالك عن طريق الملك عبد العزيز بالقرب من هيئة المعروف. ويقال له: مسجد
بني ظفر؛ وذلك لوقوعه في منازل بني ظفر من الأوس. وهو أحد المساجد التي
صلى فيها رسول الله ﷺ.

وسمي مسجد البغلة؛ لما روي أن بغلة رسول الله رُبطت هناك، ودخل يصلي
في المسجد، وكان يقربها حجر من جهة القبلة، فتركت حوافرها أثراً في الحجر؛
فسمي المسجد لهذا السبب مسجد البغلة.

وفي الغرب من الحجر الذي عليه أثر حافر البغلة، حجر آخر كان عليه أثر مرفق يقال: إن النبي محمدًا ﷺ اتكأ عليه، فأثر مرفقه الشريف في الحجر. وهناك حجر آخر عليه أثر أصابع يقال: إنها أثر أصابع الرسول الأعظم ﷺ. والناس يهتمون بها؛ لشدة اهتمامهم بتتبع آثار النبي محمد ﷺ ومعجزاته. وكانت المرأة العقيمة تأتي وتجلس على الصخرة طلباً للولد؛ فترزق، وقل أن تجلس عليها امرأة ولم تحمل، كذا جاء في كتاب (وفاء الوفا) للسهمودي. فإذا وفقك الله للوصول إليه، فصل في ركعتين، وأكثر من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد ﷺ وآله.

مسجد الإجابة

يقع مسجد الإجابة في ضاحية المدينة - على مسافة أربعمئة متر شمالي البقيع - على العدو الشرقية لشارع الستين. ويقال له: مسجد بني معاوية؛ لوقوعه في حي بني معاوية بن مالك بن عوف من الأوس.

يقول السهمودي: وهو أحد المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ، ويقال له مسجد الإجابة؛ لأن النبي محمدًا ﷺ دعا الله فيه وطلب ثلاثاً، فأجاب الله دعوتين منها، ومنعه الثالثة؛ لهذا سمي مسجد الإجابة.

روى مسلم بن عامر عن أبيه قال: إن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية بقرية من قرى الأنصار، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، فدعا ربه طويلاً، ثم أقبل علينا، وقال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة: سألته ألا يهلك أمتي بالسنة - أي الجذب - فأعطانيها، وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته ألا يجعل

بأسهم بينهم، فمنعنيها، فلن يزال الهرج^(١) إلى يوم القيامة». ولهذا سمي مسجد الإجابة. فإذا وقَّك الله للوصول إليه، فصلِّ ركعاتٍ، وأكثر من الاستغفار والدعاء بما شئت، ومن الصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد الراية

يقع مسجد الراية في الشمال الغربي من المسجد النبوي الشريف في الشمال من جبل سلع، بينها نحو نصف كيلو متر، وهو أحد المساجد التي صلَّى فيها رسول الله ﷺ. وعنده من الشمال موقع صخرة سلمان الفارسي قريباً من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام. وهي التي ضربها النبي محمد ﷺ بالمعول بعد أن عجز الصحابة عنها في حفر الخندق، فبرق منها برق أضواء ما بين لابتي المدينة، وظهرت قصور مدائن كسرى وقيصر، فأخبره جبرئيل أن أمته ظاهرة عليها، وذلك معجزة للنبي محمد ﷺ وبشرى للمسلمين. ويقال له مسجد ذباب؛ لوقوعه على جبل صغير أسود، يسمى جبل ذباب. يقول الأنصاري: ذباب، أو ذوباب: الجبل الصغير الأسود الذي يواجهك حينما تهبط من ثنية الوداع قاصداً جبل أحد على يسار طريق أحد. ويقال له مسجد الراية؛ لأن يزيد بن هرمزان كان يحمل راية الموالي في موضع ذباب أثناء واقعة الحرة، كما جاء في كتاب (وفاء الوفا).

ويقال: إنها سمي مسجد الراية؛ لأن النبي محمد ﷺ لما أمر بحفر الخندق عند واقعة الأحزاب، ضرب للنبي خيمة على جبل ذباب ليشرف منها على أعمال حفر الخندق، وفي هذه الفترة كان النبي يصلي في تلك الخيمة على جبل ذباب؛ لأنه كان

(١) الفتنة والاختلاف، مختار الصحاح.

كثير الصلاة، فبنى الصحابة مسجداً في موضع صلاته.

وسمي مسجد الراية؛ لأن الرسول محمد ﷺ هو حامل راية الإسلام. وهو أحد المساجد السبعة، وأحد المساجد الأثرية. فإذا وفقك الله في الوصول إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآله.

مسجد العيد

يقع مسجد العيد في ميدان المناخة، وكان فضاءً لم يكن فيه بناء، وهو يبعد عن المسجد النبوي الشريف بنحو نصف كيلومتر من باب السلام. وتفيد الروايات أنه إنما سمي مسجد العيد؛ لأن النبي محمد ﷺ كان يخرج في عيدي الفطر والأضحى إلى ميدان المناخة، ويصلي فيه صلاة العيد، وكذلك صلاة الاستسقاء، وأيضاً صلى فيه صلاة الغائب على النجاشي ملك الحبشة. وفي السنوات الأخيرة اتخذ موضع هذا المكان مسجداً، وسمي مسجد العيد. وأول عيد صلّاه فيه النبي محمد ﷺ في العام الثاني من قدومه المدينة المنورة.

ويسمى مسجد الغمامة؛ لأن النبي محمد ﷺ كان يصلي فيه صلاة الاستسقاء، فأرسل الله غمامة حجبت الشمس عن النبي أثناء صلاته في هذا الموضع، فسمي بمسجد الغمامة. فهو من المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ؛ فإذا وفقك الله للوصول إليه، فصلّ ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار، ومن الصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد أبي ذر

يقع مسجد أبي ذر عند التقاء شارع أبي ذر بشارع المطار، وهو في الجهة الشمالية

من المسجد النبوي الشريف على بعد تسعمئة متر.

ويقال له مسجد السجدة؛ لأن الرسول ﷺ دخله وصلى فيه ركعتين، وسجد شكراً لله، وأطال في سجوده. روي عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ذات يوم متوجهاً نحو صدقته، فمر بمسجد أبي ذر، فدخله، واستقبل القبلة، وصلى ركعتين، وخرّ ساجداً لله، فأطال السجود فيها، فلما انتهى قلت له في ذلك، فقال: «إن جبرئيل أتاني فبشرني أن الله سبحانه وتعالى يقول: من صلى عليّ صلى الله عليه، ومن سلم عليّ سلم الله عليه؛ فسجدت لله شكراً». فسمي بذلك مسجد السجدة.

فإذا وفقك الله للوصول إليه، فصلِّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد مشربة أم إبراهيم

أم إبراهيم هي مارية بنت شمعون القبطية، وهي الجارية التي أهداها إلى النبي محمد ﷺ المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية مع أختها سيرين، وبغلته دلال، وبعض الهدايا - وذلك عندما أرسل النبي محمد ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام في العام الثامن من الهجرة - فعرض عليها الإسلام فأسلمتا، فوهب النبي ﷺ سيرين لشاعره حسان بن ثابت، وتزوج هو مارية، وأنزلها المشربة بالعوالي.

وهي من أموال مخيريق التي هي من صدقاته، فولدت له إبراهيم، وإليها تنسب مشربة أم إبراهيم. توفيت بعد النبي ﷺ بخمس سنوات - في العام السادس عشر من الهجرة - ودفنت بالبقيع. وسميت مشربة باسم البستان الذي هي فيه، قال الهيثمي: المشربة: الغرفة والعلية في البستان. وهي موضع غرفتها، ومسكن

رسول الله ﷺ عندها، ومحل مصلاه هناك.

وتقع مشربة أم إبراهيم بالقرب من مسجد قبا بالعوالي بين النخيل شمال مسجد بني قريظة قريباً من الحرة الشرقية، وهو الآن بين مستشفى الزهراء والمستشفى الوطني. ومن يومها أُقيم مسجد في هذه الغرفة، وظل معروفاً بهذا الاسم: مسجد مشربة أم إبراهيم حتى اليوم بالعالية. فإذا وفَّقك الله للوصول إليه، فصلِّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد.

مساجد الفتح

تقع هذه المساجد - المعروفة بمساجد الفتح - غرب جبل سلع في الساحة المعروفة الآن بالمساجد السبعة. وقد عسكر النبي ﷺ في هذه الساحة أثناء غزوة الأحزاب - كما أفاد ابن سعد - بأصحابه وجنده إلى سطح سلع، وجعل سلعاً خلف ظهره. ومن المؤكد أن رسول الله ﷺ كان يصلي في هذه المساحة أثناء غزوة الأحزاب، ويدعو الله على الأحزاب، كما هو الحال لدى الصحابة الكرام. ولعل عمر بن عبد العزيز في عهده قام ببناء هذه المساجد في أماكن الصلاة حسب خطته المرسومة لبناء المساجد بالمدينة.

واشتهرت هذه المساجد السبعة - كما أطلق عليها المتقدمون - بـ«مساجد الفتح». وتفيد المصادر القديمة أن هذه المساجد السبعة الموجودة في هذه الساحة، والمعروفة بمساجد الفتح هي: مسجد الفتح على قطعة من الجبل، ويليه في القبلة - تحته - مسجد سلمان المحمدي (رضي الله عنه)، ويليه في القبلة جانحاً إلى جهة المغرب مسجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم في النهاية إلى

الجنوب مسجد أبي بكر، ثم مسجد عمر بن الخطاب، ومسجد فاطمة الزهراء - المنسوب إلى سعد بن معاذ - والسابع المعروف بمسجد الراية على قول. كذا جاء في بعض المصادر، ومنها كتاب (المساجد الأثرية في المدينة المنورة) لمحمد الياس عبد الغني.

مسجد الفتح

يقع مسجد الفتح - وهو أحد المساجد السبعة - على قطعة من جبل صغير ملاصقاً لجبل سلع في الغرب منه شمال غرب المدينة المنورة - شمال البقيع - على يسار القاصد إلى وادي العريض. ويسمى أيضاً مسجد الأحزاب؛ لأن النبي محمد ﷺ كان في هذا الموضع يصلي ويدعو الله على الأحزاب أثناء غزوة الخندق، حتى خذلهم الله وانهمزوا. ويسمى أيضاً مسجد الأعلى؛ لوقوعه على جزء مرتفع من الجبل، فلا أحد يصل إليه إلا بدرج.

وسمي مسجد الفتح؛ لأن الله سبحانه وتعالى أنزل فيه الوحي على نبيه محمد ﷺ، لما صلى ودعا، وأخبره بقتل عمرو بن عبد ود على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال ﷺ: «ابشروا بفتح الله ونصره؛ فقد قتل علي عمراً، وانهمز معسكر الشرك والأوثان، وكفى الله المؤمنين القتال بسيف علي». فإذا وصلت إليه فصل ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآله، وادع بدعاء الرسول قائلاً: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

مسجد سلمان الفارسي

سلمان ابن الإسلام، سماه الرسول الكريم سلماناً المحمدي، وكنيته أبو عبد الله،

يقول فيه الشاعر:

أيا سلمان يا من حاز فضلاً وعمّ الناس إحساناً ومنا
ونال بخدمته المختار طه وعترته الأكارم ما تمنى
لقد فقت الورى شرفاً وفخراً لقول المصطفى سلمان منا

يقع مسجد سلمان أسفل مسجد الفتح - من جهة الجنوب - بالقرب من مسجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو من المساجد السبعة التي على جبل سلع المعروفة بمساجد الفتح. وسمي مسجد سلمان؛ لأن سلماناً كان أحد مرافقي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في غزوة الخندق، وصاحب فكرة عمل الخندق - التي اكتسبت المعركة اسمها منه - وكانت أول غزوة شارك فيها سلمان سنة ٥هـ. ويقال: إن النبي محمد صلى الله عليه وآله صلى في هذا المكان أثناء غزوة الخندق، ثم صعد الجبل ودعا الله على المشركين. فإذا وفقك الله بالوصول إليه، فصل ركعتين، وأكثر من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآل محمد، وادع بهذا الدعاء قائلاً: «خاب الوافدون على غيرك». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

مسجد الإمام علي عليه السلام

مسجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أخي النبي ووصيه، ووزيره وخليفته في أمته، وزوج ابنته وأبي سبطيه الحسن والحسين. شهد مع النبي جميع غزواته إلا غزوة تبوك حيث إن رسول الله كان قد خلفه على أهله وبلاده، ولما قال: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والأطفال؟». قال صلى الله عليه وآله: «ألا ترضا أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي».

يقع هذا المسجد في الجنوب الغربي من مسجد سلمان المحمدي، وإلى الجنوب من مسجد الفتح. وقد اتفقت المصادر على تسمية هذا المسجد بمسجد علي، وهو أكبر المساجد السبعة، وثالث مسجد من المساجد الموجودة في رحاب جبل سلع. وهو من المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ. فإذا وفقك الله، ووصلت إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر من الدعاء بما شئت ومن الاستغفار، والصلاة على محمد وآل محمد، وادعُ الله قائلاً: «اللهم إني أسألك بنور وجهك المشرق...». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

مسجد فاطمة الزهراء عليها السلام

مسجد فاطمة الزهراء، البتول العذراء، والأنسية الحوراء، التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إن الله ليغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها». وقال ﷺ: «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن أحبها فقد أحبني، فاطمة قلبي وروحي، فاطمة سيدة نساء العالمين».

توفيت بعد أبيها بأشهر قليلة، ودفنت في مكان مجهول بعد أن عاشت مع علي ثماني سنوات حياة مثالية كانت عنوان الحياة الزوجية، وأنجبت له الحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم، والمحسن الذي أجهضته بعد وفاة أبيها في غمرة الأحداث المؤلمة التي وقعت آنذاك.

يقع مسجد فاطمة في الجنوب الغربي لمسجد عمر بن الخطاب - بقرب عين الخفيف، وتعرف عين شبشب، وقد انقطعت عن الجري - وهو أحد المساجد السبعة التي على جبل سلع - المعروفة بمساجد الفتح - وقد أطلقوا عليه مسجد سعد بن معاذ، ولا أصل لهذه التسمية في ضوء المصادر التاريخية. فإذا وفقك الله

للوصل إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار،
والصلاة على محمد وآل محمد، وادعُ قائلاً: «اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به
مني...». راجع (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون.

مسجد المستراح

مسجد المستراح هو مسجد أثري يقع على يسار طريق الإسفلت المؤدي إلى
مزار سيدنا الحمزة بن عبد المطلب، وإلى جبل أحد عند آخر النخيل.
يقال: إن النبي محمد ﷺ جلس فيه للاستراحة - بعد رجوعه من غزوة أحد
- ويقال له: مسجد بني حارثة - لوقوعه في منازل بني حارثة من الأنصار - وجاء
في (وفاء الوفا) أن النبي محمد ﷺ صلى في هذا المسجد. فإذا وفقك الله،
ووصلت إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار،
والصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد الإمام علي ؑ

يقع هذا المسجد المنسوب لعلي ؑ ضمن المساجد الثلاثة التي صلّي فيها
النبي ﷺ صلاة العيد - وتسمى مساجد المصلى - وهو مسجد كبير، أكبر من
سابقه، ويقع شمالي مسجد المصلى؛ مما يلي الغرب، متصلاً بشامي الحديقة المعروفة
بالعريضي، وهو مسجد أثري. وسبب تسميته بمسجد علي ؑ - كما روى ابن
قتيبة في (المعارف) - أن الإمام علياً ؑ صلى فيه صلاة العيد بعد قتل عثمان،
فعثمان قتل في شهر الحج عام ٣٥ هـ، فأقام للناس في الحج في ذلك العام عبد الله
بن عباس، وصى بالناس صلاة العيد الإمام امير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ.

فإذا وفقك الله ووصلت إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد.

مسجد العدو

يقع مسجد العدو على يمين الخط النازل من سيد الشهداء حمزة، وفي الجهة الجنوبية من مسجد المستراح على بعد ثلاثمئة متر تقريباً. وسمي مسجد العدو؛ لوقوعه على عدوة الطريق. والعدوة - بضم العين وكسرهما -: جانب الوادي وحافته. وفي مختار الصحاح: هي المكان المرتفع.

ويسمى مسجد الشيخين؛ لأنه يقع في موضع «شيخان» بين المدينة وبين جبل أحد على الطريق الشرقية من الحرة إلى جبل أحد.

وهو من المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ، وفي (وفاء الوفا) أنه صلى العصر والمغرب في موضع هذا المسجد، وبات به، وبعد صلاة الصبح سار إلى أحد في النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة حيث كانت واقعة أحد.

وقال الفيروز آبادي: «شيخان» - بلفظ تثنية شيخ -: موضع بالمدينة يقال له ثنية شيخان، وكان فيه معسكر رسول الله ﷺ ليلة خرج لقتال المشركين بأحد، وهناك عرض الناس فأجار من رأى، وردّ من رأى. ويقال له مسجد الدرع؛ لأن النبي محمد ﷺ لبس درع الحرب فيه قبل التحرك إلى موضع الغزوة. فإذا وفقك الله، ووصلت إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد.

بئر الخاتم

يقع بئر الخاتم في المدينة عند كهف بني حزام، في مقابلة المصلى. وكانت تسمى

٢٧٠..... قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

سابقاً «العينة»، ثم نسبت إلى رسول الله؛ فكانت تسمى عين النبي ﷺ؛ لأنه كان يتوضأ منها أيام واقعة الخندق. ثم سُميت بئر الخاتم؛ لأن خاتم النبي ﷺ سقط فيها من يد عثمان؛ فسميت بئر الخاتم. فإذا وفقك الله بالوصول إليها، فتبرك بمائها، وادعُ الله واستغفره، وصلِّ على محمد وآله.

وكذلك بقية الآبار السبعة، وقد نظمها أبو الفرج ناصر الدين المراغي فقال:

إذا رمت آبار النبي بطيبة فعدتها سبع مقالاً بلا وهن
أريس، وغرس، روقة وبضاعة كذا بصة، قل بيرحاء، مع العهن

بئر إهاب

تقع بئر إهاب في الحرة الغربية من المدينة، ويقال لها: زمزم؛ لبركتها؛ لأن رسول الله بصق فيها، فزاد ماؤها وطاب وحلا. وتسمى الآن بئر فاطمة؛ لأن السيدة فاطمة بنت الحسين احترقتها على نفقتها - بعد أن انقطع جريها - فسميت باسمها بئر فاطمة. فإذا وفقك الله للوصول إليها، فتبرك بمائها، وأكثر عندها من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآل محمد.

مساجد أخرى

وهناك بعض المساجد والمحلات الأثرية الهامة في المدينة المنورة ليس لها مصادر عدا الشهرة؛ مثل مسجد المائدة، ومسجد جابر، وحجرة الحسين، وقبر عبد الله بن عبد المطلب - والد رسول الله ﷺ - وقبر إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق ؑ، ومبرك الناقة، وبيت الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، ودار الإمام الرابع علي بن الحسين زين العابدين ؑ، ودار الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق ؑ.

وكثير من الآثار المقدسة - من مساجد ومعالم ومعابد ومساكن - لو قدر لها أن تحتويها أيدي العناية، وتتعاقب في المحافظة عليها؛ لتكوّن منها على هذه الأرض الخالدة متحفاً ناطقاً بأعمال الأجيال، ومخلفات القادة والزعماء والأبطال من المسلمين الذين حفل بهم التاريخ الطويل، وقد دخلوا سجل الخلود - لو قدر ذلك - لكانت تلك المآثر رمزاً للبقاء المتجدد، والحياة المنصرمة.

غير أن مآثرهم لم يبق منها الزمن إلا النزر اليسير اليسير؛ فإننا لله وإنا إليه

راجعون.

معالم خارج المدينة

هناك معالم عدة أخرى تقع خارج المدينة المنورة، منها:

مسجد أحد

يقع مسجد أحد بالقرب من جبل أحد، ملاصقاً له، بجوار قبور الشهداء، ويقع في مكان واسع إلى جنب الجبل عن يمينك حين تأتي إلى أحد من المدينة. وهو الذي خرج منه رسول الله ﷺ إلى واقعة أحد، ولما حضرته الصلاة صلى فيه الظهر والعصر.

ويسمى مسجد الفسح، يقول السهمودي: ويسمى هذا المسجد مسجد الفسح؛ لأنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١). فإذا وفقك الله، ووصلت إليه، فصلّ فيه ركعتين، وأكثر فيه من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد.

جبل أحد

أحد - بضم أوله، وثانيه -: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد. وهو جبل أحمر، بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل واحد، وهو الحد الشمالي للمدينة، ويبعد عنها نحو خمسين دقيقة بالمشي السريع. وقد ورد في فضله ما روي عن النبي

(١) المجادلة: ١١.

محمد ﷺ أنه قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة».

وعنده كانت الواقعة الفظيعة التي قتل فيها سيدنا حمزة بن عبد المطلب - عم النبي - وسبعون رجلاً من المسلمين، وكسرت رباعية النبي ﷺ، وشج وجهه الشريف، وكلمت شفته. وكان يوم بلاء وتمحيص، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال من العام الثالث من الهجرة.

وقف عليهم رسول الله ﷺ، فرأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد مثلت به هند بنت عتبة، فجدعت أنفه وأذنيه، وقطعت أصابع يديه ورجليه، وكذلك مذاكيره، وجعلتها قلائد وأساور، وبقرت بطنه، وأخرجت كبده فلاكتها، فجعلها الله في فمها مثل الصخرة، فلفظتها وجعلت تنشد وتقول:

شفيت من حمزة نفسي بأحدٍ حتى بقرت بطنه من الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجدُ من لوعة الحزن الشديد المعتمد

فلما نظر إليه خنقته العبرة، وقال: «والله ما وقفت موقفاً أغيظ علي من هذا الموقف. لئن أمكنني الله من قريش لأمثلن بسبعين رجلاً». فنزل عليه الأمين جبرئيل بهذه الآية من سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(١).

ثم أمر الرسول بدفنهم بعد أن صلى عليهم؛ فدفن الحمزة وعبد الله بن جحش ابن أخت الحمزة في قبر واحد، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف - حامل لواء النبي يوم بدر وأحد، وأول سفير أرسله المصطفى إلى المدينة قبل هجرته إليها ليقرئ أهلها القرآن، ويفقههم في الدين الحنيف - وعقيل بن أبي أمية في قبر واحد، وباقي الشهداء وسط حائطين متلاصقين. فإذا وفقك الله، ووصلت إلى هذا

(١) النحل: ١٢٦.

الجبل، فلا تنس أن تزور هذه الأرواح الطاهرة، والنفوس الزكية التي ثوت عند سفحه؛ دفاعاً عن الإسلام ونبي الإسلام، وتقرأ لهم الفاتحة وتكثر عنده من الدعاء بما شئت، ومن الاستغفار، والصلاة على المصطفى وآله الأطهار.

بقيع الغرقد

يقع بقيع الغرقد خارج سور المدينة من الجهة الشرقية بعيداً من المسجد النبوي الشريف بخمس دقائق تقريباً مشياً على الأقدام من الجهة الجنوبية الغربية. يقول ابن منظور: البقيع من الأرض: المكان المتسع، ولا يسمّى بقيعاً إلا وفيه شجر؛ لأن البقيع هي الأرض المزروعة بأنواع الشجر.

وأصل البقيع في اللغة هو الموضع الذي يكون فيه أصول الشجر من ضروب شتى. والغرقد - بالعين المعجمة -: كبار شجر العوسج، الواحدة: عوسجة. وهو شجر عظام، له شوك، وهو جنس شجيرات من فصيلة الباذنجانيات، أغصانه شائكة، وله أزهار مختلفة الألوان، وإذا عظم يقال له: الغرقد.

ويقول ابن منظور: والغرقد: كبار العوسج، وبه سمي بقيع الغرقد؛ لأنه كان فيه غرقد، والغرقدة واحده؛ ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة: بقيع الغرقد؛ لأنه كان ينبت هناك بكثرة.

وفي (القاموس): الغرقد: شجر عظام - أو هي العوسج إذا عظم - واحده: الغرقدة، وبها سموا بقيع الغرقد - مقبرة المدينة - لأنه كان منبتها.

ولما قطع هذا الشجر عند اتخاذه مقبرة، ذهب الشجر وبقي الاسم لازماً للموضع.

ويطلق الكثيرون - خصوصاً مسلمي شبه القارة الهندية - على البقيع: جنة.

وآخرون يقولون: روضة من رياض الجنة. فهل هذه التسمية راجعة إلى الزرع المنتشر فيه، حيث كان المكان جنة خضراء، أو لكثرة من دفن فيه من الصحابة والتابعين؟

ولم تكن للبقيع قيمة إلا بعد أن أصبح مقبرة تضمّ رفات أكثر من عشرة آلاف من خيرة الصحابة، وعدد كبير من التابعين وأتباعهم، والأئمة الهادين المهديين، والأولياء، والشهداء، والصالحين. وكان أول من دُفن فيه من الصحابة المهاجرين بأمر رسول الله ﷺ الصحابي الجليل عثمان بن مظعون - في السنة الثانية من الهجرة - وقيل: أول من دفن فيه الصحابي الأنصاري كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي محمد ﷺ بقاء لما قدم المدينة مهاجراً من مكة. وقيل: أسعد بن زرار. إلا إنه قد أجمع الكثير من الرواة على أن عثمان بن مظعون هو أول من دفن فيه. ولما توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ دفنه النبي فيه، فأصبح مع الأيام مدفناً لأهل المدينة، ومقبرتهم العامة.

وقد دُفن فيه نحو من عشرة آلاف صحابي، ومثلهم من التابعين والعلماء والصالحين - وأهم من دُفن فيه من الهاشميين والصحابة والتابعين: فاطمة الزهراء، البتول العذراء، سيدة نساء العالمين، وأفلاذ كبدها الأطهار: الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، والإمام علي بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين، والإمام أبو جعفر محمد الباقر باقر علوم الأولين والآخرين، والإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق رئيس المذهب الجعفري عليه السلام. وكانت على قبورهم مساجد وقبب ومنازل.

قبر الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام

فاطمة الزهراء، سيدة النساء، أمها خديجة أم المؤمنين، وأبوها محمد بن عبد الله

سيد المرسلين وخاتم النبيين. وُلدت بمكة المكرمة في العشرين من جمادى الآخرة - بعد البعثة بخمس سنين - وقريش تبني الكعبة. وهي أصغر بنات رسول الله، وأحبهن إليه، وانقطع نسله إلا منها. وقد قال في حقها: «فاطمة بضعة مني، من أغضبها فقد أغضبني، ومن أغضبني فقد أغضب الله».

يقول أحمد شوقي:

ما تمنى غيرها نسلًا ومن يلد الزهراء يزهد في سواها
زوجه أبوها من ابن عمها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، وولدت له الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم والمحسن الذي أجهضته بعد وفاة أبيها في غمرة الأحداث المؤلمة التي وقعت آنذاك.

عاشت مع أبيها رسول الله ﷺ بمكة المكرمة ثماني سنين، وفي المدينة المنورة عشر سنين، وبعد أبيها خمسة وسبعين يوماً - وقيل: خمسة وتسعين يوماً - وإنه لعمر قصير قصر عمر الزهور الفواحة، عمر قضته الزهراء وأوشكت على نهايته، ولم يفتح بعد إلا النزر اليسير من أكمامها.

إن المآسي المتتالية، والصدمات العنيفة التي واجهت الزهراء ؑ - وهي لا تزال في مقتبل شبابها - تركتها مهیضة الجناح، طريحة الفراش، تشكو ألماً من ضلعها المكسور، واغتصابهم حقها، وتنحية زوجها عن منصبه الذي هو به أحق، فتتحسر آهة من أعماقها.

إنها بضعة النبي وبنته المفضلة التي أكد على رعاية حقها مراراً و«المرء يحفظ في ولده»، ولكن هذا لم يردع اليد الأثيمة من أن تمتد فتحقق هذه الزهرة الفواحة، ولما يمض على تفتحها زمن قصير، وهكذا ذوى الغصن الذي خلفه النبي ﷺ في أمته، وتناثرت زهوره، وذبلت أعواده، وما إن سمع الإمام حتى عُشي عليه، ولما

أفاق جعل يقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل
وفي ظلمة الليل البهيم حيث العيون نائمة، والأصوات هادئة، خرج موكب
ملائكي من بيت علي يحمل وديعة رسول الله ﷺ إلى مثنائها الأخير، وكان ذلك
ليلة الثالث عشر من شهر جمادى الأولى من السنة الحادية عشر من الهجرة.. خرج
الموكب الحزين مؤلفاً من عدة أشخاص يُعدّون على الأصابع - وهم: علي والحسن
والحسين، ومن خلفهم أبوذر وعمار وسلمان - وينتهون بالنعش إلى مكان مخصّص
بالبقيع، ويوارون الزهراء الثرى، ثم ينصرفون بسرعة؛ كيلا يطلع على مكان القبر
أحد.

قبر الإمام الحسن عليه السلام

الإمام الثاني أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب، السبط الأول للرسول
الأعظم ﷺ، ورابع أصحاب الكساء، وأحد ريجانتي المصطفى، وسيد شباب
أهل الجنة، والبكر الأول في حياة البتول العذراء فاطمة الزهراء عليها السلام، وثاني الخلفاء
والأئمة بعد الرسول ﷺ... وهو أول من سمي بهذا الاسم. بلغ من العمر
خمسین سنة؛ قضی منها مع جده المصطفى ثمانی سنین، ومع أبيه المرتضى ثلاثاً
وثلاثین سنة، ومدة إمامته تسع سنوات قاسى فيها الأمرين من سلوك معاوية بن
أبي سفيان.

فما إن وجد في الحسن بعد وفاة أبيه أمير المؤمنين - الذي ظن أنه تخلص بوفاته
من الحواجز التي تعترض طريقه - استمرار النور المحمدي، والإيمان العلوي،

والطهارة الفاطمية، حتى أخذ يخطط لمعارضته غير آبه بمعارضة المعارضين، وإنكار المنكرين.

وهل يستبعد على مثل معاوية - وهو ذلك الذي لم يذق طعم الإيمان - أن يرتكب كل ما يخالف القرآن والسنة النبوية بدافع من حبّ الإمارة والزعامة؟ وهو الأمر الذي اضطر الإمام إلى قتاله، ولكن معاوية بما له من المكر والخداع قام بإغراء جيش الإمام الحسن عليه السلام؛ مما حفزهم إلى اللحاق به، وترك الإمام الحسن، ومنهم عبيد الله بن العباس في أربعة آلاف.

فأحدثت هذه الخيانة ثلثة كبيرة في جيش الإمام؛ حيث إنها أوهنت الجيش، وأضعفت النفوس، وكان من البقية الباقية من سلت السيوف عليه، مطالبة إياه بمصالحة معاوية. فبايعه الإمام كارهاً على بنود معينة حقناً لدماء المسلمين، منها أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين، وأن تكون الخلافة بعده للإمام الحسن، وأن يترك سب الإمام أمير المؤمنين، وأن يكون شيعة علي آمنين على أنفسهم ونسائهم وأموالهم، وأن يدفع إلى كل ذي حق حقه.

وانتهت الحرب بتوقيع هذه المعاهدة، ورجع كل إلى مقره، ولكن معاوية نقض العهد، وأعلن على رؤوس الأشهاد قائلاً: والله يا أهل الكوفة، ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وإنكم لتفعلون ذلك، ولكن لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون. وقد أعطيت الحسن بن علي عهداً وميثاقاً وكلها تحت قدمي لا أفي له منها بشيء.

وظل الإمام الحسن يقاسي بعد ذلك الأمرين من سلوك معاوية الذي كان ينسج المؤامرات في كل حين، حتى انتهت هذه المحاولات بإناء من السم بعث به إلى زوجته جعدة بنت الأشعث، وأغراها بكثير من المال، وضمن لها أن يزوجها

بابنه يزيد، فسقت الحسن السم، فسرى ذلك في أحشائه وفتت كبده، حتى أخذ يقيء قطعاً من كبده.

وفي اليوم السابع من شهر صفر سنة ثلاثة وخمسين من الهجرة قضى نحبه مسموماً مظلوماً، وقام الإمام الحسين في تجهيزه، فغسله وكفنه، وصلى عليه، ودفنه في البقيع في القبة التي فيها العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد ﷺ.

قبر الإمام علي بن الحسين ؑ

الإمام الرابع من أئمة أهل البيت أبو محمد علي بن الحسين السجاد ابن الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ. ولد بالمدينة المنورة في الخامس من شهر شعبان سنة ثمانية وثلاثين من الهجرة - في خلافة جده أمير المؤمنين - وكان عمره يوم الطف اثنتين وعشرين سنة، وأمه شاه زنان بنت الملك يزيد جرد، يقول فيه الشاعر:

وإن وليداً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمام
لُقب بزین العابدين؛ لكثرة عبادته؛ فقد كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.
وقد سئلت عنه مولاة له فقالت: أأطنب، أم اختصر؟ فقيل لها: بل اختصري.
فقالت: ما أتيت به بطعام في نهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط^(١).

كان دائم الحزن، شديد البكاء، ما وضع بين يديه طعام ولا شراب إلا مزجه

(١) في هذا الكلام كناية وتجوّز، فهو كناية عن أنه ؑ كان يصوم الدهر كلّ فلم يؤت طعام في وقت النهار؛ لصوم، وكان يقيم ليلة الدهر كلّ، فلم ينم؛ ولذا لم يُفرش له فراش في الليل؛ لانشغاله ؑ عن النوم بالعبادة. وتجوّز؛ حيث إنها لا بدّ أن تكون قد جاءت به بطعامه نهاراً في العيدين.

بدموع عينيه، ويقول: «كيف أكل؟ وكيف أشرب؟ وقد قتل ابن رسول الله جائعاً عطشاناً؟». يقول الشاعر:

لقد تحمل من أرزائها محناً لم يحتملها نبي أو وصي نبي
مات مسموماً على يد الوليد بن عبد الملك بن مروان، وعمره سبع وخمسون
سنة، عاش منها مع جده الإمام أمير المؤمنين سنتين، ومع عمه الحسن عشر سنين،
ومع أبيه الحسين اثنتي عشرة سنة، وبعد أبيه الحسين ثلاثاً وثلاثين سنة. وقام في
جهازه ابنه الإمام محمد الباقر عليه السلام، فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه في البقيع
بجوار عمه الحسن في القبة التي فيها العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد عليه السلام.

قبر الإمام محمد الباقر عليه السلام

الإمام الخامس من أئمة أهل البيت، اسمه محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن
أبي طالب عليه السلام. ولقبه الباقر؛ لأنه بقر العلم بقرأً - أي استنبطه وتوسع فيه - ويكنى
بأبي جعفر. ولد بالمدينة المنورة في العشرين من شهر رجب سنة سبع وخمسين
للهجرة - المصادف ٦٧٦ ميلادية - أمه فاطمة بنت الإمام الحسن بن علي، وتكنى
أم عبد الله. يقول فيها الإمام الصادق: «إنها كانت صديقة، لم يدرك في آل الحسن
امرأة مثلها».

وهو أول هاشمي من هاشميين، وعلوي من علويين، وفاطمي من فاطميين،
وأول من اجتمعت له ولادة الحسن والحسين. عاش مع جده الحسين أربع سنوات
- وشهد حادثة الطف مع أبيه وهو طفل صغير - ومع أبيه خمساً وثلاثين سنة، وبعد
أبيه ثماني عشرة سنة، وهي مدة إمامته. ومات مسموماً في عهد هشام بن عبد الملك
- وقيل: في عهد إبراهيم بن عبد الملك - سنة مئة وأربع عشرة، وله من العمر سبع

وخمسون سنة، مثل عمر أبيه وجده. وقام في جهازه ابنه الإمام جعفر الصادق، فغسله، وكفنه، وحنطه، وصلى عليه، ودفنه في البقيع بجوار قبر أبيه في القبة التي فيها العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ.

قبر الإمام جعفر الصادق عليه السلام

الإمام جعفر بن محمد الطالبي الحسيني العلوي الهاشمي القرشي المدني - ولادة وإقامة ووفاة - الإمام السادس من الأئمة الاثني عشر المعصومين عند الشيعة الإمامية، وإليه يُنسب المذهب الجعفري. اسمه جعفر، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه الصادق؛ لصدقه في كل أقواله وأفعاله.

وُلد في المدينة المنورة في السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثمانين من الهجرة - المصادف ٧٠٣ ميلادية - وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. والقاسم من ثقات الإمام علي بن الحسين زين العابدين، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة.

نشأ في مهد العلم ومعدنه.. نشأ في بيت النبوة الذي توارث علمها كابرًا عن كابر، عاش في مدينة جده رسول الله ﷺ، فتغذى من ذلك الغرس الطاهر. يقول مالك بن أنس - فقيه أهل السنة -: ما رأيت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق؛ فضلاً، وعلماً، وعبادة، وورعاً. وقد نقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان. وقال الحسن الوشا: أدركت في هذا - يعني مسجد الكوفة - تسعمئة شيخ كلاً يقول: حدثني جعفر بن محمد الصادق.

مات مسموماً في الخامس والعشرين من شهر شوال - وقيل: في النصف من

٢٨٢.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

رجب - سنة مئة وثمانية وأربعين من الهجرة - في عهد المنصور الدوانيقي - وعمره ٦٨ سنة، وهو أكبر الأئمة المعصومين سناً. قام في جهازه الإمام موسى ابن جعفر، فغسله، وكفنه، وصلّى عليه، ودفنه في البقيع بجوار قبر أبيه عليّ.

قبر صفية

صفية هذه هي بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمّة الرسول محمد ﷺ. يقع قبرها في البقيع على يسار الداخل إلى البقيع قريباً من السور.

قبر عاتكة

هي عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمّة الرسول محمد ﷺ. يقع قبرها على يسار الداخل إلى البقيع قريباً من السور بجوار أختها صفية.

قبر أم حكيم البيضاء

اسمها فاطمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمّة الرسول الأعظم ﷺ. يقع قبرها على يسار الداخل إلى البقيع، قريباً من السور، بجوار قبري أختها صفية وعاتكة.

قبر السيدة حليلة

هي حليلة بنت عبد الله بن الحرث السعدية، مرضعة الرسول الكريم ﷺ. ويقع قبرها شمالي البقيع ملاصقاً للسور.

قبر أبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل

يقع قبر أبي سعيد والصحابي الكبير معاذ بن جبل في الناحية الشرقية من البقيع

خارج السور. فلا تنس الاستغفار لهما، والفاحة لروحيهما وأرواح المؤمنين.

قبر رقية بنت النبي محمد ﷺ

رقية بنت رسول الله ﷺ، أمها خديجة أم المؤمنين الأولى. وُلد بها قبل البعثة، أدركت الإسلام، وأسلمت، وهاجرت الهجرتين. تزوجها عتيبة بن عبد العزى ابن عبد المطلب المعروف بأبي لهب إلا إن أمه أم جميل بنت حرب بن أمية - أخت أبي سفيان، عمه معاوية - كانت تُعرَف بقسوة القلب، وشراسة الطباع، وحدة اللسان، والبغض الشديد للإسلام ونبي الإسلام، وقد أقسمت ألا يظللها سقف بيت مع بنت محمد، وطلبت من ابنها أن يطلقها، ووعدته أن تزوجه أي فتاة شاء من بنات قريش. فطلقها، فتزوجها عثمان بن عفان، وهاجر بها إلى الحبشة، ولما عاد بها إلى مكة وجدت أمها قد ماتت، فحزنت عليها حزناً شديداً أورثها مرضاً عضالاً، فهاجر معها زوجها إلى المدينة، فماتت هناك في العام الثاني من الهجرة. وكان والدها الرسول الأعظم في غزوة بدر، فشيعت يثرب جثمان بنت الرسول ذات الهجرتين، حتى وُريت الثرى الطيب في بقيع الغرقد على يسار الداخل إليه.

قبر أم كلثوم بنت النبي محمد ﷺ

أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، أمها أم المؤمنين الأولى خديجة بنت خويلد. وُلد بها قبل البعثة، وأدركت الإسلام وأسلمت، تزوجها عتبة بن عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بأبي لهب. فلما بُعث الرسول ﷺ بالنبوة أغاض ذلك قريش، فمشوا إلى أصحاب النبي محمد ﷺ يحثونهم على طلاق بنات النبي ﷺ.

قائلين: إنكم قد فرغتم محمداً من همه، فردوا عليه، بناته، فاشغلوه بهن، ونحن نزوج كل واحد منكم أي فتاة من قريش يريدوها.

فأما أبو العاص فأبى، وأما ابنا أبي لهب فاستجابا على الفور، فطلق عتبة زوجته أم كلثوم، كما طلق عتبية زوجته رقية، وخاب ظن قريش وظن حمالة الحطب، فلم يشغل محمد بابنتيه عن دعوته، ولم يشقَّ عليه طلاقهما، فقد نجَّاهما الله من محنة العيش مع ابني حمالة الحطب.

وتقدم عثمان إلى النبي ﷺ يطلب شرف المصاهرة، فزوجه رقية، وبقيت أم كلثوم في البيت مع أختها فاطمة، فلما وافت رقية المنية زوجته رسول الله ﷺ من أختها أم كلثوم في العام الثالث من الهجرة، وبقيت معه إلى أن وافتها المنية في العام التاسع من الهجرة، فقام رسول الله في جهازها، وصلى عليها، ودفنها في البقيع بجوار قبر شقيقتها رقية.

قبر السيدة زينب

زينب هذه هي ابنة رسول الله ﷺ، وأمها خديجة أم المؤمنين الأولى، تزوجها ابن خالتها العاص بن الربيع، واسمه القاسم. وُلد بها قبل البعثة، ولما بعث النبي أسلمت ولم يسلم زوجها؛ ففرق الرسول بينهما، وأخذها معه إلى دار هجرته - المدينة - فلما أسلم أبو العاص في العام السادس للهجرة ردَّها النبي إليه على النكاح الأول، واجتمع الشمل الممزق، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال، فأنجبت منه بنتاً أسأها أمامة، تزوجها المغيرة بن نوفل، ثم تزوجها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ تنفيذاً لوصية فاطمة الزهراء عندما أدركتها الوفاة؛ حيث إنها كانت قد طلبت من الإمام أن يتزوج بعدها بابنة أختها أمامة؛ فإنها

تكون لأبنائها مثلها.

ومضى عامان على اجتماعهما، ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا، فقد ماتت زينب في مستهل السنة الثامنة من الهجرة متأثرة بعلتها التي لزمها منذ طرحت جينيتها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة، وقام في تجهيزها رسول الله ﷺ وصلى عليها في مسجده، وشيعها إلى مرقدتها حيث أودعوها ثرى البقيع بجوار قبري أختها رقية وأم كلثوم.

ورجع أبو العاص إلى داره التي كانت بالأمس جنة الحب، فأمست بعد رحيل زينب منزل الذكريات والأشجان.

قبر العباس

هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المكي ولادة ونشأة، والمدني وفاة. عم رسول الله ﷺ. كان رئيساً في قريش، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية. شهد يوم حنين مع النبي ﷺ، وهو أحد العشرة المحامين عن النبي لما انهزم الجيش وولّوا الدُّبُر. ومما ينسب إليه من الشعر قوله:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنا وأقشعوا
وقولي إذا ما الفضل كرّ بسيفه على القوم أخرى يا بني ليرجعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما ناله في الله لا يتوجّع

وله من الولد - على ما يقال - عشرة يقال لهم العباسيون، وهم بطن من بني عبد المطلب:

أولهم الفضل بن عباس، وبه كان يكنى.

والثاني عبد الله بن عباس، ولد وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين،

وولاه الإمام علي البصرة، فلم يزل عليها حتى قُتل الإمام الثالث، فعاد إلى الحجاز، وتوفي بالطائف سنة خمس وستين من الهجرة. ويعرف بـ«حبر الأمة» و«رئيس المفسرين». وقد أحرز منزلة كبيرة بين كبار الصحابة على صغر سنه بعقله، وفهمه، وعلمه وأدبه؛ تحقيقاً لدعوة رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وكان محباً للإمام أمير المؤمنين، وولديه الحسن والحسين. وقد ذهب بصره لبكائه على مصابهم. وكان مما ينسب إليه من الشعر قوله:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير مدخلٍ وفي فمي صارم كالسيف مأثور
وفي عامه الحادي والسبعين - وهو الموافق للسنة الثامنة والستين من الهجرة - دعي إلى لقاء ربه العظيم، وشهدت مدينة الطائف مشهداً حافلاً لمؤمن يزف إلى الجنان بعد أن صلى عليه محمد بن الحنفية. وبينما كان جثمانه يأخذ مستقره الآمن في قبره، كانت جنبات الأفق تهتز بأصداء وعد الله الحق: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (١).

وكان له مشهد عظيم بالطائف، يزار إلا إنه هدم أخيراً كما هدم مشهد أبيه العباس، وقبور الأئمة الأربعة بالبقيع في المدينة المنورة، ولم يبق إلا الأثر. وبقية أولاده: عون وعبيد الله بن عباس، ثم معبد بن عباس، وقثم بن عباس، وعبد الرحمن بن عباس، وكثير بن عباس، والحارث بن عباس، وتمام بن عباس - وهو آخر أولاده - وكان يحمله، ويرقصه ويقول:

تموا بتمام فصاروا عشره يا رب فاجعلهم كراما برره
واجعل لهم ذكراً وأنم الثمره

وفي السادس عشر من شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة النبوية لبي نداء ربه العظيم، وانتقل إلى جواره الكريم، وأودع جثمانه ثرى البقيع بالمدينة المنورة في القبة المعروفة بـ«قبة الأبرار» الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ويقع قبره في الجانب الغربي من البقيع قريباً من السور، فإذا وصلت إليه فأكثر من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآل محمد.

قبر عقيل

عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المكي ولادة ونشأة، والمدني وفاة. اسمه عقيل، وكنيته أبو يزيد، وهو شقيق الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان النبي صلى الله عليه وآله يحب عقيلاً، وقد صارحه بهذا الحب؛ إذ قال له يوماً: «يا أبا يزيد، إني أحبك حبين: حباً لقرابتك مني، وحباً لحب عمي إياك».

وكان عقيل حاضر الذهن، سريع الجواب. ومما يروى في المقام أنه قال له معاوية - وكان قد وفد إليه -: هذا أبو يزيد لولا علم أي خير من أخيه علي ما تركه، وأقام عندنا. فقال عقيل: أخي خير لي في ديني، وأنت خير لي في دنياي، وأسأل الله العفو.

ودخل عليه يوماً، فقال معاوية: مرحباً بمن عمه أبو لهب. فقال: وأهلاً بمن عمته ﴿حَمَالَةَ الْحُطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١). فقال معاوية: ما ظنك بعمك أبي لهب؟ قال عقيل: إذا دخلت النار، فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمك حمالة الحطب.

وكان عقيل فقيراً، كثير العيال والأطفال، قتل من ولده مع ابن أخيه الحسين

ثلاثة عشر شهيداً: ثمانية من أولاده، وخمسة من أحفاده. وقد أشار إليه الشاعر بقوله:

عين جودي بدمعة وعويلٍ وانديبي إن ندبت آل الرسولِ
تسعة منهم لصلب علي قد أيّدوا وسبعة لعقيلِ
وقد أجاب داعي الله سنة خمسين من الهجرة عن عمر يناهز ستاً وتسعين سنة؛
فإذا وفقك الله للوصول إليه، فأكثر من الدعاء عنده، والاستغفار والصلاة على
محمد وآل محمد.

قبر عبد الله بن جعفر

هو عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي الحبشي مولداً، والمكي نشأة، والمدني وفاة. وأمه أسماء بنت عميس، تزوجها جعفر بن أبي طالب ثالث المسلمين، وهاجر بها إلى الحبشة، فأنجبت له ثلاثة أولاد ولدوا كلهم في أرض الحبشة: عبد الله وبه كان يكنى، ومحمد، وعون. ومحمد بن أبي بكر أخوهم لأمهم؛ لأن أمهم أسماء بعد استشهاد جعفر تزوجها أبو بكر، فأولدها محمد بن أبي بكر. وبعد وفاته تزوجها الإمام أمير المؤمنين عليؑ.

صحب عبد الله بن جعفر النبي ﷺ، وحفظ الحديث عنه، ولازم عمه أمير المؤمنين والحسن والحسين، وأخذ عنهم العلوم. وكان أغنى بني هاشم وأيسرهم، وكانت له ضياع كثيرة، ومتاجر واسعة. وكان أسخى رجل في الإسلام، وله حكايات في الجود كثيرة. تزوج العقيلة زينب - وهي ابنة عمه للأب والأم - ولم يفرق هذا الزواج بين زينب وأبيها وإخوتها، فقد بلغ من تعلق الإمام علي بابتنته

وابن أخيه أن أبقاهما معه، حتى إذا ولي أمر المسلمين، وانتقل إلى الكوفة انتقلا معه، فعاشا في مقر الخلافة في موضع من رعاية أمير المؤمنين عليه السلام وإعزازه، ووقف عبد الله بجانب عمه في نضاله الحربي، فكان أميراً بين أمراء جيشه في صفين. وبعد واقعة كربلاء أصابت المدينة مجاعة، فرحل عنها عبد الله بأهله إلى الشام في ضيعة له هناك، فحمت زوجته زينب - من وعشاء السفر، وذكريات مآسي الشام وأفعال يزيد - وتوفيت على إثرها، ودفنت هناك حيث المزار المشهور. وعاد عبد الله إلى المدينة كئيباً حزيناً، وما برح أن لبى نداء ربه، وصعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية، ودفن بالبقيع بجوار قبر عثمان بن مظعون وعقيل بن أبي طالب.

قبر عثمان بن مظعون

إذا أردت أن ترتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وفق سبقهم الزمني إلى الإسلام، فاعلم إذا بلغت الرقم الرابع عشر أن صاحبه هو عثمان بن مظعون أخو الرسول من الرضاعة، وهو واحد من القلة التي سارعت إلى الله، والتفت حول رسول الله صلى الله عليه وآله. واعلم كذلك أن ابن مظعون هذا كان من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، فعندما أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مؤثراً أن يبقى في مواجهة الأذى وحده كان عثمان بن مظعون أمير الفوج الأول من المهاجرين. ولما فتح الرسول باب الهجرة إلى المدينة هاجر عثمان مع إخوانه المؤمنين إلى المدينة، وفي دار الهجرة - المدينة المنورة - ينكشف جوهر عثمان، وتستبين حقيقته العظيمة الفريدة، فإذا هو العابد الزاهد، المتبتل الأواب. وحين كانت روحه الطاهرة تنهياً للرحيل - ليكون صاحبها أول المهاجرين

٢٩٠.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

وفاة بالمدينة، وأول المسلمين دفناً بالبقيع، وأولهم ارتياداً لطريق الحق إلى الجنة - كان الرسول إلى جواره يودعه ويقول: «رحمك الله أبا السائب، خرجت من الدنيا، وما أصبت منها ولا أصابت منك». وقبره إلى جوار قبر عقيل بن أبي طالب، وقبر عبد الله بن جعفر.

قبر عبد الله بن مسعود

قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم كان عبد الله بن مسعود قد آمن به، ويقال: إنه سادس ستة أسلموا، واتبعوا الرسول ﷺ. وهو أحد المقرئين السبعة، فلقد علمه ربه حتى صار عميد حفظة القرآن الكريم. يقول عن نفسه: أخذت من فم الرسول ﷺ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد.

ولقد أعطاه الله سبحانه موهبة الأداء الرائع في تلاوة القرآن، والفهم السديد في إدراك معانيه. ولقد كان الرسول ﷺ يوصي أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود، ويحاكوا قراءته، ويتعلموا منه كيف يتلو القرآن. وكان ﷺ يقول: «من أحب أن يسمع القرآن غصّاً كما أنزل، فليسمعه من ابن أم عبد، ومن أحب أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد». كان عبد الله بن مسعود رجلاً كبير القلب، عظيم النفس، وثيق اليقين، هداه الله، ورباه الرسول، وقاده القرآن الكريم إلى طريق الحق.

مات في المدينة المنورة. ودُفن بالبقيع إلى جوار قبر عثمان بن مظعون، وقبر عقيل بن أبي طالب.

قبر إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام

إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

طالب عليه السلام القرشي الهاشمي العلوي الحسيني المدني - مولداً ونشأة و وفاة - ويعرف بإسماعيل الأعرج. أكبر أولاد الإمام الصادق عليه السلام، وجدّ الخلفاء الفاطميين في المغرب وفي مصر. أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وكان أبوه الصادق يحبه حباً كبيراً. مات في حياة أبيه سنة ١٣٨هـ، قبل وفاة أبيه بعشرين سنة، ودُفن داخل سور المدينة من باب الجمعة ملاصقاً لسور المدينة.

قبر الحارث بن العباس

هو الحارث بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المكي مولداً ونشأة، والمدني وفاة. كان قد قضى نحبه في المدينة المنورة، ودُفن بالبقيع بجوار قبر عقيل بن أبي طالب وعثمان بن مظعون.

قبر إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله

إبراهيم بن رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المدني مولداً ونشأة و وفاة. وأمه مارية القبطية بنت شمعون أهداها إليه المقوقس صاحب الإسكندرية في جملة تحف وهدايا عندما أرسل إليه يدعوهُ إلى الإسلام في العام السابع من الهجرة. أعتقها رسول الله، وتزوجها فأنجبت له إبراهيم بن رسول الله.

مات وعمره سنة وستة أشهر. فلما رآه النبي يجود بنفسه، اغرورقت عيناه بالدموع، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ قال: «يا ابن عوف، إنها رحمة». وجرت عبرته، ثم أتبعها بأخرى، وقال: «إن العين لتدمع، والقلب

يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». وقام في تجهيزه ودفنه بالبقيع بجوار قبر أخواته زينب ورقية وأم كلثوم.

كلمات حول زيارة القبور

عن السيدة عائشة مرفوعاً عن النبي قال ﷺ: «أتاني جبرئيل فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قلت: كيف أقول؟ قال: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وقال أبو عبيد الله العبدري المالكي: هو أن يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، رحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. أسأل الله لنا ولكم العافية». ثم يقول: اللهم اغفر لنا ولهم.

وعن أم سلمة مرفوعاً أنه ﷺ قال: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإن لكم فيها عبرة».

قبور أمهات المؤمنين

أولاهن: سودة بنت زمعة القرشية العامرية، تزوجها الرسول ﷺ بمكة، وهاجرت معه إلى المدينة. ماتت بعد وفاته، ودفنت في البقيع.

الثانية: عائشة بنت أبي بكر، عقد عليها بمكة، وبنى بها في المدينة، لم يتزوج بكرراً سواها. ماتت بالمدينة سنة ٥٨ هـ، ودفنت في البقيع.

الثالثة: حفصة ابنة عمر بن الخطاب، تزوجها في السنة الثالثة من الهجرة، وتوفيت سنة ٤١ هـ، ودفنت في البقيع.

الرابعة: أم سلمة، تزوجها في أواخر السنة الثالثة من الهجرة، وتوفيت سنة ٦٢ من الهجرة في أيام يزيد بن معاوية، ودفنت في البقيع.

الخامسة: أم حبيبة - رملة بنت أبي سفيان، أخت معاوية، تزوجها في العام السابع من الهجرة، وتوفيت سنة ٥٩ هـ قبل وفاة أخيها معاوية، ودفنت في البقيع.

السادسة: ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها ﷺ في العام السابع من الهجرة، وماتت سنة ٥٢ هـ، ودفنت في البقيع.

السابعة: صفية بنت حيي بن أخطب، تزوجها ﷺ سنة سبع من الهجرة، وماتت سنة ٥٠ هـ، ودفنت في البقيع.

الثامنة: جورية بنت الحارث، تزوجها ﷺ سنة ٦ من الهجرة، وماتت سنة ٥٦ للهجرة، ودفنت في البقيع.

التاسعة: زينب بنت جحش، تزوجها ﷺ في العام الرابع من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين من الهجرة، ودفنت في البقيع.

العاشرة: زينب بنت خزيمة، تزوجها ﷺ في العام الثالث من الهجرة، وماتت بعد ثلاثة أشهر من زواجها، ودفنت في البقيع وعمرها ثلاثون سنة. ولم يمض في حياته إلا هي وخديجة أم المؤمنين.

الحادية عشرة: مارية بنت شمعون القبطية، تزوجها ﷺ في العام السابع من الهجرة، وماتت بعد وفاة النبي بخمس سنين، ودفنت في البقيع.

وقبورهن بجوار بعض داخل البقيع قرب السور من الجهة الغربية الشمالية على يسار الداخل إلى البقيع.

بيت الأحران

غاب شخص محمد عن عيني فاطمة بضعته.. غاب عنها من كان يكثرت قبيلها

حتى بعد زواجها من علي ؑ.. غاب عنها من كان يدعوها أم أبيها؛ فصار ديدنها البكاء والعيويل ليلها ونهارها، لا ترقأ لها دمة، ولا تهدأ لها زفرة، حتى كان يُضرب بها المثل في حنينها إلى عميدها.

ويضيق أهل المدينة ذرعاً بما يجري في بيت الرسالة، فيفاوضون علياً بشأنها، فيجتمع إليه شيوخ أهل المدينة يقولون له: يا أمير المؤمنين، لقد آذنتنا فاطمة بكائها على أبيها، فلا أحد يهنأ بمنام ولا بطعام، وإنا نطلب منك أن تسأل فاطمة أن تبكي ليلاً أو نهاراً فأجابهم الإمام إلى ذلك، وأقبل على فاطمة الزهراء يقول: «يا ابنة رسول الله، إن شيوخ المدينة جاؤوني يطلبون مني أن أسألك إما أن تبكي ليلاً وتسكتي نهاراً، أو تبكي نهاراً وتسكتي ليلاً».

فقالت: «يا أبا الحسن، ما أقل مكوثي بينهم! وما أقرب مغيبني من بين أظهرهم! فوالله لا أسكت ليلاً ولا نهاراً أو ألحق بأبي رسول الله ﷺ».

فلما رأى الإمام ذلك بنى لها بيتاً في البقيع سمي «بيت الأحزان»، فكانت إذا أصبحت قدمت الحسين أمامها وخرجت إلى البقيع باكياً، فلا تزال بين القبور حتى يقبل الليل، فيذهب الإمام خلفها ويأتي بها.

إن البيت الذي بنى في البقيع من جريد النخيل هو الملجأ الذي كانت تأتي إليه فاطمة الزهراء، تنفس فيه عن آلامها وأحزانها. لذلك فعلت الزهراء حين رأت كل الذي رأت، فلم يكن منها - وقد نحل جسمها، وانهد ركنها، وأظلمت الدنيا في عينيها - إلا أن تلجأ إلى بيت في البقيع عند قبور الشهداء، تبكي أباه، وتشكو له ما جرى عليها بعده.

وتبدو آثار هذه اللوعة تلوح على شخص الزهراء حيث خارت قواها، فاستسلمت للفراش، وخيم الوجوم على بيت الرسالة من جديد، وتأصلت

المأساة؛ حيث استفحل المرض على الزهراء، وراح يلتهم صحتها بنهم وقوة. وما هي إلا أيام قليلة أعلن بعدها بيت الرسالة افتقاد فاطمة الزهراء غرس النبوة ومدرسة الرسالة.

قبر فاطمة بنت أسد

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية المكية ولادة ونشأة، والمدنية وفاة. كانت من السابقات للإسلام، أسلمت بعد عشرة من المسلمين، تزوج منها عبد مناف بن عبد المطلب فأنجبت له أربعة بنين هم: طالب - وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى - وعقيل، وجعفر، وعلي.

وكان رسول الله ﷺ يكرمها ويعظمها، ويدعوها: «أمي». ويقول: «هي أمي بعد أمي». أوصت له حين حضرته الوفاة في السنة الرابعة من الهجرة فقبل وصيتها، وصلى عليها، وكفنها بقميصه، ليدراً عنها به هوام الأرض، ونزل في قبرها لتأمن من ضغطة القبر.

يقع قبرها في البقيع بجوار قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ في الناحية الشمالية قرب السور. فإذا وفقك الله ووصلت إلى قبرها، فزرها بزيارتها الخاصة - تجدها في (أعمال الحرمين) للعلامة الشيخ علي المرهون - وأكثر من الدعاء والاستغفار، والصلاة على محمد وآل محمد ﷺ.

قبر أم البنين

فاطمة بنت حزام الكلاية، تزوجها علي بن أبي طالب ﷺ بعد وفاة فاطمة الزهراء. وكانت قد رأت قبل زواجها منه كأن قمر السماء قد نزل في حجرها وتبعته ثلاثة كواكب مزهرة وقعت في حجرها. ولما قصت رؤياها على أمها، أولت

رؤياها بأنها تتزوج برجل عظيم القدر، وتلد له أربعة بنين، فكان الأمر كذلك. فتزوجها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وكانت أم البنين امرأة عظيمة من سلالة أجداد كرام، وفرسان يشار إليهم بالبنان، قد ولدتها الفحولة من ذوي الحسب والنسب، فرأت عند زواجها من الإمام أمير المؤمنين أن تسمي نفسها أم البنين بدلاً من فاطمة؛ مراعاة لشعور أبناء فاطمة؛ لئلا تثير ذكرياتهم بأمرهم الزهراء.

فأنجبت له أربعة بنين: العباس - وهو أكبرهم، ويكنى أبا الفضل، ويلقب بالسقاء، وهو حامل لواء الإمام الحسين - وعبد الله، وجعفر، وعون. وقد قُتلوا جميعاً مع أخيهم الحسين يوم الطفّ، فتأثرت من هذه التسمية، ودعت الناس إلى ألا يسموها بأم البنين. فكانت تخرج إلى البقيع حاملة على يديها عبيد الله ابن ولدها العباس - وهو طفل صغير - وتمثل بين يديها أربعة قبور، وتندب أولادها بأشجي ندبة:

لا تدعوني ويك أم البنين	تذكريني بليوث العرين
كانت بنون لي ادعى بهم	واليوم أصبحت ولا من بنين
أربعة مثل نسور الربى	قد واصلوا الموت بقطع الوتين
تنازع الخرصان أشلاءهم	فكلهم أمسى صريعاً طعين
فليت شعري أكما خبروا	بأن عباساً قطيع اليدين

وقبرها بالبقيع، بجوار قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ من الناحية الشمالية قرب السور. فلا تنس زيارتها، والسلام عليها، والفاحة لروحها، والدعاء والاستغفار عند ضريحها، والصلاة على محمد وآله الطاهرين.

شهداء الحرة

الحرة: إحدى حرتي المدينة - وهي الشرقية - وتسمى حرة واقم؛ باسم رجل من العماليق يقال له واقم، وقيل: واقم اسم أطم من أطام المدينة، يقول الشاعر:
نحن بنينا واقماً بالحرة بلازب الطين وبالأصره
وفي حرة واقم كانت الواقعة الشهيرة المعروفة بواقعة الحرة في أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد قتل الحسين عليه السلام عندما سمع يزيد أن عبد الله بن الزبير خلع الطاعة، ودعا الناس بمكة إلى خلافته، وبايعه أهل الحجاز وتهامة، حيث دعا بمسلم بن عقبة المري، وضم إليه جيشاً عظيماً من أهل الشام، وأمره أن يسير إلى مكة لحرب ابن الزبير، وأن يجعل طريقه على المدينة المنورة. وقال له: إن حاربوك فحاربهم، وإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً.

فسار مسلم بالجيش حتى وصل المدينة، ونزل بحرة واقم - في حدود المدينة - فخرج إليه أهل المدينة يقدمهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة يقول: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فتغلب عليهم مسلم بن عقبة، وقتل رئيسهم عبد الله بن حنظلة، وقتل ما يزيد على اثني عشر ألفاً: منهم ألفان من بقايا الأنصار والمهاجرين، وحفظة القرآن والتابعين، وأباح المدينة ثلاثة أيام، حتى إن الخيل والبغال والحمير والكلاب دخلت المسجد الشريف، وروثت فيه، ولو رثت جدرانها. وروي أن جيش يزيد افتضّ فيها نحواً من ألف عذراء سفاحاً، فكان الرجل بعدها إذا زوج ابنته لا يشترط بكارتها. وجعل مسلم يجبر الناس على البيعة ليزيد بن معاوية على أنهم عبيد أقنان، وينقشون كف المبايعين علامة الاسترقاق، ومن أبي من هذه البيعة ضربت عنقه.

٢٩٨.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

ثم خرج من المدينة متجهاً بجيشه إلى مكة لضرب الكعبة بالمنجنيق، فجمع من بقي منهم القتلى، وأحدوهم في مقابر جماعية في البقيع بجوار السور الشمالي في مكان خاص بهم أطلقوا عليه اسم مقبرة شهداء الحرة، ويسميهم البعض شهداء الجنة، فلا تنسَ زيارتهم، والدعاء والاستغفار لهم.

زوجات الرسول ﷺ

تزوج رسول الله ﷺ من خمس عشرة امرأة؛ دخل بثلاث عشرة منهن، وجمع بين إحدى عشرة امرأة، ومات عن تسع، يقول الشاعر:

توفي رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة تلوهن هند وزينب
جويرة مع رملة ثم سودة ثلاث وست ذكرهن مهدب

الأولى: السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية المكية ولادة ونشأة ووفاة، وأول زوجة تزوجها الرسول العظيم في وقت كان محمد ﷺ يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، ويبلغ عمر خديجة الأربعين سنة. ولم يتزوج عليها؛ لجلالها وعظم محلها عنده. وهي أول امرأة أسلمت، وأول من بنى بيتاً في الإسلام بتزوجها من رسول الله ﷺ.

وكانت قبله قد سيقت إلى زواج باكر من عتيق بن عابد، وسريعاً ما بتر الموت هذا الزواج، فسيقت إلى زواج آخر تقدم به منها شريف يدعى أبا هالة، ورزقت منه ولداً أسمته هنداً، ثم عاد الموت، فقصم عروة هذا الزواج الثاني. وكان الزواج الجديد من الفتى الأمين محمد ﷺ، حيث أقامت معه خمسة وعشرين سنة، وماتت قبل الهجرة بثلاثة أعوام، ودفنت في مقبرة الحجون بمكة المكرمة.

الثانية: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية نسباً، والمكية مولداً، والمدنية وفاة. تزوجها ابن عمها السكران، وهاجر معها إلى الحبشة، وعانت هي وزوجها ما عاناه المسلمون الأوائل من المشركين. مات زوجها في

الحبشة، فلم يكن لها خيار إلا البقاء في أرض الحبشة بلا كفيل ولا معين، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترميل أو الرجوع إلى أهلها، وهم لا يزالون على شركهم، وقد يضطرونها إلى الرجوع إلى الديانة الوثنية. فتزوجها النبي تعويضاً عما لحقها من الأذى، وما كانت تعانيه من الحاجة، وفي الوقت نفسه تأليفاً لأهلها الذين كانوا من أعدائه الألداء. توفيت بعد وفاته، ودفنت في البقيع بالمدينة المنورة.

الثالثة: عائشة ابنة أبي بكر - واسمه عبد الله بن أبي قحافة بن تيم بن مرة - وهنا نترك الكلام لها، فتقول السيدة عائشة: تزوجني رسول الله سنة عشر من النبوة وأنا بنت سبع سنين بمكة المكرمة، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين على رأس ثمانية أشهر من مهاجرته إلى المدينة، وقبض عني وأنا ابنة ثمانية عشر سنة. مكثت عنده تسع سنين وخمسة أشهر، ولم يتزوج بكراً غيرها، توفيت في شهر رمضان سنة سبع وخمسين من الهجرة، ودفنت في البقيع بالمدينة المنورة.

الرابعة: حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل، وأمها يقال لها صهاك الحبشية. وكانت قبل رسول الله عند خنيس بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، وكان بدرياً، ومن أصحاب الهجرتين: الحبشة ثم المدينة، وقد شهد أحداً ثم مات بعدها في دار الهجرة متأثراً بجراحة أصابته في أحد، وترك من ورائه أرملته حفصة، فتزوجها رسول الله ﷺ في العام الثالث عشر من الهجرة. ماتت بالمدينة المنورة، أيام عثمان بن عفان، ودفنت في البقيع.

الخامسة: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو الهلالية من بني عامر بن صعصعة. يقول الطبري: وكانت تُعرف في الجاهلية أم المساكين لرأفتها بهم وإحسانها إليهم، وكثرة صدقاتها عليهم، وبرها بهم ولهم. وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت جهم بن عمرو بن الحارث، فقتل يوم بدر - وكان ابن عمها -

فتزوجها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فقتل في إحدى المعارك مع النبي ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ في العام الثالث من الهجرة، ولم تلبث عنده إلا ثلاثة أشهر حتى توفيت في المدينة في حياة النبي ﷺ وعمرها ثلاثون سنة، فصلى عليها رسول الله، ودفنها في البقيع. وهي أول من دفنت فيه من أمهات المؤمنين، ولم يمت من أزواج النبي ﷺ في حياته غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى - ومدفنها في الحجون في مكة - والسيدة زينب بنت خزيمة أم المساكين.

السادسة: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله القرشية المخزومية المعروف أبوها بـ «زاد الراكب»، وهو أحد أبناء قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين. وتكنى «أم سلمة». وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر المخزومي الصحابي ذي الهجرتين، وهو ابن عمه المصطفى برة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

وكان لأبي سلمة ولزوجه هند - إلى جانب هذا النسب - ماضٍ مجيد في الإسلام؛ فقد كانا من السابقين الأولين، هاجرا مع العشرة الأوائل إلى الحبشة؛ حيث ولدت هناك لهما سلمة وعمر، ثم عادا إلى مكة.

ولما أذن النبي محمد ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، هاجر أبو سلمة مع أهله إلى يثرب، وعكفت هي على تربية صغارها، وتفرغ زوجها للجهاد، وشهد بدرًا وأحدًا، وأبلى بلاءً حسناً، فأصابه في واقعة أحد سهم في عضده فجرحه. ولما عاد إلى المدينة، وخفّ عليه الجرح بعثه رسول الله في مئة وخمسين من الأنصار إلى قطنة، وبعد رجوعه انتكأ عليه الجرح الذي أصابه بأحد، ففرض نحره في السنة الرابعة من الهجرة. فأرسل إليها النبي ﷺ يخطبها، فأبدت عذرها بأنها مسنة، وغيرى، وذات عيال، فقال لها الرسول ﷺ: «أما إنك مسنة فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها

الله، وأما العيال فإلى الله ورسوله».

فوافقت، فتزوجها ﷺ، وكان الوحي أكثر ما ينزل على رسول الله ﷺ في بيتها. وكانت من الموالين لعلي عليه السلام، فلما كانت الفتنة الكبرى اندفعت تآزر الإمام علياً عليه السلام، ولما أراد الخروج إلى حرب الجمل قَدّمت إليه ولدها عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين: «لولا أن أعصي الله، وأنت لا تقبله مني، لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله هو أعز عليّ من نفسي يخرج معك».

فشهد مع الإمام يوم الجمل، ثم استعمله على فارس والبحرين. تقدم العمر بأم سلمة إلى مذبحة كربلاء، وتوفيت بعدما جاءها نعي الحسين عليه السلام، ودفنت في البقيع في المدينة المنورة، وهي آخر من مات من أمهات المسلمين.

السابعة: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية.

يقول الطبري: كان الحارث رئيس القوم وقائدهم، فجمع الرجال من قومه يريد قتال محمد ﷺ، فخرج إليهم الرسول في جمع من أصحابه، فالتقى بهم على ماء لهم يقال له المريسي، فكان قتالاً أنتهى بهزيمة بني المصطلق، وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن جويرية. فلما قسّم رسول الله السبايا كانت جويرية من سهم ثابت بن قيس الأنصاري، فكاتبته على نفسها، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني ما قد علمت، فوقع في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فأعني في فكاكي. فقال لها: «فهل لك في خير من ذلك؟». قالت: ما هو؟ قال: «أقضي عنك كتابتك، وأتزوجك». فقبلت، ففرض عنها، وأعتقها، وتزوجها. وكان عمرها عشرين سنة، فبلغ خبر زواجها من كان في أيديهم من السبي، فقالوا: أصهار النبي يسترقون؟ فأعتقوا جميع ما في أيديهم من النساء فبلغن مئة سبية. فلا يعلم امرأة أعظم بركة

على قومها منها. ماتت سنة خمسين للهجرة، وعمرها خمس وستون سنة، ودُفنت في البقيع في المدينة المنورة.

الثامنة: زينب بن جحش بن رثاب الأسدية القرشية، المكية مولداً ونشأة، والمدنية وفاة. حفيدة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أمها أميمة بنت عبد المطلب عممة النبي محمد ﷺ، تزوجها زيد بن حارثة بن شراحيل من الموالي. وكان من بني كلب، فأصابته خيل من بني القين في الطريق وهو ذاهب مع أمه إلى زيارة أهلها، فباعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمئة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فأعتقه رسول الله وتبناه قبل المبعث، فعُرف بزید بن محمد. فلما بلغ سن الزواج اختار له النبي ﷺ بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب زينب بنت جحش، فكرهت، وكره أخوها عبد الله أن تزف الشريفية المضرية إلى مولى من الموالي، فنزل فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(١).

فتزوجت زينب زيدا؛ طاعة لأمر الله ورسوله، وقاسى زيد من صدها وإبائها وترفعها ما استنفد معه صبره، فاشتكى إلى النبي ﷺ أكثر من مرة ما يجد من سوء معاملة زينب، والرسول يقول: «أمسك عليك زوجك». ولكن زيدا نفذ احتمالها، ففارقها، وكان الطلاق، فلما انقضت عدتها، نزل الأمين جبرئيل على النبي ﷺ يأمره بالزواج منها، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٢). فتزوجها رسول الله ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة، وكان

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

عمرها خمساً وثلاثين سنة. وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بثلاث:

الأولى: جدّها وجدّ رسول الله ﷺ واحد.

الثانية: أمها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ.

الثالثة: أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ: ليست منكن امرأة إلا زوجها أبوها، أو أخوها أو أهلها غيري، فالذي زوجني من رسول الله ﷺ هو الله عز وجل، والسفير جبرئيل؛ فأنا أكرمكم ولياً، وأكرمكم سفيراً.

وكانت كثيرة الصدقة والإيثار، صادقة التدين. ماتت في المدينة المنورة سنة عشرين من الهجرة، ودُفنت في البقيع. وهي أول من مات من نساء الرسول بعد وفاته، وعملت لها أسماء نعشاً يسترها، كما عملت للسيدة فاطمة الزهراء من قبل.

التاسعة: ریحانة - وقيل: غزية - بنت جابر بن حكيم الأزديّة. كانت تحت عسكر بن سمي الأزدي، فأنجبت له ولداً اسمه شريك، فكانت تعرف بـ «أم شريك». خرجت بعد وفاة زوجها على بعير، فمرت بموكب رسول الله ﷺ، فلما سئلت عن نفسها قالت: البعير ومن عليه لله ولرسوله؛ فإن قبلني فقد وهبت نفسي له. فقال لها رسول الله ﷺ خيراً، ودعا لها، وقال: «يا أخت الأنصار، جزاكم الله عن رسول الله ﷺ خيراً، فقد نصرني رجالكم، ورغبت في نساؤكم». فقالت عائشة -

وكانت مع النبي ﷺ -: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا ولي ولا مهر؟ فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿وَأَمْرًا مِّنْهُ إِنَّ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)؛ فسماها مؤمنة. يقول الطبري في تفسير هذه الآية: كتب عبد الملك بن مروان لأهل المدينة يسأل عن هذه المرأة المؤمنة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، يقول أبان بن تغلب،

فكتب له الإمام علي بن الحسين زين العابدين: «هي امرأة من الأزدي يقال لها أم شريك، وهبت نفسها للنبي ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ في العام السابع من الهجرة، فأحل الله لنبيه هبة المرأة نفسها بدون صداق إن إراد أن يتزوجها ولا يحل ذلك لغيره».

ماتت في المدينة، ودُفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين.

العاشرة: رملة ابنة أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية زعيم مكة، وقائد الوثنيين. تزوجها ابن عمه الرسول عبيد الله بن جحش قبل الإسلام، فأسلمت معه على الرغم من عداوة أبيها للإسلام، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية، وولدت له صبية سميتها حبيبة، فكنت بها «أم حبيبة». فلما توفي عنها زوجها هناك لم يعد لها ملجأ في الحبشة غير أن ترجع إلى أبيها عدو الإسلام والمسلمين. وكانت تعرف أنها إذا رجعت وأصرّت على الإسلام فلا بد أن تتعرض لأشد أنواع الأذى والتعذيب من أبيها وأتباعه، فماذا تفعل، وقد بقيت غريبة وليس لها معيل؟

فبلغ رسول الله أمرها، فأرسل إلى النجاشي يطلب منه أن يزوجه منها لينقذها من الغربة وضياح القرين، فزوجه بها، وقيل: أصدقها، وحملها إلى المدينة، وذلك في العام السابع من الهجرة. وماتت سنة أربعين من الهجرة، ودُفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين.

الحادية عشرة: صفية بنت حبي بن أخطب الإسرائيلية الهارونية، ينتهي نسبها إلى هارون أخي موسى بن عمران ﷺ. كان أبوها سيد بني النضير، وفارس خبير، قتله الإمام أمير المؤمنين علي في واقعة خيبر. تزوجت مرتين: تزوجت أولاً من فارس قومها وشاعرهم سلام بن مشكم ففارقها، وتزوجت ثانية من كنانة بن

الربيع بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص، أعزّ حصن في خيبر، ولم تلد لأحد منها شيئاً، فلما أُسرت في واقعة خيبر اصطفاه رسول الله ﷺ، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها في العام السابع من الهجرة، وجعل عتقها صداقها، وهي لم تبلغ العشرين من عمرها.

يقول الطبري: فلما دخل بها الرسول ﷺ وجد في إحدى عينيها أثراً أخضر، فسألها عن ذلك، فقالت: إنها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع رأت في المنام أن قمر السماء وقع في حجرها، فلما أفاقت من نومها عرضت رؤياها على بعلها كنانة، فقال غاضباً: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً. ولطم وجهها لطمه ما يزال أثر منها في عيناها. فسرّه ﷺ ما سمع من حديثها.

ماتت سنة ستّ وثلاثين من الهجرة، ودفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين.

الثانية عشرة: برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية. أبوها أحد أشرف مكة، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث. سيدة اشتهرت بالفضل والنسب الرفيع. وهي خالة خالد بن الوليد، وشقيقة أم الفضل لبانة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب، وأم العباسيين، وأول امرأة آمنت بالرسول بعد خديجة. وأخواتها من أمها:

زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، زوج النبي محمد ﷺ، وأم المؤمنين.
أسماء بنت عميس الخثعمية زوج جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، وأم ابنه عبد الله بن جعفر. ولما قتل جعفر تزوجها أبو بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر، وبعد موته تزوجها الإمام علي، فولدت له يحيى.

سلمى بنت عميس زوج حمزة بن أبي طالب أسد الله، وشهيد أحد.

وأمهن جميعاً هند بنت عوف التي يقال فيها أكرم عجوز في الأرض أصهاراً؛

إذ إن أصهارها رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعلي وجعفر ابنا أبي طالب، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب.

وكانت برة في الجاهلية عند مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، فطلبت منه أن تؤمن ويؤمن معها، ولكنه أبى حتى انتهى بهما الأمر إلى النزاع والافتراق، فبقيت أرملة، فذهبت تعيش عند أختها أم الفضل، حتى كانت عمرة القضاء، ورأت من أحوال رسول الله ﷺ ما أعجبها، فأفضت إلى شقيقتها أم الفضل بما يهفو إليه قلبها، وطلبت من شقيقتها أن تسأل زوجها ليحدث رسول الله ﷺ بأمنيتهما في الزواج منه؛ لتحظى بالمكانة الرفيعة، والشرف العظيم؛ زوجةً لسيد المرسلين، وأم المؤمنين.

فلم يتردد العباس، فاستجاب المصطفى، وتزوجها رسول الله ﷺ. وكان اسمها برة، فسماها «ميمونة». ماتت سنة إحدى وخمسين من الهجرة، ودفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين. وهي إحدى زوجات النبي ﷺ اللاتي تزوج بهن، فسلام الله على ميمونة، وسلام الله على نساء النبي أمهات المؤمنين.

هؤلاء هن نساء المصطفى اللاتي بنى بهن رسول الله ﷺ، وعددهن إحدى عشرة امرأة مصدقة، والثانية عشرة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

جنسيات زوجات النبي

ماتت في حياته خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة، وتوفي هو ﷺ عن تسع؛ منهن ست قرشيات، وخمس عربيات، وواحدة هارونية.

القرشيات:

١- خديجة بنت خويلد.

٢- عائشة بنت أبي بكر.

٣- حفصة بنت عمر بن الخطاب.

٤ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية.

٥ - هند بنت أبي أمية بن المغيرة المعروفة بأُم سلمة.

٦ - سودة بنت زمعة بن قيس.

والعرييات:

١- زينب بنت جحش.

٢ - برة بنت الحارث، التي سماها النبي ﷺ ميمونة.

٣ - زينب بنت خزيمة.

٤ - جويرية بنت الحارث.

٥ - وريحانة بنت جابر بن حكيم.

ومن غير العرييات:

١- صفية بنت حيي بن أخطب، هارونية من سلالة هارون أخي موسى بن

عمران.

أولاده

أقام رسول الله ﷺ مع النساء سبعاً وثلاثين سنة لم يولد له ﷺ إلا أربعة أولاد: ثلاثة ذكور، وبنت واحدة. ولدين وبنت من خديجة، وولد واحد من مارية القبطية:

أولهم: القاسم، وهو أكبرهم، وبه كان يكنى رسول الله: «أبو القاسم».
والثاني: عبد الله.

ويلقبان بالطيب والطاهر. ولم تطل فرحة البيت المحمدي بولديه، فقد ماتا طفلين في مكة، ودفنا بمقبرة الحجون.

والثالثة: بنت واحدة هي فاطمة الزهراء عليها السلام. وأمهم خديجة أم المؤمنين الأولى. وقد عدّ البعض زينب ورقية وأم كلثوم من أولاد النبي من خديجة، ولا أساس لهذا القول، فهن بنات هالة أخت خديجة، جذبهن ثراء خالتهن خديجة للإقامة عندها.

والرابع: إبراهيم، وأمه مارية القبطية. ولد به سنة ثمانٍ من الهجرة، ومات صغيراً - وعمره سنة وستة شهور - ودفن في البقيع بالمدينة المنورة.

فأولاده ماتوا كلهم في حياته، ولم يخلف إلا السيدة فاطمة الزهراء، وهي آخر أولاد الرسول من زوجته خديجة. وُلد بها في مكة المكرمة في العشرين من شهر جمادى الآخرة بعد البعثة بخمس سنين، وهي أعزُّ أولاده، وأحبهم إليه. يقول أحمد شوقي:

ما تمنى غيرها نسلًا ومنْ يلد الزهراء يرغب في سواها

ولأمر قد قدر كان النبي على علم بأنه سوف لن يعقب إلا من فاطمة، فستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر امتداد الزمن، ولتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض؛ ولذلك فقد كان يحبها حباً جماً. سماها فاطمة، ولقبها بالزهراء والبتول، وكان يناديها أحياناً بأُم أبيها. كان يعاملها معاملة الأم، فيقبل يدها، ويقوم لها ويجلسها مكانه، ويخصّها بالزيارة عند كل عودة له إلى المدينة، ويودّعها منطلقاً من عندها إلى كل أسفاره ورحلاته.

لقد أحبّ الزهراء أيما حبّ، وكلف بها أيما كلف، وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد فقال فيها - كما جاء في (ينابيع المودة) -: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها، ويسرني ما سرها». وحق لها أن تنفرد بهذا اللقب؛ فهي بضعة النبي حقاً، أشبهته خلقاً ومنطقاً، وواكبت رسالته منذ البدء، فوعت من ذلك أشياء وأشياء. ثم استمرت تسند الامتداد الطبيعي للرسالة في ظل الإمام، تسنده بكل ما أوتيت من حول وطول. فحق لها أن تكون سيدة نساء العالمين.

هاجرت مع أبيها رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة وعمرها ثماني سنوات، وفي العاشرة من عمرها كانت الزهراء شابة يافعة تتوفر فيها كل عناصر النجاح من خوض تجربة تكاد تواجهه جل بنات حواء. فيزور الوحي محمداً، ويأمره بتزويج الزهراء من علي بن أبي طالب، ويقول: «يا محمد، إن الله تعالى يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إني زوجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملاء الأعلى، فزوجها منه في الأرض».

وفي (الصواعق المحرقة) لابن حجر الهيتمي قال: روى الخوارزمي أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ووجهه مشرق كدائرة القمر، فسأله عبد الرحمن بن عوف، فقال ﷺ: «بشارة أتتني من ربي في أخي وابن عمي، وابنتي أن الله زوج

علياً من فاطمة».

فزوجها إياها، وعاشت معه ثماني سنوات حياة مثالية كانت عنوان الحياة الزوجية، وأنجبت له الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم والمحسن الذي أجهضته بعد وفاة أبيها في غمرة الأحداث المؤلمة التي وقعت آنذاك.

وتوفيت بعد أبيها بأشهر قليلة، وعمرها ثماني عشرة سنة وأشهر، ودفنت في مكان مجهول حسب وصيتها.

والأحاديث تؤكد أن قبرها في أحد الأماكن الثلاثة في البقيع، أو في بيتها الملتصق بقبر النبي ﷺ، أو في الروضة الشريفة التي جاء فيها الحديث الشريف المأثور: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

جوارى الرسول

منهن مارية بن شمعون، وُلدت مارية القبطية لأب قبطي، وأم رومية في قرية تدعى «حفن» من بلدة «أنصنا» مدينة قديمة تقع في نواحي الصعيد المصري على الضفة الشرقية للنيل، وهي القرية التي كلم الإمام الحسن بن علي عليه السلام عنها معاوية بن أبي سفيان أن يضع الخراج عن أهلها؛ امتثالاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وآله، ورعاية لحرمة المصاهرة.

قال صلى الله عليه وآله كما جاء في صحيح مسلم: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً؛ فإن لهم دماً ورحماً». وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل في مطلع شبابه الباكر مع أختها «سيرين» إلى قصر المقوقس عظيم القبط. ولما أرسل النبي إلى المقوقس يدعو إلى الإسلام في العام السابع من الهجرة أرسل له: لقد فهمت ما تدعو إليه، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، ومطية لتركبها. فأعجبت مارية فأعتقها وتزوجها، ووهب أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت.

ولم يسعد مارية شيء قدر ما أسعدها أن تهب للسيد المصطفى على اليأس غلاماً تقر به عينه، ويتعزى به عمّن فقد من أبناء السيدة خديجة - أم المؤمنين الأولى - لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام، فقد مرض إبراهيم مرض الموت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله - وهو في حجرها يجود بنفسه - فأخذه من حجرها، ووضعها في حجره، وجرت دموعه على خديه حين رأى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع حشرجة احتضاره مختلطة بعويل الأم الثكلى، فأله مرآه،

وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإننا بك يا إبراهيم لمحزونون».

ولم تطل أيام الرسول بعد وفاة إبراهيم؛ إذ لم تكن أكثر من عام - فيلقى ربه، وترك مارية من بعده تعيش خمس سنوات لا تخرج من بيتها إلا لتزور قبر الحبيب بالمسجد أو قبر ولدها بالبقيع، حتى ماتت سنة ست عشرة من الهجرة، ودفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين.

ومن جواريه ريحانة بنت زيد بن عمرو بن شمعون القرظية، غنمها رسول الله ﷺ من بني قريظة، فلم تزل عنده حتى العام العاشر من الهجرة، فقد ماتت بعد رجوعه من حجة الوداع، ودفنت في البقيع في جوار أمهات المؤمنين.

خادمات الرسول ﷺ

أم أيمن، بركة بنت ثعلبة الحبشية. غلبت عليها كنيته «أم أيمن»، وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشي. آمنت برسول الله ﷺ، وهاجرت المهجرتين. كانت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ومربيته، رافقت أمه في رحلتها إلى يثرب، وشهدت معه وفاتها بالأبواء، فعاش لا يرى أم أيمن حتى يرق قلبه لذكرى الرحلة، ويقول: هذه أُمِّي بعد أُمِّي.

ورثها من أمه آمنة بنت وهب، وكانت سوداء اللون، فأعتقها النبي ﷺ، وزوجها من مولاه زيد بن حارثة. وكان زيد خادماً لخديجة اشتراه لها حكيم بن حزام من سوق عكاظ بأربعمئة درهم، فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ بعد أن تزوجها، فأعتقه رسول الله ﷺ وزوجه بركة أم أيمن، فولدت له أسامة بن زيد؛ فكان أسود أشبهها، فأسامة وأيمن أخوان لأم واحدة، وهي بركة؛ وقد قتل أيمن في واقعة حنين، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ.

وزيد بن حارثة هو الذي تبناه رسول الله ﷺ، فكان ينسب إليه، ويدعى زيد بن رسول الله، فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمد بهذه الآية من سورة (الأحزاب): ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١).

وقد قُتل في واقعة مؤتة مع جعفر الطيار، وعبد الله بن رواحة دفاعاً عن الإسلام، وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقبورهم موجودة تزار.

(١) الأحزاب: ٥.

وأسامة بن زيد هو الذي أمره رسول الله على جيش عظيم - وفيه كبار الصحابة
مثل أبي بكر وعمر - لقتال الروم بعد رجوعه من حجة الوداع، وقال: «أنفذوا
جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه».

ماتت أم أيمن بعد وفاة رسول الله بستة أشهر، ودُفنت بالبقيع بجوار قبور
أمهات المؤمنين.

مواليه

أما مواليه فزيد بن حارثة، وسلمان الفارسي، وأيمن بن أم أيمن، وأبو كبشة،
واسمه سليم.

مشاهير من خدمه

أنس بن مالك، عبد الله بن مسعود، عقبة بن عامر الجهني.

مشاهير مؤذنيه

بلال بن رباح مؤذن الإسلام ومزعج الأصنام؛ لقد وقع اختيار الرسول عليه
ليكون أول مؤذن للإسلام.

شعراؤه

إن شعراءه هم أولئك الذين كانوا يناضلون عنه ﷺ بشعرهم، ويهجون كفار
قريش، ويعيبون عليهم عبادة الأصنام، وهم: حسان بن ثابت، عبد الله بن
رواحه، كعب بن مالك الخزرجي.

غزوات الرسول ﷺ

لم تتوقف قط تحركات الرسول العظيم ﷺ العسكرية منذ أن هاجر إلى المدينة المنورة، فكانت بعوثه وسراياه تجوب المنطقة ليلاً ونهاراً - تحسباً من هجوم مفاجئ - وترصد تحركات أعداء الدولة الإسلامية. فكان عدد بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بعثة وسرية يعين قادتها بنفسه. وهدفه من ذلك تشتيت شمل القبائل التي تحاول غزوه ومهاجمته.

وكان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بعد هجرته إلى المدينة - عندما أمر بالقتال - سبعاً وعشرين غزوة كان النبي ﷺ معها، وحدث القتال بقيادته، ومنها تسع غزوات قاتل فيها النبي ﷺ بنفسه حتى كسرت ربايعيته، وشج جبينه، وسال الدم على وجهه.

وكان الفرق بين الغزوة والسرية والبعثة أن الغزوة تتكون من جماعات، ويكون الرسول ﷺ هو القائد للجيش، والسرية تتكون من أفراد أكثر من ثلاثة، ولم يكن ﷺ فيهم. وما قل عن الثلاثة فهو بعثة.

ولم يترك الرسول الكريم ﷺ المدينة قط في جميع غزواته تلك إلا واستخلف عليها أحد أصحابه نائباً عنه. وفي كل هذه الغزوات كان يحمل لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، أو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، ورايته بيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلما قُتل حمزة ومصعب بن عمير في واقعة أحد ضم اللواء والراية إلى علي بن أبي طالب.

وهذه أسماء الغزوات التي حدث فيها القتال بقيادة الرسول الأعظم ﷺ،

٣١٨.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

ومن ضمنها التسع الغزوات التي قاتل فيها رسول الله ﷺ بنفسه - كما في سيرة ابن هشام -:

- ١- غزوة ودان، وهي غزوة الأبواء.
- ٢- غزوة بواط من ناحية رضوى.
- ٣- غزوة العشيرة من بطن ينبع.
- ٤- غزوة بدر الأولى.
- ٥- غزوة بني سليم.
- ٦- غزوة السويق.
- ٧- غزوة غطفان.
- ٨- غزوة بحران معدن بالحجاز.
- ٩- غزوة أحد، وهي من الغزوات التي قاتل فيها رسول الله ﷺ بنفسه.
- ١٠- غزوة حمراء الأسد.
- ١١- غزوة بني النضير.
- ١٢- غزوة ذات الرقاع.
- ١٣- غزوة بدر الكبرى، وهي الغزوة التي أعز الله فيها الإسلام، ودفع الكفر وأهله، وقتل صنديد قريش وطغاتهم، ومنهم أبو جهل، وعتبة، والوليد. وفيها قاتل النبي محمد ﷺ بنفسه.
- ١٤- غزوة دومة الجندل.
- ١٥- غزوة الخندق، وتعرف غزوة الأحزاب، وهي من الغزوات التي قاتل فيها النبي ﷺ بنفسه.
- ١٦- غزوة بني قريظة، وهي من الغزوات التي قاتل فيها رسول الله ﷺ بنفسه.

- ١٧- غزوة حليان.
- ١٨- غزوة ذي قرد.
- ١٩- غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسع، وجرى فيها حديث الإفك، وفيها قاتل النبي محمد ﷺ بنفسه.
- ٢٠- غزوة الحديبية.
- ٢١- غزوة خيبر، وفيها قاتل رسول الله ﷺ بنفسه.
- ٢٢- غزوة القضاء.
- ٢٣- غزوة الفتح، وفيها قاتل رسول الله ﷺ بنفسه.
- ٢٤- غزوة حنين، وفيها قاتل رسول الله ﷺ بنفسه.
- ٢٥- غزوة الطائف، وفيها قاتل رسول الله ﷺ بنفسه.
- ٢٦- غزوة تبوك.

السقيفة

إن الرسول العظيم بعد أن فارق الحياة الدنيا تاركاً تعاليمه الدينية كان لابد له من تولية شخص أقرب الناس إليه يأتي من بعده في الكفاءة، والخلق؛ ليقوم بتصريف أمور الناس، وتطبيق تعاليمه بعد وفاته. فالخلافة تأتي بعد مرتبة الرسالة مباشرة في القدسية والأهمية، فليس من المعقول أن يترك أمر المسلمين بعد وفاة الرسول إلى الصدق والظروف في هذه المسألة الحيوية التي يتوقف عليها مصير الشريعة السمحاء. فأمر الله نبيه محمداً ﷺ بالنص على ولاية خليفة من بعده، وهذا الخليفة هو علي بن أبي طالب.

يقول الإمام أحمد في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب: لما قضى النبي ﷺ مناسكه من حجة الوداع، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ووصل غدِير خم من الجحفة التي تتشعب منها طرق المدنين والمصريين والعراقيين، نزل عليه جبرئيل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١) في علي، فنزل النبي ونودي للصلاة جامعة، وكُسح لرسول الله تحت شجرتين، فصلى الظهر، ثم قام خطيباً، وأخذ بيد علي وقال: «إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، فمن كانت مولاة فعلي مولاة، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

فما الذي حال إذن دونه ودون ارتقاء منبر النبي ﷺ بعد وفاته مباشرة؟ الإجابة على هذا السؤال لها ظروف اجتماعية نتجت عن وفاة الرسول، واشتغال الإمام علي في تغسيله وتجهيزه، والصلاة عليه ودفنه، واجتماع الأنصار في سقيفة

بني ساعدة، وموقف بعض القرشيين وكرههم أن تجتمع النبوة والخلافة للهاشميين، وانتهى اجتماع السقيفة بمبايعة أبي بكر، وتنحية الإمام علي عن الخلافة.

تولى أبو بكر الخلافة، وكان اسمه عبد الكعبة، فسماه النبي ﷺ عبد الله بن أبي قحافة. ولقبه عتيق، وكنيته أبو بكر. بويع بالخلافة بعد وفاة النبي ﷺ في اليوم الأول سنة ١١ من الهجرة، ومكث في الخلافة سنتين وأشهرًا، وتوفي لثمانين بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في الحجرة الطاهرة بجوار قبر الرسول الأعظم ﷺ في الشمال الشرقي عند رجلي المصطفى بمسافة ذراع بعد أن عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى - ومدة خلافته عشر سنين وأشهر - الذي طعنه عبد للمغيرة بن شعبة، واسمه فيروز أبو لؤلؤه المجوسي، وقيل: اليهودي بسكين ذات حدين، فسقّ بطنه في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٢٢ هـ، فقضى عليه، ودُفن بجوار سلفه في الحجرة الطاهرة في الشمال الشرقي عند رجلي أبي بكر بمسافة ذراع، وله من العمر ثلاث وستون سنة، بعد أن عهد بالخلافة إلى ستة؛ أحدهم عثمان، كان هو الخليفة، وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة. وفي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ هـ قُتل في منزله، ودفن بيستان كوكب بأقصى البقيع، وله من العمر ٨٢ سنة، وتولى الخلافة بعده الإمام علي.

يقول عائشة: «فما راعني إلا والناس إليّ كعرف الضبع ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفائي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى وفسق آخرون».

وفي عام ٣٦ هـ هاجر من المدينة إلى الكوفة بالعراق، وجعلها دار هجرته.

وفي عام ٣٧ حدثت واقعة الجمل المعروفة بواقعة البصرة.

وفي عام ٣٨ حدثت واقعة صفين بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

وفي عام ٣٩ حدثت واقعة الخوارج.

وفي اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة اغتاله ابن ملجم المرادي وهو يصلي في محرابه صلاة الصبح، فمات من ضربته. ومدة خلافته أربع سنين وأشهر، ودُفن بالنجف الأشرف، وله من العمر ثلاث وستون سنة، وعهد بالخلافة إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام.

فلما بلغ معاوية موت الإمام علي عليه السلام، واجتمع الناس على الإمام الحسن، قام يدعو الناس إلى نفسه، وأغراهم بالمال والمناصب، فخان أكثر الناس الوعد، ونقضوا العهد، وكتب جماعة منهم إلى معاوية: إنا معك، وإن شئت أخذنا الحسن أسيراً وبعثناه إليك. فكتب معاوية إلى الحسن: يا ابن العم، لا تقطع الرحم الذي بيني وبينك؛ فإن أهل العراق غدروا بك، وهذا كتابهم إلي.

فاضطر إلى أن يصلح، ويسلم الأمر إلى معاوية، ويعزل نفسه عن الخلافة، ولكن على شروط منها أن يكون الأمر من بعده للإمام الحسن، وعدم التعرض لشريعة علي بسوء، وأن يُرفع السب عن علي، فعاهده على ذلك، وحلف له بالوفاء. وكتب كتاب الصلح، وانتقلت الخلافة، ومصادر الحكم من المدينة إلى الشام. وكانت مدة خلافة الإمام الحسن ستة أشهر.

وسار معاوية حتى نزل النخيلة - وكان يوم الجمعة - فصلى بالناس، وخطبهم وقال: والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وإنكم لتفعلون ذلك، إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون. إلا وإني منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي، لا أفي له منها بشيء.

وهل يستبعد على مثل معاوية - وهو ذلك الذي لم يذق طعم الإيمان - أن يرتكب كل ما يخالف القرآن وسنة رسول الله ﷺ بدافع من حب الإمارة والزعامة؟

وابتدأت دولة بني أمية بولاية المنشق الخارج على إمام زمانه - معاوية بن أبي سفيان - وتعاقب فيها على الخلافة أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية - وكانت مدة ولايته اثنتين وأربعين سنة؛ منها اثنتان وعشرون سنة ولي فيها إمارة الشام، ولما قتل الإمام علي ادعى الخلافة وبقي فيها عشرين سنة - أظهر خلالها ما في قلبه من الضغائن والأحقاد، فدس السم للإمام الحسن على يد جعدة بنت الأشعث حتى مات مسموماً مظلوماً، وجهر بسب علي والحسن والحسين على رؤوس الأشهاد، وفي الحج والأعياد، وفي المدينة ومكة، وسائر مدن الإسلام، وقتل المواليين لأهل البيت على الظنة والتهمة؛ كحجر بن عدي وأصحابه، وهو أول من نقض حكم العاهر، وأحيا طقوس الجاهلية، وخالف دين محمد ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، ونقل الخلافة إلى ملك عضوض، فعهد بالملك إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه.

تولى الخلافة يزيد بعد موت أبيه معاوية سنة ستين من الهجرة، وفي سنة واحد وستين قتل الحسين وأصحابه وأولاده وسبى نساءه. وفي عام اثنين وستين كانت واقعة الحرة التي أباح فيها المدينة ثلاثة أيام، وقتل من المهاجرين والأنصار والتابعين عشرة آلاف سوى النساء والصبيان. وفي عام ثلاثة وستين رمى الكعبة بالمنجنيق، وقذفها بالحجارة، وأحرقها بالنار.

ثم جاء من بعده معاوية بن يزيد بن معاوية، ثم من بعده مروان بن الحكم -

ويلقب خيط باطل - والحكم طرده النبي ﷺ إلى الطائف، وردّه عثمان. يقول فيه الشاعر:

لحا الله قوماً أمّروا خيط باطلٍ على الناس يعطي من يشاء ويمنع
ثم من بعده عبد الملك بن مروان - وهو الذي بنى قبة الصخرة في بيت المقدس
- ثم من بعده الوليد بن عبد الملك - وهو الذي سمّ الإمام زين العابدين علي بن
الحسين ﷺ، وهو الذي بنى جامع دمشق الشهير المعروف بـ «الجامع الأموي»
- ثم سليمان بن عبد الملك بن مروان، ثم عمر بن عبد العزيز بن مروان - وهو
الذي رفع الشتم عن الإمام علي عليه السلام في أوقات الصلوات، وأمر أن يقال في
القنوت بدل الشتم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، واستبدل باللعن في خطبة
الجمعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

وأعاد فداً إلى بني فاطمة. يقول فيه السيد المرتضى:

يابن عبد العزيز لو بكت العـ — بين فتى من أمية لبيكتك
ثم من بعده يزيد بن عبد الملك، ثم من بعده هشام بن عبد الملك - وهو الذي
قتل الإمام محمداً الباقر مسموماً مظلوماً - ثم من بعده الوليد بن يزيد بن عبد
الملك، ثم من بعده يزيد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم من بعده إبراهيم بن
الوليد، ثم من بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بمروان الحمار،
قُتل بالشام سنة ١٣٢ هـ، وبقتله انقضت الدولة الأموية.

(١) الحشر: ١٠.

(٢) النحل: ٩٠.

وهي ألف شهر كما جاء في سورة القدر. في (الدر المنتور) قال: أخرج الخطيب عن ابن المسيب أن النبي محمدًا ﷺ رأى في منامه بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وشق ذلك عليه، فنزل عليه الأمين جبرئيل بسورة (القدر) فسأله الله بإعطائه ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر هي ملك بني أمية، فقال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(١): مدة خلافة الأمويين الأربعة، عشر خليفة.

توضيح

تولى معاوية سنة ٤٠ هـ، وقتل مروان الحمار سنة ١٣٢ هـ؛ فيكون المجمعل ٩٢ سنة: ٩ سنين ولاية عبد الله بن الزبير، الباقي ٨٣ سنة وشهور أربعة، ومجموعها ألف شهر مدة خلافة الأمويين.

دولة بني العباس

انتهت الدولة الأموية، وابتدأت الدولة العباسية: دولة عربية قرشية هاشمية إسلامية، تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وقد أنشؤوا دولتهم الشهيرة في العراق سنة ١٣٢ هـ، واستمرت حتى عام ٦٥٦ هـ - أي ما يقارب من ٥٢٤ سنة - وهي أطول الدول العربية عمراً. تعاقب عليها سبعة وثلاثون خليفة:

١- عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بحبر الأمة ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الملقب بالسفاح - لكثرة ما سفك من الدماء - وكان أحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب، وكان شديد الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والحرق، ولاحق مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك الأمويين ثمانية شهور، وشعاره (يا لثارات الحسين) حتى قتله.

وساعده في ثورته، والقيام بدعوته أبو مسلم الخراساني، ويعرف بـ «مقوض عروش الدولة الأموية» فكافأه أن ولّاه على خراسان. ولما توطد له الملك، وأقبلت الدنيا عليه، طغى وتجر، وجعل يفتك بالعلويين من بني علي وفاطمة والحسن والحسين بعد أن انتصر بهم، حتى نبش قبور الهاشميين، وأحرق كل من وجده منهم في قبره، حتى قال شاعرهم:

ياليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النارِ

وقال آخر:

والله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباسِ

وكان محل إقامته بالأنبار من العراق، حيث بنى مدينة سبها الهاشمية، وجعلها مقرّ خلافته، ومحلّ إقامته. وكانت مدة خلافته أربع سنين، وأشهرًا، ثم جاء من بعده أخوه المنصور.

٢ - أبو جعفر المنصور، والذي دسّ السمّ للإمام الصادق، فقتله مسموماً مظلوماً.

٣ - ثم جاء من بعده ابنه محمد المهدي.

٤ - ثم من بعده ابنه موسى الهادي.

٥ - ثم من بعده أخوه هارون الرشيد، وهو الذي عدّب الإمام موسى الكاظم عليه السلام في السجن أربع عشرة سنة، ثم دسّ له السمّ وقتله مسموماً غريباً، ودفن بالكاظمية من العراق.

٦ - ثم جاء من بعده ابنه محمد الأمين.

٧ - ثم جاء من بعده أخوه عبد الله المأمون؛ الذي جعل الإمام الرضا عليه السلام ولي عهده، ثم غدر به، ودسّ له السم فقتله مسموماً غريباً عن وطنه، ودفن بطوس: قرية من قرى إيران.

٨ - ثم جاء من بعده أخوه المعتصم، وهو الذي دس السم النقيع للإمام محمد الجواد، وقتله مسموماً غريباً عن وطنه، ودفن بالكاظمية في بغداد العراق بجوار جده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

٩ - ثم من بعده ابنه هارون الواثق بالله.

١٠ - ثم جاء من بعده المتوكل على الله، وهو الذي حرث أرض كربلاء، وأجرى الماء على قبر الحسين، ومنع الشيعة من زيارة الحسين وأهل بيته.

١١ - ثم جاء من بعده ابنه المنتصر بالله.

- ١٢ - ثم من بعده المستعين بالله.
- ١٣ - ثم من بعده المعتز بالله، وهو الذي دس السم النقيع للإمام علي الهادي وقتله مسموماً غريباً، ودفن في سامراء العراق.
- ١٤ - ثم جاء من بعده المهتدي بالله.
- ١٥ - ثم جاء من بعده أحمد المعتمد على الله، وهو الذي دس السم للإمام الحسن العسكري، وقتله مسموماً غريباً، ودفن في سامراء العراق.
- ١٦ - ثم من بعده أحمد المعتضد بالله.
- ١٧ - ثم ابنه المكتفي بالله.
- ١٨ - ثم جاء من بعد ابنه جعفر المقتدر بالله.
- ١٩ - ثم ابنه محمد القاهر بالله.
- ٢٠ - ثم جاء من بعد أحمد الراضي بالله.
- ٢١ - ثم جاء من بعده ابراهيم المقتدي بالله.
- ٢٢ - ثم جاء من بعده عبد الله المستكفي بالله.
- ٢٣ - ثم جاء من بعده الفضل المطيع لله.
- ٢٤ - ثم جاء من بعده ابنه الطابع لله.
- ٢٥ - ثم جاء من بعده أحمد القادر بالله.
- ٢٦ - ثم جاء من بعده ابنه القائم بأمر الله.
- ٢٧ - ثم جاء من بعده حفيده المقتدي بأمر الله.
- ٢٨ - ثم جاء من بعده ابنه المستظهر بأمر الله.
- ٢٩ - ثم جاء من بعده ابنه المسترشد بالله.
- ٣٠ - ثم جاء من بعده ابنه الراشد بالله.

٣١- ثم جاء من بعده عمه المقتفي لأمر الله.

٣٢- ثم جاء من بعده ابنه المستنجد بالله.

٣٣- ثم جاء من بعده ابنه المستضيء بنور الله.

٣٤- ثم جاء من بعده ابنه الناصر لدين الله.

٣٥- ثم جاء من بعده ابنه الظاهر بأمر الله.

٣٦- ثم جاء من بعده ابنه المستنصر بأمر الله.

٣٧- ثم جاء من بعده ابنه المستعصم بالله.

وهو آخر ملوك العباسيين في العراق، قضى اعلى دولته بطش التتار سنة ٦٥٦ بقيادة هولاءكو وهم من أقصى بلاد الصين يسجدون للشمس إذا طلعت من دون الله، لا يجرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات، وملكهم جنكيزخان، وهم من المغول.

الرسول وزعماء قريش

كانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها - في اعتقاد العرب - أنهم أهل الحرم، وكان للحرم المكي مكانته العظمى في نفوس العرب جميعاً. ومن أجل ذلك كان العرب يعظمون قريشاً، ويدينون لها بالسيادة عليهم، ويعتقدون أن أسياد قريش هم أولو الأمر، وأصحاب الحل والعقد في كل ما يتصل بشؤون الدين. وكانت قريش تستفيد من ذلك أيما فائدة؛ فمكانتهم مكانة مرموقة، وسيادتهم سيادة مطلقة، وحياتهم في ظل هذه العقيدة حياة آمنة مطمئنة قد أمنوا فيها على أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا فيها بحرية واسعة وجاه عريض.

والعرب مع ذلك يسعون إليهم في كل موسم من مواسم الحج بما يحملون من الأموال والمتاع، وبما يقدمون إلى البيت الحرام من أنواع الهدى، وإلى الأصنام من نذور وقرايين. وكان هناك نوع آخر من هذا الدخل المستمر يتمثل في شكل ضرائب يفرضونها على الداخلين في أرض الحرم. والعرب يتقبلونها منهم بحكم العقيدة الدينية غير باخلين بها، ولا متأففين منها.

وكان الرقيق من العبيد والإماء يشكّلون كذلك مورداً آخر من موارد الرزق، وسبباً من أسباب الرفاهية التي يستمتع بها السادة من قريش، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من السادة في جميع الأمم والشعوب؛ إذ كان الرق نظاماً سائداً في تلك العهود.

وكان الرقيق يستخدمون ويبيعون ويشتررون كما تستخدم وتباع الأنعام وتشتري. فهم يعملون لساداتهم ما يريدونه منهم من الأعمال دون أن يتقاضوا

على ذلك أجراً، ودون أن يكون لهم شيء من الحرية فيما يأخذون وما يتركون، ودون أن يكون لهم رأي بعد رأي ساداتهم في شأن من الشؤون. فهم يعملون كآلات مسخرة تطعم الضرع، وتنتج فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات، فيصبحون بحكم الرق عبيداً وإماء لساداتهم يعملون كما يعمل أبائهم وأمهاتهم مسخرين بلا أجر ولا جزاء.

إذن فهذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد بن عبد الله خطر عظيم يهدد مصالحهم، ويقلق أمنهم وراحتهم، ويغير الأوضاع في علاقات المجتمع التي تعارفوا عليها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ جيلاً بعد جيل. فقريش سيدة قبائل العرب، والدعوة الإسلامية أول ما تطال زعماءها، وتذهب بتلك الغطرسة القائمة فيهم على الحسب والنسب، وعلى التباهي بأنهم وحدهم الأشراف، وغيرهم الدون.

يقول الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب): كان يقال لقريش في الجاهلية: أهل الله، وجيران الله؛ لما تميزوا به عن سائر العرب، فدعوة محمد ﷺ تؤثر عليهم، وتضعف سيادتهم. فإذا استتب أمر الدعوة، فلسوف تزيل الفوارق المجتمعية بينهم وبين سائر الناس، وتحقق المساواة بين مختلف الطبقات في مكة، فلا يبقى بينهم وبين الفقراء والعبيد والموالي تلك المكانة التي تميزهم، وتجعلهم الأسياد على من سواهم.

فدين محمد يساوي بين العبيد والسادة، فكيف يكونون هم وعبيدهم بمنزلة سواء؟ وكيف تستقيم أمورهم بعد ذلك في تجارتهم ورعاية أنعامهم، وخدمة بيوتهم، وكل ما تعمله لهم العبيد من شؤون حياتهم؟ إنها الفوضى والاضطراب إذن، بل هو الفساد الشامل الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله، وينشره بين الرقيق،

فيغريهم بساداتهم، ويفسدهم عليهم.

فهم يجدون في هذه الدعوة روحاً وريحاناً لشفاء نفوسهم، وإشعاراً بوجودهم، فيتهافتون على تلبية نداء الحق - وهو النداء الذي يجعلهم بشراً مثل غيرهم - ولهم الحق في الحياة والكرامة والحرية التي يبخل بها عليهم أسيادهم القرشيون. وها هي أبواب الحرية تتفتح لهم من خلال الدعوة الجديدة، أفلا يُقبلون عليها ويتبعونها، وهي وحدها قادرة على إطلاقهم من الاستعباد، وتحريرهم من العبودية؟

هذه هي المخاوف التي كانت تساور نفوس سادة قريش من انتشار الدعوة وسريانها في نفوس أهل مكة، وخاصة في نفوس الأرقاء منهم. فاجتمع سادة قريش بعد غروب الشمس عند الكعبة يتشاورون في خطة للقضاء على هذه الدعوة الإسلامية، وقالوا: لقد أصبح محمد والدين الذي جاء به خطراً علينا، فلا ندخل بيتاً من بيوت قريش إلا ونجد أهله يتحدثون عنه، وعن الدين الذي جاء به. فقال أحدهم: ابعثوا إليه، وكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا دعوناك لنعذر إليك، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فوالله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك؛ فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وشتمت آهتهم، وكفرت أباءهم، وعبت دينهم، وما بقي أمر قبيح إلا جئته بيننا وبينك؛ فإن كنت جئت بهذا تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كانت علة غلبت

عليك طلبنا لك من يشفيك حتى نبرئك منه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، وما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فانبرت تلك الفئة الباغية تتبارى في طلب معجزات حسية للوصول إلى تعجيز محمد والخلاص منه. ومن المعجزات التي طالبت بها الجماعة الوثنية محمداً أن يأتي بها ربه إليهم على يديه تثبت لهم نبوة محمد وصحة ما يدعيه من أنه نبي مرسل من السماء - كما جاء في سيرة ابن هشام - بسط الجبال حول مكة، وتفجير الأنهار فيها، فقد قالوا له: إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك تعلم أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا؛ فاسأل لنا ربك - الذي بعثك بما بعثك به - فليسر لنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، ولييسر لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول: أحق هو، أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله. فقال ﷺ: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتمكم ما أرسلت به إليكم؛ فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جناحاً وقصوراً، وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق كما تقوم، وتلمس المعاش كما

نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم؛ لأن
للأنبياء منزلة عند الله تمنعهم من مزاولة أفعال الناس. فقال ﷺ: «ما أنا بفاعل،
وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً». قالوا:
فاسأل ربك أن يسقط علينا كسفاً من السماء، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً
كما زعمت؛ إن شاء ربك فعل فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال: «ذلك إلى الله؛
إن شاء أن يفعل بكم فعل».

حتى إذا وجدوا خيبة الأمل فيما دعوا إليه محمداً، ورأوا ثباته على موقفه قالوا
له: لقد أفسدت كل أمر بيننا وبينك، ولم يبق أمامنا إلا أن نقتلك ونخلص أهل
مكة من شرك. فقال النبي: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وقام وخرج، فتبعه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي - وهو ابن عمته
عاتكة بنت عبد المطلب - فقال له: يا محمد، لقد عرض عليك قومك ما عرضوا
فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً؛ ليعرفوا بها منزلتك من الله - كما تقول
- ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك
عليهم، ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل بعض ما تخوفهم به من
العذاب فلم تفعل، فوالله لا أو من بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلماً، ثم ترقى
فيه، وأنا أنظر إليك، حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك
أنك كما تقول.

وأيم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله،
وانصرف رسول الله إلى منزله.

هكذا وبمثل تلك الأباطيل كانت قريش تحارب الدعوة الإسلامية، فما وجدوا
وسيلة أفضل من الطلب إليه أن يأتي الله على يديه بالمعجزات الخوارق، ولقد ظنوا

- وهم يسمعونه يرد أمر ما يطلبونه إلى الله، ولو شاء فعله - أنهم هزموه، وانتصروا عليه. ولكن سرعان ما تبين لزعماء قريش أسياد الكفر ما كانوا يتوهمون، فقد استمر محمد في دعوته يحثّ الناس على فهم العقيدة الإسلامية، والدخول فيها، والناس يستجيبون ملين نداء الإيمان. فعاد القلق إلى نفوس القرشيين، فماذا يصنعون؟ لكنهم أشرار لن يعدموا الحيلة، ولن تفوتهم الوسيلة، لذلك أرسل كفار مكة وفداً إلى أحبار اليهود بيثرب يشاورونهم في أمر محمد، لعل عندهم الخبر اليقين؛ لأنهم أهل كتاب.

فكانت وصية بني إسرائيل إلى رؤوس الكفار، وعبدة الأوثان في مكة أن يسألوا محمداً عن مسائل ثلاثة:

فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل طاف مشارق الأرض ومغاربها، وأسأله عن الروح. فإن عرف أخبارها فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فعاد الوفد يقول: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. وأخبروهم بما قالت لهم أحبار اليهود، فأرسلوا إلى محمد، وسأله أن يخبرهم عن تلك الأمور الثلاثة، فقال ﷺ: أخبركم بما سألتكم عنه غداً، ولم يكن محمد ليعرف أخبار الماضين ما لم يعلمه الله، فدعا الله أن يبين له من آياته ما طلب كفار قريش، وجعل ينتظر استجابة الحق له. ومرت أيام ومحمد لا يتلقى خبراً من السماء، حتى ظن الكفار أن هذا التعجيز أصاب الهدف، ولكن ما أسرع أن نزل الأمين جبرئيل بما سأل عنه، فذهب النبي إلى الكعبة وقريش مجتمعون حولها، فقال: «يا معشر قريش، لقد سألتموني: عن أمور ثلاثة وما كان لي أن أعلم الغيب، حتى نزل عليّ وحي ربي، فاسمعوا ما سألتموني عنه».

ثم أجابهم عن السؤال الأول - وهو عن فتية ذهبوا في الدهر الأول - حيث تلا عليهم الرسول خبر هؤلاء الفتية، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرْبَنَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾^(١).

وظل يتلوا عليهم ما أنزل الله على قلبه من أخبار أولئك الفتية إلى آخر ما قاله الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾^(٢).

هذه هي قصة أهل الكهف، وهي محفوظة في كتاب الله الخالد في سورة (الكهف)، وقد تلاها الرسول كما أنزلت، فلما انتهى منها قال: «وأما الرجل الذي سألتهموني عنه، وقد طاف في مشارق الأرض ومغاربها، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَاتَّبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾^(٣).

وظل الرسول يتابع خبر ذي القرنين من خلال آيات الله البينات، يتلوها على

(١) الكهف: ٩ - ١٢.

(٢) الكهف: ٢٥ - ٢٦.

(٣) الكهف: ٨٣ - ٨٨.

مسمع قريش حتى نهاية خبره، حيث يقول تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾^(١). وقال ﷺ فيما سأله عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

ها قد أجيب المشركون عما سألوا عنه، فهل يؤمنون؟ لقد كان خليقاً بهم أن يهتدوا إلى الإيمان وهم يرون محمداً يخبرهم بأمور من الماضي السحيق ما كان له ليعرفها لو لم تنزل عليه من السماء. لا لم تؤثر فيهم تلك المعجزة التي أتاهم بها محمد في ذلك اليوم، وتلا عليهم من أخبار الدهور الغابرة، ولم يؤمنوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

لقد عتوا على الله، وتركوا أمره، ولجّوا فيما هم عليه من الكفر، وانصرفوا وهم يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾^(٤).

(١) الكهف: ٩٨.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) البقرة: ٦.

(٤) فصلت: ٢٦.

المصطفى يستسقي لأهل المدينة

عن أنس بن مالك قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ،
فبينما هو جالس في مسجده - وأصحابه حاقون حوله - إذ دخل رجل من باب
المسجد وجاء حتى وقف أمام النبي محمد ﷺ، فقال: يا رسول الله، أجذبت
الأرض، وأحرت الشجر، وهلك المال، وجاع العيال، فادعُ الله أن يسقينا. وأنشد
يقول:

أتيناك والعذراء يدمي لبانها وقد شغلت أم الصبي عن الطفلِ
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة من الجوع ضعفاً قائماً وهو لا يخلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العاميِّ والعلهز الغسلِ
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسلِ

قال: فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه،
ثم رفع يديه نحو السماء وقال: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً سريعاً، غدقاً
نافعاً غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها».

يقول: وإن السماء لمثل الزجاج، فهاجت الريح، وأنشأت سحاباً، فوالله ما ردّ
النبي محمد ﷺ يده إلى نحره حتى أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا من المسجد
نخوض الماء، فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى.

فجاء أهل البطانة يصيحون: الغرق الغرق يا رسول الله، لقد تهدمت البيوت،
وانقطع السبل، فادعُ الله يحبسها عنا. فرفع النبي يديه إلى السماء وقال: «اللهم
حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية، ومنابت الشجر».

فانجاب السحاب عن المدينة يميناً وشمالاً بقدره الله، وجعلت تمطر حول المدينة ولا تمطر في المدينة، فتبسّم رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «الله درّ أبي طالب، لو كان حياً لقرّت عيناه، من ينشدنا قوله؟». فقام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: «يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
تطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضلِ؟»

قال: فقام رجل من بني كنانة أمام الرسول ﷺ، وأنشد قائلاً:

لك الحمد والحمد ممن شكر سقينا بوجه النبي المطر
دعا الله خالقه دعوة إليه وأشخص منه البصر
فلم يك إلّا ككف الرداء وأسرع حتى رأينا الدرر
دقاق العزالي عم البقاع أغاث به الله عليا مضر
وكان كما قاله عمه أبو طالب أبيض ذو غرر
به الله يسقي بصوب الغمام وهذا العيان كذاك الخبر
فمن يشكر الله يلق المزيّد ومن يكفر الله يلق الغير

فقال رسول الله ﷺ: «إن يك شاعر يحسن، فقد أحسنت».

شهادة الضبّ بنبوّة المصطفى

روى ابن كثير عن عامر بن عمر عن عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في محفل من أصحابه؛ إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضبباً، وجعله في كفه؛ ليذهب به إلى رحلة فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة حافين برسول الله ﷺ قال: ما هذا؟ قالوا: هذا النبي المبعوث من الله. فجاء يشق صفوف الناس حتى وقف أمام رسول الله، فقال: يا محمد، واللات والعزى، ما شملت السماء على ذي لهجة أبغض إليّ منك، ولا أمقت عليّ منك، ولولا أن يسميني قومي عجولاً لعلوتك بسيفي، فقتلتك، فسررت بقتلك الأسود والأحمر والأبيض وغيرهم.

فقام عمر وجرّد سيفه وقال: يا رسول الله، مرني بضرب عنقه. فقال ﷺ: «أما علمت يا عمر أن الحلیم كاد يكون نبياً؟». ثم أقبل على الأعرابي وقال له: «ما حملك على أن قلت ما قلت، وقلت غير الحق، ولم تكرميني في مجلسي؟». فقال - استخفافاً برسول الله -: «وتكلمني أيضاً؟ واللات والعزى، ما آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضبّ». وأخرج الضبّ من كفه، وطرحه بين يدي النبي، فالتفت النبي إلى الضبّ. وقال: «يا ضبّ، تكلم بقدره الله». فأجابه الضبّ بلسان عربي مبين، يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك، يا زين من وافى القيمة. فقال ﷺ: «من تعبد يا ضبّ؟». قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. فقال النبي ﷺ: «من أنا يا ضبّ؟» فقال: أنت رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وسيد المرسلين، قد أفلح من صدقك، وقد خاب وخسر من كذبك.

فلما سمع الأعرابي كلام الضب، قال: والله لا أتبع أثراً بعد عين، والله لقد جئتكم وما على ظهر الأرض أبغض إلي منكم، وإنك اليوم أحب إلي من ولدي ونفسي وأهلي، وقد أجبتك بداخلي وخارجي، وسري وعلانيتي؛ فمدّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت محمد رسول الله. فقال النبي محمد ﷺ: «الحمد لله الذي هداك، واعلم أن هذا الدين يعلو ولا يُعلى عليه، ولا يقبل إلا بصلاة، ولا تقبل الصلاة إلا بقرآن».

فعلّمه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) فقال: زدني؛ فما سمعت في البسيط، ولا في الوجيز أحسن من هذا. فقال النبي: «يا أعرابي، إن هذا كلام الله، وليس بشعر. إن قرأت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة كان لك كأجر من قرأ ثلث القرآن، وإن قرأتها مرتين كان لك كأجر من قرأ ثلثي القرآن، وإذا قرأتها ثلاث مرات كان لك كأجر من قرأ القرآن كله».

فقال الأعرابي: نعم الإله إلهنا، ونعم الرب ربنا، يقبل القليل، ويعطي الجزيل. فقال رسول الله ﷺ: «ألك مال؟». قال: ما في بني سليم رجل أفقر مني. فقال رسول الله لأصحابه: «أعطوه».

فأعطوه حتى أغنوه، فخرج يريد أهله، فلقيه جماعة من بني سليم تقدر بألف رجل، فسألهم عن سبب خروجهم، فقالوا: هذا الذي سقّه آهتنا، نريد أن نقتله. قال: لا تفعلوا؛ أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وحدثهم بحديثه، فأسلموا وعاد بهم إلى رسول الله، وأسلموا على يديه.

النبي محمد أفضل الأنبياء

قال الفخر الرازي في (التفسير الكبير) - في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^(١) -: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا﴾ إشارة إلى فخامة أمر الرسل، وعلو مقامهم، وفيه دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء؛ ففيهم من هو أفضل، وفيهم من هو مفضل عليه، وللجميع فضل؛ فإن الرسالة في نفسها فضيلة، وهي مشتركة بين الجميع، وإن الاختلاف بين الأنبياء ﷺ اختلاف في المقامات، وتفاضل في الدرجات، مع اتحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد. والمراد من قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، يعني به: محمد بن عبد الله؛ لأن الله رفع درجته في تفضيله على جميع الأنبياء والرسل ببعثته إلى كافة الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢)، فيقتضي أن تكون مشقته أكثر، فوجب أن يكون أفضل.

وبجعله رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين. وبجعله خاتماً للنبوّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤)؛ فإذا كان خاتم النبيين، وجب أن يكون أفضل؛ لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

وبإتيانه قرآنا مهيمناً على جميع الكتب، وتبياناً لكل شيء، ومعجزاً باقياً ببقاء الدين كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

وقد اجتمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وأن النبي محمداً ﷺ أفضل الكل، ويدل عليه وجوه منها:

أنه قرن طاعته بطاعته، فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(٥).

وقرن بيعته ببيعته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٦).

وقرن عزته بعزته، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾^(٧).

وقرن رضاه برضاه، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٨).

وقرن محبته بمحبته، فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٩).

(١) المائدة: ٤٨ .

(٢) النحل: ٨٩ .

(٣) الحجر: ٩ .

(٤) النساء: ٨٠ .

(٥) آل عمران: ٣٢ .

(٦) الفتح: ١٠ .

(٧) المنافقون: ٨ .

(٨) التوبة: ٦٢ .

(٩) آل عمران: ٣١ .

وقرن إجابته بإجابته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(١).

وأمره أن يتحدّى بكل سورة من القرآن، فقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(٢). وأقصر سورة هي سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات:

وجعل معجزته القرآن، وهي من جنس الحروف والأصوات، وهي أعراض غير باقية، وسائر معجزات الأنبياء من جنس الأمور الباقية، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل معجزة محمد ﷺ باقية إلى آخر الدهر، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية.

وجعل دين محمد أفضل الأديان، فيلزم أن يكون محمد ﷺ أفضل الأنبياء. وجعل الإسلام ناسخاً لسائر الأديان، والناسخ يجب أن يكون أفضل من المنسوخ.

وجعل أمته أفضل الأمم، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، فوجب أن يكون محمد ﷺ أفضل الأنبياء؛ فإن هذه الأمة نالت الفضيلة لمتابعة النبي محمد ﷺ.

وقرن الله اسمه باسمه، فاسمه قرين اسم ربه، فلا يذكر إلا يذكر معه، ولم يكن ذلك لسائر الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٤). روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله قال: «أتاني جبرئيل، فقال إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم. قال: إذا ذكرت ذكرت معي». فقرن الله اسمه باسمه،

(١) الأنفال: ٢٤.

(٢) البقرة: ٢٣.

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) الشرح: ٤.

فاسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، وعلى كل مسلم أن يذكره مع ربه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة.

وروى الضحاك عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، قال: يقول له: لا ذكرت إلا ذكرت معي في الأذان والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح في مشارق الأرض ومغاربها. فلو أن رجلاً عبد الله، وصدق بالجنة والنار، وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء من ذلك، وكان كافراً. يقول حسان:

أغرّ عليه للنبوّة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن معجزاته أن كل نبي نودي في القرآن الكريم باسمه إلا نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٦).

(١) البقرة: ٣٥.

(٢) القصص: ٣٠.

(٣) النمل: ٩.

(٤) الصافات: ١٠٤ - ١٠٥.

(٥) آل عمران: ٥٥.

(٦) ص: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾^(٢).

أما النبي محمد ﷺ، فناده بأفضل الألقاب إليه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾^(٦). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾^(٧). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٩). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(١٠).

في (الأمالي) عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلق الله عز وجل مئة ألف نبي، وأربعة وعشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله ولا فخر. وخلق مئة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، علي وصي أكرمهم على الله وأفضلهم».

(١) هود: ٤٦.

(٢) مريم: ١٢.

(٣) التحريم: ٩.

(٤) الأحزاب: ٤٥.

(٥) الأنفال: ٦٥.

(٦) الأنفال: ٧٠.

(٧) الممتحنة: ١٢.

(٨) الأحزاب: ٥٩.

(٩) المائدة: ٦٧.

(١٠) المائدة: ٤١.

وجاء في الحديث أنه قال: «أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع، وأول مشفع».

وفي تفسير الرازي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يسوا. لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله».

وروى البيهقي في (فضائل الصحابة) أنه ظهر عليّ من بُعد، فقال النبي محمد ﷺ: «هذا سيد العرب». فقالت السيدة عائشة: ألسنت أنت سيد العرب؟ قال: «أنا سيد العالمين، وعلي سيد العرب». وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر:

- ١ - بعثت إلى الأحمر والأسود والأبيض، وكان النبي قبلي يبعث إلى قومه.
- ٢ - وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة ولم يجد الماء، فليتيمم ويصل حيث كان.
- ٣ - ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر.
- ٤ - وأحللت لي الغنائم، ولم تكن تحل لأحد قبلي.
- ٥ - وأعطيت الشفاعة فأدخرتها لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

خطبة الرسول ﷺ آخريوم من شعبان

روى الصدوق بسند معتبر عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «خطب رسول الله ﷺ، فقال: «حَطَبْنَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَاتِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ شَهْرٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الشُّهُورِ وَأَيَّامُهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ وَلِيَالِيهِ أَفْضَلُ اللَّيَالِيِ وَسَاعَاتُهُ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، هُوَ شَهْرٌ دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَاةِ اللَّهِ، وَجُعِلْتُمْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ كَرَامَةِ اللَّهِ. أَنْفَاسُكُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَتَوْمُكُمُ فِيهِ عِبَادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مَقْبُولٌ، وَدُعَاؤُكُمْ فِيهِ مُسْتَجَابٌ؛ فَاسْأَلُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ بِنِيَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ أَنْ يُوفِّقَكُمْ لِحُجَّتِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ؛ فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ غُفْرَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ.

وَاذْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ جُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَطَشَهُ، وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقْرَائِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، وَوَقِّرُوا كِبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغَارَكُمْ، وَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَغَضُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ أَبْصَارَكُمْ، وَعَمَّا لَا يَحِلُّ الْإِسْتِغَاةُ إِلَيْهِ أَسْمَاعَكُمْ. وَتَحَنَّنُوا عَلَى أَيَّامِ النَّاسِ يَتَحَنَّنُ عَلَى أَيَّامِكُمْ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَارْفَعُوا إِلَيْهِ أَيْدِيَكُمْ بِالْدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ صَلَاتِكُمْ؛ فَإِنَّهَا أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بِالرَّحْمَةِ إِلَى عِبَادِهِ؛ يُجِيبُهُمْ إِذَا نَاجَوْهُ، وَيُلِيِّيهِمْ إِذَا نَادَوْهُ، وَيُعْطِيهِمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَكُفُّوا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، وَظُهُورَكُمْ ثَقِيلَةً مِنْ أَوْزَارِكُمْ فَخَفِّفُوا عَنْهَا بِطُولِ سُجُودِكُمْ. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ أَلَّا

يُعَذِّبُ الْمُصَلِّينَ وَالسَّاجِدِينَ، وَالْأَيُّورُوعُهُمْ بِالنَّارِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.
 أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ فَطَرَ مِنْكُمْ صَائِماً مُؤْمِناً فِي هَذَا الشَّهْرِ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عِتْقٌ
 نَسَمَةٍ وَمَغْفِرَةٌ لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَيْسَ كُلُّنَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ.
 فَقَالَ ﷺ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشْرَبَةِ مِنْ مَاءٍ.

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ حَسَّنَ مِنْكُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ خُلِقَهُ كَانَ لَهُ جَوَازاً عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ
 تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَمَنْ خَفَّفَ فِي هَذَا الشَّهْرِ عَمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ خَفَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ،
 وَمَنْ كَفَّ فِيهِ شَرُّهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ أَكْرَمَ فِيهِ يَتِيماً أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ
 يَلْقَاهُ، وَمَنْ وَصَلَ فِيهِ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ قَطَعَ فِيهِ رَحِمَهُ قَطَعَ
 اللَّهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ تَطَوَّعَ فِيهِ بِصَلَاةٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، وَمَنْ
 أَدَّى فِيهِ فَرْضاً كَانَ لَهُ ثَوَابٌ مِنْ أَدَى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الشُّهُورِ، وَمَنْ
 أَكْثَرَ فِيهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ ثَقَلَ اللَّهُ مِيزَانَهُ يَوْمَ تَخْفُ الْمَوَازِينُ، وَمَنْ تَلَا فِيهِ آيَةً مِنَ
 الْقُرْآنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ حَتَمَ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَانِ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُفْتَحَةٌ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُعَلِّقَهَا
 عَنْكُمْ، وَأَبْوَابَ النَّيْرَانِ مُغْلَقَةٌ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُفْتَحَهَا عَلَيْكُمْ، وَالشَّيَاطِينَ
 مَغْلُوبَةً فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُسَلِّطَهَا عَلَيْكُمْ».

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَالِي السَّلَامِ: «فَقُمْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا
 الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحُسَيْنِ، أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ».

مهد النبوة ودار الرسالة (مكة)

مكة: بلدة في بقعة من الأرض في وسط الوادي الأجرد، تحفّ بها الصخور السود والجبال الشم، بوادٍ غير ذي زرع ولا ظل، وماؤها من السماء. وصفها أحد المستشرقين، فقال: «مكة بلدة أقرب إلى البداوة في قلب الصحراء، في وادٍ قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية، مشرفة عليها من جميع النواحي، تحجبانها، فلا يحس الإنسان بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها. تقع بين تلال صخرية سود ذات أطوال متساوية، تمتد عدة أميال، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء، ولا تلك الصخور المترامية التي يكاد ضوءها يذهب بالأبصار.

ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافتحة، فحساها وصخورها الصم تبعث إلى السماء بخارها، فتبدو كأنها فحم يحترق ويصعد إلى السماء دخانه. وتبدو معالم الحياة كأنها جُمّدت في تلك الفلاة، فالوحشة تامة، والسكون مسيطر، ولا تسمع إلا صفير الريح الصرصر العاتية. وحتى السراب الذي يخدع المسافر، فيجعله يأمل في النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة لا وجود له، فلا نخيل هناك، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها. فما من شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية. وليس بمكة ماء جارٍ، مياهها من ماء السماء».

وفي هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التي عرفها التاريخ أمّاً خالدة، الأم التي ولدت خير البشر. في مكة كان منبت آمنة بنت وهب، والدة النبي محمد ﷺ العربي اليتيم الذي بُعث في مكة، فأيد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل. فلما أراد الله أن يجعل تلك البقعة من الصحراء

المترامية الأطراف مثابة عبادة يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة، فهم ينثالون إليها حجاجاً ضارعين، ويلوذون بها داعين مبتهلين، قد هانت لديهم الأرض إلا موضعاً، وعز الأمان إلا في مكان، أوحى الله إلى نبيه إبراهيم - كما جاء في تفسير القمي - عن الإمام الصادق عليه السلام - «وكان نازلاً في بادية الشام - وقد ولد له من هاجر ابنه اسماعيل، فاغتمت سارة من ذلك غماً شديداً؛ لأنه لم يكن لها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر، فشكا إبراهيم ذلك إلى الله، فأمره أن يخرج إسماعيل وأمه عنها، فقال: يا رب، إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني، وأول بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة.

وأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق، فحمل هاجر وولدها إسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل إلا وقال: يا جبرئيل إلى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا، امض امض، حتى انتهى بهم المسير عند مكة وهي إذ ذاك مقفرة خلاء. وعند ربوة هناك حيث أطلال البيت العتيق، ترك إبراهيم هاجر وولدها إسماعيل، وترك لها جراب تمر، وسقاء فيه ماء.

فلما نزلوا في ذلك المكان وكان فيه شجرة ألقى هاجر على تلك الشجرة كساء كان معها فاستظلوا تحته. فلما هم إبراهيم بالانصراف وكان قد عاهد سارة ألا ينزل حتى يرجع إليها، ارتاعت هاجر من وحشة البرية، وتضرعت إلى سيدها إبراهيم، تقول: يا إبراهيم، أتدعنا في هذا القفر، ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان. فقالت: الله أمرك أن تدعني وهذا الصبي في هذا المكان الموحش؟ فقال: نعم، وهو يكفيكم. فقالت: حسبنا الله.

فانصرف عنهما إبراهيم فلما بلغ ثنية الوادي رفع وجهه إلى السماء مبتهلاً

متضرعاً يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

ومضى وأقبلت هاجر على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة في البرية القفر بذلك الوادي الأجرد بين الصخور الكالحة والجبال الغبراء، حتى انتهت مؤنتها ونفد ماؤها، وانقطع درّها، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز، فغمّها ذلك، وأدركتها الحنة على ولدها.

فتركت إسماعيل في موضعه، وهبت مذعورة تبحث له عن ماء، حتى وصلت موضع السعي، فصعدت على الصفاء وجعلت تنظر هل ترى ماءً أو شخصاً، فلم ترَ أحداً، ولم تسمع حساً، فلمع لها السراب في الوادي، فظنّت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي مهرولة تسعى سعي المجهد حتى صعدت المروة، فغاب عنها إسماعيل، فعادت إلى الصفا حتى فعلت ذلك سبع مرات، وقد أمسك الكون أنفاسه، ولم يبقَ من صوت سوى لهات المحتضر وأنين أمه يتردد صداهما في البلقع القفر، مختلطاً بعواء وحوش الفلا، وسعار السباع الحائمة.

فلما كان الشوط السابع وهي على المروة سمعت أصوات السباع وعواء وحوش الفلا، فخشيت على ولدها، فأسرعت تشتدّ نحو إسماعيل، فوجدت الماء قد ظهر من تحت رجله، فسرت به وأقبلت ترتوي من الماء وتسقي ولدها، ثم جعلت تحوطه بالتراب لئلا يسيل يميناً وشمالاً، فزمزم الماء عليها، فقالت: زمّ الماء

(١) إبراهيم: ٣٧.

زم، فسُميت زمزم».

فلما ظهر الماء عكفت الطير والوحش على الماء، ومرت رفقة من جرهم يريدون الشام فنزلوا في أسفل مكة حيث كانت تلك البقعة من أرض الحجاز محطاً يريح فيه البدو الرحل قوافلهم في طريقهم بين الشمال والجنوب قبل أن يستأنفوا سيرهم الشاق في قلب الفلاة، فأوا طيراً، فقالوا: إن هذا الطير الحائم لا يكون إلا على ماء وعهدنا بهذا الوادي لا ماء فيه.

فأرسلوا دليلهم، فعاد ومضى بهم إلى حيث كانت هاجر وولدها عند النبع المبارك، فقالوا لها: إن شئت كنا معك فأنسناك، والماء ماؤك. فأذنت لهم، فنزلوا بالقرب منهم ودبت الحياة في الوادي الأجرد.

وشبَّ إسماعيل في جو البيت العتيق، فلما بلغ مبلغ الرجال بعث الله إلى خليله إبراهيم أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض معبداً كتلك المعابد التي للملائكة في السماء. فسأل إبراهيم ربه أن يعين له موضع ذلك البيت. فبعث الله إليه الأمين جبرئيل ودله على موضع البيت وخطه له وذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(١).

فبدأ من ذلك اليوم تاريخ جديد لمكة مهد النبوة ودار الرسالة.

فبناه إبراهيم من أربعة أجبل: جبل حراء، وجبل ثبير، وجبل الجودي، وجبل طور سيناء. وكانت الملائكة تأتي بالحجارة من تلك الجبال وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، حتى إذا قام البناء أمر إبراهيم ابنه إسماعيل أن يأتيه بحجر يقوم عليه للبناء، فأتاه بحجر وكان من سر هذا الحجر أن يرتفع بإبراهيم كلما ارتفع البناء، وإذا أراد النزول يصغر الحجر لينزل إبراهيم، وقد أثرت فيه قدما

(١) الحج: ٢٦.

إبراهيم، قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

في الكافي في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أنه سئل ما هذه الآيات البينات؟ فقال عليه السلام: «إبراهيم لما قام على الحجر فأثرت فيه قدماه».

وقد استفاض النقل بأن الحجر مدفون في المكان الذي يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافة المطاف حيال الملتزم، وقد أشار إليه أبو طالب عم النبي محمد ﷺ في قصيدته اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
قال: لما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود، أمر ابنه إسماعيل أن يأتيه بحجر حسن يكون للناس علماً يبدوون منه الطواف وإليه ينتهون، فمضى إسماعيل يبحث عن حجر حسن، فنزل الأمين جبرئيل ودلّه على موضع الحجر الأسود الذي حبّاه بأمر الله في جبل أبي قبيس يوم الطوفان، فأخذه إسماعيل وجاء به إلى أبيه فوضعه في الركن الشرقي الجنوبي في مكانه اليوم.

وقيل: لما مضى إسماعيل يبحث عن حجر حسن، وكان جبرئيل قد حبّأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس يوم الطوفان بأمر الله عز وجل، صاح به الجبل: يا إسماعيل، إن لأبيك عندي وديعة، فتعال لتأخذها. فأخذه وجاء به إلى أبيه، فوضعه في مكانه اليوم.

وما برح إبراهيم يبني حتى أكمل بناء الكعبة، وجعلها مكعبة الشكل تقريباً، ولها أربع زوايا وتسمى أركاناً، ولكل ركن اسم يُعرف به:

(١) آل عمران: ٩٧.

فالأول: الركن الشرقي الجنوبي الذي فيه الحجر الأسود، وبه يبدأ الطواف وإليه ينتهي.

الثاني: الركن الشمالي الشرقي، ويسمى الركن العراقي.

الثالث: الركن الغربي الشمالي ويسمى الركن الشامي.

الرابع: الركن الجنوبي الغربي ويسمى الركن اليماني.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^(١).

وجعل لها باباً من جهة الشرق وميزاباً من جهة الشمال يصب في مكان يسمى بحجر إسماعيل، وهو مكان قبره وقبر أمه هاجر.

فلما انتهى إبراهيم من رفع القواعد أتاه الأمر من الله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٢). ففتجاوب له أودية مكة وبطاحها ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك. وتخشع له الجبال الصخرية المحيطة بها، وتعنو له هامات البدو الصلاب أبناء البادية وأمراء الصحراء. وبعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت العتيق، وأذن إبراهيم في الناس بالحج، وطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود. كانت دعوتهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

(١) البقرة: ١٢٧.

(٢) الحج: ٢٧.

(٣) البقرة: ١٢٧ - ١٢٩.

واستجاب الله للدعاء فبعث في ذريتها رسوله المصطفى صفوة الصفوة من صريح ولد إسماعيل بن إبراهيم من السيدة هاجر أم العرب العدنانية التي دخلت التاريخ الديني بهموم أمومتها، وصار مسعاها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج في ديننا الحنيف، وعيداً للأوممة بموسم الحج من كل عام. وكان للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت العتيق.

وطال المدى ومكة مهوى الأفتدة وقبله العرب لا تكاد بقعة أخرى تطمح إلى منافستها، أو تطمح في انتزاع مجدها حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسيرة. ويبقى البيت العتيق كما كان مثابة الخائفين، وقبله الحجاج والعابدین، ودعوة إبراهيم الخليل، وأذانه في الناس.

وفي مكة كان منبت آمنة بنت وهب والدة النبي العربي اليتيم الذي بُعث في مكة، فأيد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

واتخذ الإسلام من الكعبة التي تعبد فيها الخليل قبلته التي يولي المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وأنى أقاموا ما عبد الله في الأرض.

وهو أول بيت وُضع للناس مباركاً وهدى للعالمين، ومن دخله كان آمناً، فما تزال الدنيا تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذي استأثرت به مكة دون سواها من مدائن كبيرة وحواضر أجمل منظراً، وأرغد عيشاً، وأخصب أرضاً. ومن شرفها وفضلها أن ذكرها الله في قرآنه الكريم بأسماء مختلفة، وهذا إن دل على شيء فإننا يدل على عظمة السمو، وفضلها عند الله.

ومن هذه الأسماء المباركة:

١ - مكة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ (١).

٢ - بكة، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢). يقول ابن إسحاق: إنها سميت بكة؛ لأن مكة كانت لا تُقر فيها ظلمًا ولا بغياً، ولا يبغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. ويقال: إنها ما سميت بكة إلا لأنها كانت تبك - أي تكسر - أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٣).
٣ - الكعبة، فقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (٤).

٤ - أم القرى، فقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (٥).
٥ - البلد، فقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٦)، وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ (٧). وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ (٨).

٦ - البيت، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (٩)، وقال تعالى:

(١) الفتح: ٢٤.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) الحج: ٢٥.

(٤) المائدة: ٩٧.

(٥) الأنعام: ٩٢.

(٦) البلد: ١ - ٢.

(٧) البقرة: ١٢٦.

(٨) الأعراف: ٥٨.

(٩) البقرة: ١٢٥.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^(٤).

٧ - البيت العتيق، فقال تعالى في سورة الحج: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٦).

٨ - البلد الأمين، فقال تعالى: ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٧).

٩ - المسجد الحرام، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٨). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٩).

فالمسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، كلها يُراد بها مكة.

١٠ - الحرم، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾^(١٠). جاء في التفسير أن الحرم بمعنى حرام، لا يحل صيده، ولا يُقطع شجره، ومن أُلحد وأنكر أمر الحرم وحرمة فهو كافر مباح دمه.

(١) الحج: ٢٦.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٢٧.

(٥) الحج: ٢٩.

(٦) الحج: ٣٣.

(٧) التين: ١ - ٣.

(٨) البقرة: ١٩٦.

(٩) البقرة: ١٩١.

(١٠) العنكبوت: ٦٧.

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

يقول الطبري: كانت مكة حراماً، ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم، فحرّمها وسماها البيت المحرم، فقال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(١). فالحرم الأيمن هو مكة، جعلها الله مثابة للناس وأمناً، وحرماً وملاذاً يطمئن فيه الخائف، ويأمن لديه المروع، ويحقن عنده الدم المهدور، وتحمى في حماه حياة كانت إذ ذاك مستباحة في شرعة الصحراء وضاوية البيداء.

فخصائص مكة كثيرة، وفضائلها لا تحصى، وليس أبناء أمة في الأرض إلا وهم يعظّمون ذلك البيت، ويعترفون بقدمه وفضله، وأنه من بناء إبراهيم. وقد بلغ من تعظيم العرب لمكة وحرمة البيت ما نُقل عن ابن هشام من سيرة ابن إسحاق: أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجارة من حجارة البيت الحرام تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة وتمسّحوا به وصلّوا له. وكانت خدمة الكعبة نذراً غالباً تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان. بهذا ومثله حدث النقلة، وأكد الرواة - وإنه لشاهد على مدى ما وصلت إليه حرمة البيت العتيق فيهم ومكانة مكة عندهم - تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون، وتقاتل من أجلها المتقاتلون؛

(١) إبراهيم: ٣٧.

فحاربت خزاعة جرهماً حتى أخرجتهم من مكة، وظلّت ولاية البيت في خزاعة يتوارثها بنوها كابراً عن كابر حتى انتزعها منهم قصي بن كلاب الذي هو قريش على أرجح الروايات، والذي ملك مكة ما عاش، ثم تركها لقريش ميراثاً مجيداً لم تنافسها في شيء منه قبيلة أخرى حتى جاءها محمد بن عبد الله حفيد قصي وزهرة بني كلاب بمجد الدهر وعزّ الأبد.

ولما جاء الإسلام زاد الكعبة تعظيماً ورفعة، واتخذ منها - وهي التي تعبد فيها الخليل إبراهيم - قبلته التي يوئى المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا، وأنى أقاموا ما عبد الله في الأرض. أجل، هي مكة، بلد آمنة، ومهد ولدها الوحيد محمد بن عبد الله، ومثابة آبائه وأجداده، ودار مبعثه، وقبله الذين آمنوا به أمس واليوم وغداً وإلى الأبد. يقول فيها الشاعر:

يا مكة الخير ودار التقى ومهبط الوحي وذكرى الرسول
ما أحسن العيش بأم القرى ففي ظلال البيت يشفى العليل
بشرى لمن طاف به سبعة وثم صلى في مقام الخليل

مات النبي محمد ﷺ

قصيدة للعلامة المرحوم الشيخ منصور الحاج علي آل مرهون في الرسول

الأعظم ﷺ

يا حسرة تردد
يا عين سحي دموعاً
قضى بسم شهيداً
ما زال يلقي كروباً
حتى هدى الله فيه
فبلغ الوحي جهراً
وقال للناس قولاً
هذا علي وصيي
هو الخليفة بعدي
أودعتكم أهل بيتي
لا يفرقان إلی أن
والحوض طام تلالاً
وحيدر منه يسقي
طوبى لمن نال منه
ما زال يوصي بهذا
حتى تجلى له اللـ
سقي سموماً فأضحى
وعبرة ليس تنفد
مات النبي محمد
يا قلب حزناً توقد
والجبت في الناس يعبد
جل الأنام وأرشد
عنه وضل الذي صد
مارده غير مرتد
فمن تولاه يسعد
عليكم الله يشهد
ثم الكتاب المسدد
يلاقيني في غد
قدحانه ما لها عد
من سر آل محمد
كأساً وويل لمن رد
في مشهد بعد مشهد
ه وشاء اللقاء المؤبد
على الفراش مسهد

يغشى عليه مراراً
 وجاءه ملك الموته^(١)
 فأنفد الحكم فيه
 وغمض العين منه
 ونفسه منه فاضت
 فضجت الخلق حزناً
 والأرض رجّت ومنه
 فمن يعزّي علياً
 منادياً وأخاه
 تدعوه رحى بروحي
 وجبرئيل ينادي
 لمن يكون هبوطي
 روي فداء لأحمد
 مستأذناً ضارع الخد
 وأطبق الفم وامتد
 وأسبل الرجل واليد
 واسيدها محمد
 وأظلم الكون واسود
 مار السماء وأرعد
 من أجله جيبه قد
 وفاطم تخمش الخد
 فالحزن بعدك سرمد
 وللسماوات يصعد
 من بعد فقدك يوجد

(١) في الصدر زيادة حرف.

شعر للحافظ البرسي

أضاء بك الأفق والمشرق
وكننت ولا آدم كائناً
ولولاك لم تخلق الكائنات
فميمك مفتاح كل الوجود
تجليت يا خاتم المرسلين
فأنت لنا أول وآخر
ودان لمنطقك المنطق
لأنك من كونه أسبق
ولا بان غرب ولا مشرق
وميمك بالمتهى يغلق
بشأو من الفضل لا يلحق
وباطن ظاهرهك الأسبق

إلى هنا انتهى بنا ما أردنا جمعه، وتيسّر لنا وضعه في كتاب (قبس من حياة الرسول). ولعل من ينظر فيه ويطالعه ويقتنيه يزدريني لجمعه وتأليفه، فأنا أخبره من قبل لومه لي أنني دخلت باباً لست من قومه، وأنا عارف بقصوري وتقصيري وقلة المصادر لدي، ولا أدعي أنني لا أغلط، والمقر بذنبه يسأل الصفح، فإن أصبت فهو بتوفيق الله، وإن أخطأت فهو من عوائد البشر.

فأسأله سبحانه وتعالى أن يتجاوز لي عما تكلفته ولست من أهله، وأن يتغمّدي برحمته وعفوه وكرمه. ورجائي أن يحشرنني في زمرة العلماء، فقد ورد في المأثور: «من تشبّه بقوم فهو منهم، ومن أحب عمل قوم حُشر معهم». والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الميامين الطيبين الطاهرين.

بقلم الجاني محمد الشيخ منصور الحاج علي آل مرهون
يوم الخميس الثاني عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤١٧ هجرية
الموافق ١٩٩٧ ميلادية.

المحتويات

١	قبس من حياة الرسول ﷺ
٣	قبس من حياة الرسول ﷺ
٧	محمد ﷺ في المدينة
١٠	النبي يبني مسجده
١٤	تحويل القبلة
١٨	الروضة الشريفة
٢٠	منبر الرسول
٢٢	مساكن النبي ﷺ
٢٥	المؤاخاة
٣٠	الأذان والإقامة
٣٤	أسماء المدينة ومكانتها
٣٧	المدينة مركز الدولة الإسلامية
٤١	أحداث العام الأول من الهجرة
٤٥	أحداث العام الثاني من الهجرة
٥٧	أحداث العام الثالث

٣٦٨.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

- أحداث العام الرابع ٦٧
- أحداث العام الخامس ٧٦
- أحداث العام السادس ٩٠
- أحداث العام السابع ١٠١
- أحداث العام الثامن ١١٥
- اذهبوا فانتم الطلقاء ١٢٦
- أحداث العام التاسع ١٤١
- أحداث العام العاشر ١٥٥
- قصة الغدير ١٦١
- قصة الفهري ١٧١
- أحداث العام الحادي عشر ١٧٢
- تجهيز جيش أسامة ١٧٤
- الاستغفار لأهل البقيع ١٧٥
- زيادة المرض برسول الله ﷺ ١٧٦
- وصايا الرسول لأهل بيته ١٧٨
- محمد يلقي ربه ١٨١
- تجهيز الرسول ودفنه ١٨٤

المحتويات ٣٦٩

أخلاق الرسول ﷺ	١٨٨
فضل الصلاة على النبي محمد ﷺ	١٩١
صفة الصلاة عليه	١٩١
ثواب الصلاة عليه	١٩٣
أمهات الرسول ﷺ	١٩٧
النبي أفضل الأنبياء	٢٠٠
من معجزات الرسول ﷺ	٢٠٥
جوامع كلام رسول الله ﷺ	٢٠٩
حرف الألف	٢٠٩
حرف الباء	٢١٠
حرف التاء	٢١١
حرف الجيم	٢١١
حرف الحاء	٢١١
حرف الخاء	٢١٢
حرف الدال	٢١٢
حرف الراء	٢١٢
حرف السين	٢١٢

٣٧٠.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

- ٢١٣..... حرف الشين
- ٢١٣..... حرف الصاد
- ٢١٣..... حرف الطاء
- ٢١٣..... حرف العين
- ٢١٤..... حرف القاف
- ٢١٤..... حرف الكاف
- ٢١٤..... حرف اللام
- ٢١٤..... حرف الميم
- ٢١٥..... حرف النون
- ٢١٥..... حرف الهاء
- ٢١٦..... حرف الياء
- ٢١٧..... ما بعد النبي محمد ﷺ
- ٢٢١..... إعلان المعارضة
- ٢٢١..... خطاب في باحة المسجد
- ٢٢٩..... نقض الوصيتين
- ٢٢٩..... تأميم قرية فدك من قبل الحكومة القائمة
- ٢٣٢..... سلبات إقصاء الخلافة عن علي عليه السلام

المحتويات	٣٧١
معالم مدينة الرسول	٢٣٦
المساجد الأثرية في المدينة	٢٣٧
مسجد النبي ﷺ	٢٣٧
الحجرة الطاهرة	٢٤١
صفة قبر الرسول وأبي بكر وعمر	٢٤١
حادثة تتعلق بالحجرة الطاهرة	٢٤٢
حجرة فاطمة الزهراء	٢٤٣
قبر فاطمة الزهراء <small>عليها السلام</small>	٢٤٥
الروضة المقدسة	٢٤٦
إسطوانة أبي لبابة	٢٤٨
منبر النبي ﷺ	٢٤٨
مقام جبرائيل	٢٤٨
محراب مسجد النبي ﷺ	٢٤٩
مسجد قباء	٢٥٠
مسجد الجمعة	٢٥٣
مسجد بلال بن رباح	٢٥٤
مسجد القبلتين	٢٥٥

٣٧٢.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

- ٢٥٦.....مسجد بني قريظة
- ٢٥٦.....مسجد السقيا
- ٢٥٧.....مسجد الفضيخ
- ٢٥٩.....مسجد البغلة
- ٢٦٠.....مسجد الإجابة
- ٢٦١.....مسجد الراية
- ٢٦٢.....مسجد العيد
- ٢٦٢.....مسجد أبي ذر
- ٢٦٣.....مسجد مشربة أم إبراهيم
- ٢٦٤.....مساجد الفتح
- ٢٦٥.....مسجد الفتح
- ٢٦٥.....مسجد سلمان الفارسي
- ٢٦٦.....مسجد الإمام علي ؑ
- ٢٦٧.....مسجد فاطمة الزهراء ؑ
- ٢٦٨.....مسجد المستراح
- ٢٦٨.....مسجد الإمام علي ؑ
- ٢٦٩.....مسجد العدو

المحتويات ٣٧٣

بئر الخاتم.....	٢٦٩
بئر إهاب.....	٢٧٠
مساجد أخرى.....	٢٧٠
معالم خارج المدينة.....	٢٧٢
مسجد أحد.....	٢٧٢
جبل أحد.....	٢٧٢
بقيع الغرقد.....	٢٧٤
قبر الصديقة فاطمة الزهراء <small>عليها السلام</small>	٢٧٥
قبر الإمام الحسن <small>عليه السلام</small>	٢٧٧
قبر الإمام علي بن الحسين <small>عليهما السلام</small>	٢٧٩
قبر الإمام محمد الباقر <small>عليه السلام</small>	٢٨٠
قبر الإمام جعفر الصادق <small>عليه السلام</small>	٢٨١
قبر صفية.....	٢٨٢
قبر عاتكة.....	٢٨٢
قبر أم حكيم البيضاء.....	٢٨٢
قبر السيدة حليلة.....	٢٨٢
قبرا أبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل.....	٢٨٢

- ٢٨٣.....قبر رقية بنت النبي محمد ﷺ
- ٢٨٣.....قبر أم كلثوم بنت النبي محمد ﷺ
- ٢٨٤.....قبر السيدة زينب
- ٢٨٥.....قبر العباس
- ٢٨٧.....قبر عقيل
- ٢٨٨.....قبر عبد الله بن جعفر
- ٢٨٩.....قبر عثمان بن مظعون
- ٢٩٠.....قبر عبد الله بن مسعود
- ٢٩٠.....قبر إسماعيل ابن الإمام الصادق ؑ
- ٢٩١.....قبر الحارث بن العباس
- ٢٩١.....قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ
- ٢٩٢.....كلمات حول زيارة القبور
- ٢٩٢.....قبور أمهات المؤمنين
- ٢٩٣.....بيت الأحزان
- ٢٩٥.....قبر فاطمة بنت أسد
- ٢٩٥.....قبر أم البنين
- ٢٩٧.....شهداء الحرة

المحتويات	٣٧٥
زوجات الرسول ﷺ	٢٩٩
جنسيات زوجات النبي	٣٠٧
أولاده	٣٠٩
جواري الرسول	٣١٢
خادمات الرسول ﷺ	٣١٤
مواليه	٣١٦
مشاهير من خدمه	٣١٦
مشاهير مؤذنيه	٣١٦
شعراؤه	٣١٦
غزوات الرسول ﷺ	٣١٧
السقيفة	٣٢٠
دولة بني العباس	٣٢٦
الرسول وزعماء قريش	٣٣٠
المصطفى يستسقي لأهل المدينة	٣٣٨
شهادة الضبّ بنبوّة المصطفى	٣٤٠
النبي محمد أفضل الأنبياء	٣٤٢
خطبة الرسول ﷺ آخر يوم من شعبان	٣٤٩

٣٧٦.....قبس من حياة الرسول ﷺ / الجزء الثاني

٣٥١.....مهد النبوة ودار الرسالة (مكة)

٣٦٢.....مات النبي محمد ﷺ

٣٦٤.....شعر للحافظ البرسي

٣٦٧.....المحتويات